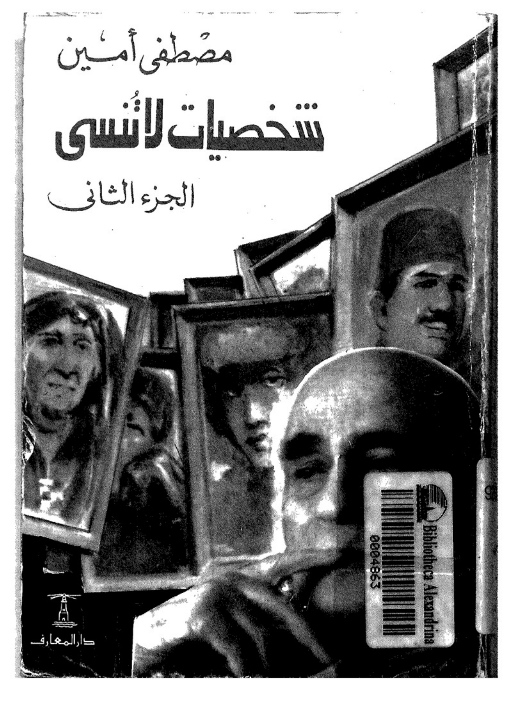

مصطفى أمين
شخصيات لا تنسى
الجزء الثانى
دار المعارف
Bibliotheca Alexandrina
0004863

مصطفى أمين

شخصيات لا تنسى

الجزء الثاني

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.


رجال القلم

رجل كان يعيش فى المستقبل!

كان الزعيم سعد زغلول يحرص أن يتناول الغداء مع أفراد أسرته كل يوم، ماعدا يوم الاثنين! فقد كان يوم الاثنين هو إجازة دار الكتب وعطلة مديرها أحمد لطفى السيد. وكان لطفى السيد يذهب فى صباح ذلك اليوم من كل أسبوع إلى بيت سعد ويستقبله فى الطابق العلوى، ويمضى معه النهار كله ويتناول معه الغداء.

وكان لطفى السيد يحرص على هذا الموعد، وذات يوم لم يحضر وأرسل مع ابنه شهادة من الدكتور على إبراهيم باشا الجراح المشهور أنه مريض وملازم الفراش!

ولم يحضر أحد هذا الحديث الأسبوعى، ولو كان اخترع التسجيل فى تلك الأيام لاستطعنا الحصول على أشرطة ممتعة لمناقشات وحوار فى الأدب والسياسة والمنطق واللغة..

وقد كانت ميزة لطفى السيد عند سعد زغلول أنه «رجل يعيش فى المستقبل...».

وفى مذكرات سعد زغلول فى عام ١٩٢٥ أن لطفى السيد أعطاه كتب لينين ليقرأها وقد انقطع سعد عدة أيام ليقرأ هذه الكتب باللغة الفرنسية، لأنها لم تكن طبعت بعد باللغة العربية.

ودفع لطفى السيد ثمنًا غاليًا لأنه رفض دائمًا أن يعيش فى الحاضر أو فى الماضى. وفى أوائل هذا القرن أصدر جريدة «الجريدة» وكانت شيئًا جديدًا فى صحافة تلك الأيام. وفوجئ القراء بدعوة غريبة هى أن «مصر للمصريين»!

وكانت الوطنية يومئذ أن مصر ولاية عثمانية تابعة لسلطان تركيا! ولكن لطفى السيد رفض هذا الرأى، وقال إنه يرفض حكم الإنجليز وحكم الأتراك معًا، وإن مصر للمصريين. ويومها اتهمته صحف الحزب الوطنى بالخيانة لأن الزعيم مصطفى كامل كان يؤمن بأن علاقة مصر وتركيا إلى الأبد هى «علاقة التابع بالمتبوع»!

وبقى لطفى السيد مصرًا على رأيه رغم اللعنات التى انصبّت عليه. والاتهامات التى وجهت إليه، وكان أغربها أن لطفى السيد «إنجليزى» لأنه يطالب بأن تكون مصر للمصريين لا للأتراك!

وعندما أصدر قاسم أمين كتابه عن تحرير المرأة قاطعه الناس، وحرم الكبراء عليه دخول بيوتهم، وأفتى بعض العلماء أنه خرج عن الإسلام، وكان لطفى السيد من القلائل الذين وقفوا إلى جانب قاسم أمين. وقال لطفى السيد يومها إنه لن تمر على مصر أكثر من خمسين عامًا إلا وتكون المرأة المصرية وزيرة! وسمع الخديو عباس بهذا الرأى فقال: إن لطفى السيد قد جن وإنه يحسن وضعه فى السراى الصفراء. والسراى الصفراء هو الاسم الذى كان يطلق على مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية!

وقبل أن تمضى خمسون عامًا على هذا الحديث كانت المرأة المصرية وزيرة للشئون الاجتماعية!

ودعا لطفى السيد إلى الديمقراطية ولعن حكم الفرد. ثم جاءت انتخابات الجمعية التشريعية، ورشح نفسه فى بلده حيث أسرته وعزوته، وتقدم للترشيح ضده رجل لا يقرأ ولا يكتب. وتوقع الناس أن يهزم الفيلسوف الكبير وأستاذ الجيل ومترجم أرسطو ذلك المنافس الجاهل!

وإذا بهذا المنافس الجاهل يثبت أنه أستاذ فى علم الانتخابات. فقد طاف على الناخبين يقول لهم: إن لطفى السيد رجل يؤمن بالديمقراطية، ومعنى الديمقراطية أن تتساوى المرأة مع الرجل فتتزوج المرأة أربعة رجال كما يتزوج الرجل أربع نساء! وصدق الناخبون السذج هذه الأكذوبة وأرسلوا وفدًا لمقابلة لطفى السيد، وسألوا: هل صحيح إنك ديمقراطى؟

وقال لطفى السيد: نعم! ولى الشرف!

وخرج الوفد يضرب كفا على كف وذهب وانتخب خصم لطفى السيد الذى لا يقرأ ولا يكتب، وهكذا سقط أكبر أديب وفيلسوف فى مصر فى الانتخابات.

جرت هذه الانتخابات فى سنة ١٩١٢ وبعدها أقسم أن لا يرشح نفسه فى أى انتخابات بعد ذلك، وبذلت معه محاولات جبارة من أصدق أصدقائه حتى يعدل عن رأيه ولكنه أصر أن

لا يتقدم للترشيح، وإن كان قبل أن يعين عضوًا فى مجلس الشيوخ.

* * *

قلت له مرة: إن التاريخ سوف يذكر لك أنك من أوائل الذين طالبوا بالدستور، وأنك من أوائل الذين طالبوا بوقف الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد.

قال: صاحب الفضل الأول فى الدستور هو أحمد عرابى. فالدستور المصرى من عمله ومن صنع يده ومن آثار جرأته، طلب عرابى كزعيم أمة لا كقائد عسكرى، كان فى هذا الطلب وكيلًا عن الأمة لا ثائرًا على العرش. وكلته الأمة على ذلك. عريضة طلب الدستور، كان موقعًا عليها من وجهاء الأمة ومشايخها وكبار أصحاب الرأى فيها! وأنا آخذ على عرابى أنه خرج على الخديوى، فى غير مصلحة عامة للأمة، وفى عدم تقديره حالة مصر العسكرية تقديرًا صحيحًا، وفى جهله بالمقارنة بين قوته الحربية الضعيفة وبين قوة إنجلترا الجبارة. فهو مسئول عن هزيمة مصر العسكرية واحتلال الجيش البريطانى لمصر، ولكنه ليس وحده المسئول، فإن أعضاء مجلس النواب بالإجماع أيدوه فى إعلان الحرب، ومجلس الوزراء حرضه بالإجماع على الحرب، ولا أعرف مصريًا واحدًا اعترض يومها على دخول الحرب، أو حاول أن يبصر عرابى بحقيقة الموقف العسكرى، ولو كان عرابى متعلمًا لعرف حقيقة الحالة العالمية وقتئذٍ وتنبه أن الدول العظمى ستؤيدنا

بالكلام وتتخلى عنا عندما جاء وقت العمل. وقد عامل الشعب المصري عرابى أسوأ معاملة، فاستقبله بعد عودته من المنفى استقبالاً سيئًا، ووصمه بالخيانة. ولم يكن عرابى خائنًا، إنما كان رجلاً وطنيًا أخطأ فى الحساب. وعاش بقية حياته منبوذًا من المصريين الذين أراد أن يحررهم، ودفع ثمنًا غاليًا من أجل أن تكون بلاده حرة وسكانها أحرارًا!

* * *

وقد ماتت زوجته وهى سيدة صغيرة فلم يتزوج بعدها، مع أن كثيرات من السيدات المثقفات من مصريات وأجنبيات كن يتمنين مشاركة لطفى السيد حياته العظيمة. ولكن قلبه سقط صريع الحب. فقد أحب الكاتبة المعروفة مى زيادة، وتبادل معها خطابات غرامية حادة ووقعت هذه الخطابات فى يد دار الهلال وكان على أمين رئيسًا لمجلس إدارتها، وأوفد الأستاذ طاهر الطناحى يستأذنه فى نشر هذه الخطابات فثار وغضب وقال إنه بلغ حوالى التسعين من العمر وتصويره فى صورة العاشق لا يتفق مع الجلال والوقار. وذهب على أمين إلى نادى محمد على، وكان لطفى السيد يجلس مع الدكتور بهى الدين بركات الوصى السابق على العرش والدكتور عبد الحميد بدوى باشا القاضى بمحكمة العدل الدولية. وانضم القطبان إلى على أمين فى ضرورة النشر، ورضخ لطفى السيد لقرار الأغلبية ونشرت الخطابات الغرامية التى كانت قطعة من الأدب والغزل فأحدثت ضجة كبيرة فى هذه الأيام.

وأذكر أن لطفى السيد كان قبل ذلك مديرًا للجامعة. وجاءنى وكيل البريد فى أحد الأقاليم، وقال لى: إن لطفى السيد رفت طالبًا فى ليسانس كلية الآداب لأنه كتب خطابًا غراميا لطالبة فى الكلية وقد أصبحت الآن من أكبر المربيات فى مصر، فما كان من الطالبة الجميلة إلا أن أعطت شقيقها الأستاذ فى إحدى كليات الجامعة الخطاب الغرامى الذى حمله إلى مدير الجامعة لطفى السيد وطالب بفصل الطالب العاشق، وأصدر لطفى السيد على الفور قرارًا بفصل الطالب العاشق من الجامعة وحرمانه من جميع الامتحانات. وزارنى والد الطالب المفصول وقال لى إنه أب لسبع أولاد، وسيحال إلى المعاش بعد شهور، ومعاشه لن يكفيه هو وأولاده للحياة، وكان اعتمادهم أن يتخرج الطالب العاشق هذا العام ويستطيع بمرتبه البسيط أن يضمه إلى معاش وكيل البريد الضئيل لإطعام الأولاد السبعة. وكنت رئيسًا لتحرير مجلة آخر ساعة وتحمست للأب المنكوب وذهبت إلى الأستاذ شقيق الطالبة أحاول إقناعه بالعفو عن الطالب الصغير فرفض بشدة وطردنى خارج الشقة. وذهبت إلى مكتب مدير الجامعة وقلت للطفى السيد: لماذا فصلت هذا الطالب؟ قال لطفى السيد: لأنه كتب خطابًا غراميا! قلت: ولكنك فى شبابك كتبت عدة خطابات غرامية للآنسة مى زيادة! قال: لأن مى تسلمت الخطابات ولم تشكونى لأبيها! فلا ذنب على العاشق إذا كتب رسالة غرامية وتقبلتها المرسل إليها، ولكن الأمر يتحول إلى جريمة عندما تتلقّى المرأة خطاب غرام من رجل لا تريده!

وأصر لطفى السيد على طرد العاشق من بكالوريوس الآداب.

والغريب أن الطالبة الجميلة لم تتزوج حتى الآن رغم مرور خمسين عامًا!

* * *

وكان يحدث أن نجتمع بلطفى السيد وهو فى أواخر الثمانين من عمره، وكنا فى مطلع شبابنا، وكان يتصادف أن يضم المجلس آنسات فى التاسعة عشرة والعشرين والواحد والعشرين.. وإذا بالعجوز الفيلسوف يستطيع بحديثه العذب الساحر أن يخطف منا الشابات الفاتنات، ويتركننا ليلتففن حول لطفى السيد. ونقترب منه فإذا به يحدثهن عن آخر أنباء الموضة والابتكارات الحديثة فى الروائح العطرية والرقصات الجديدة وآخر صيحة فى الأغانى الحديثة. كان لطفى السيد أكثرنا شبابًا وحيوية وحركة، وكنا نشعر أنه أنشطنا، وأنه أقرب منا إلى عقلية الفتيات اللاتى يتحدث إليهن!

قلت له مرة ضاحكًا: إذا كنت تسبقنا وأنت فى التسعين من عمرك، فماذا كنت ستفعل بنا لو كنت فى العشرين؟

وابتسم لطفى السيد متواضعًا وقال وهو يهز عصاه على الأرض: كنت أتمهل... لأننى أعرف أن فى العمر بقية. أما الآن فيجب أن أسرع لأن الوقت ليس حليفى!

وجلسنا يومًا نندب حال كلية الحقوق فى هذه الأيام، فروى

لطفى أنه عندما دخل مدرسة الحقوق كانت مدة الدراسة فيها خمس سنين، وكانوا يدرسون فى سنيها الأولى النحو والصرف وعلوم البلاغة، ويدرسون بعد ذلك علم المنطق وآداب الحديث والبحث والمناظرة والمناقشة وعلم الأصول وشيئًا من تفسير القرآن واللغة الفرنسية.. بل وتحسين الخط الفرنسى. وكانت مدة الدراسة فى اليوم الواحد ست ساعات، ثلاثًا قبل الظهر وثلاثًا بعده.. وكان التلاميذ يجتمعون فى فناء المدرسة على هيئة طابور قبل دخول الفصول.. وكان عدد جميع الطلبة فى السنوات الخمس ٧٥ طالبًا. وكانت الفرقة التى تخرجت قبلهم بسنة لا يزيد عدد طلبتها على خمسة من الطلبة. وكانت دفعة أحمد لطفى السيد ١١ طالبًا فقط. وكان ناظر المدرسة ينام فى المدرسة. وهكذا كان الأستاذ يعرف كل طالب. فكانت جامعة بنفس المعنى. أما الآن فوجود ألوف الطلبة فى قاعة واحدة مع مدرس يحولهم إلى مظاهرة لا إلى درس جامعى!

وعندما كان لطفى السيد يلتقى بطالبة مشاكسة من طلبة الجامعة كان يقول لها ضاحكًا: لا تجعلينى أندم لأننى أدخلت الفتيات إلى الجامعة المصرية! فقد أدخلت الفتاة المصرية فى غفلة من الحكومة. اتفقت مع الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب والدكتور على إبراهيم عميد كلية الطب والدكتور كامل مرسى عميد كلية الحقوق أن تدخل الطالبة المصرية فى الكليات فى السر، بغير ضجة ولا إعلان ولم يتنبه الشعب إلى أن الفتاة المصرية دخلت الجامعة المصرية إلا بعد ١١ سنة، وقامت الدنيا

على قدم وساق وأرسل الأمير محمد على توفيق والأمير عمر طوسون خطابات عنيفة يحتجان فيها على دخول المرأة المصرية الجامعة! وقال الأمير محمد على: أخشى أن يحدث انفجار في البلد بعد أسبوعين من دخول المرأة المصرية الجامعة. قال أحمد لطفى السيد: إننا أدخلنا الفتاة المصرية إلى الجامعة منذ ١١ سنة فإذا كانت القنبلة ستنفجر لكانت انفجرت بعد سنة أو سنتين أو عشر سنين!

كنت تدخل مكتب لطفى السيد فتجده علق على جدرانه صور أربعة رجال: سعد زغلول وجمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وعبد العزيز فهمى باشا. وكان يقول هؤلاء أعظم أربعة قابلتهم فى حياتى.

وكان يروى عن جمال الدين الأفغانى أنه لأول مرة رآه فى الأستانة فى صيف سنة ١٨٨٣ بعد عام واحد من الاحتلال البريطانى. كان يمر بإحدى القهاوى فرأى فيها صديقه سعد زغلول القاضى بالاستئناف وقال له: إنه حضر إلى تركيا ليقابل أستاذه جمال الدين الأفغانى، ودعاه ليصحبه إلى الزيارة، وقال لى يصف هذا اللقاء:

«كان سعد يعامل جمال الدين كشيخه وأستاذه، وكان جمال الدين يعامل سعد زغلول كتلميذه المخلص الذى يتوقع له مستقبلاً عظيماً، وكان معنا فى هذا اللقاء حفنى ناصف بك العالم فى اللغة العربية والشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد التى كانت واسعة الانتشار.

كان جمال الدين من أعظم الشخصيات التى قابلتها فى حياتى. كان قوى الشخصية. حاضر البديهة. له سخرية جبارة. ممتلئ البنية. أبيض اللون. أسود العينين. مسترسل الشعر. يلبس على رأسه عمامة كبيرة يحيطها شال أبيض غليظ. وكان يرتدى بنطلونًا. وكان مهيب الطلعة. فيه جاذبية عجيبة. الكلمات تخرج من فمه كالمدفع الرشاش. كل رصاصة تصيب فى المليان. كانت قذائفه فى كل اتجاه. تصيب الهند مرة، وتصيب مصر مرة، وتصيب إنجلترا مرات. بل كانت تصيب حكومة العثمانيين التى استضافته بعد أن طاردته أغلب بلاد العالم!

وكان يعتقد أن عظمة الغرب أنه اخترع الكهرباء والبخار، وأنه يجب على الشرق أن يخترع شيئًا ويضيف إلى المدنية اختراعًا جديدًا!

ولم يعش جمال الدين حتى يرى الغرب يخترع الذرة والقنبلة الهيدروجينية، وبقينا نحن نخترع الخلافات والانقسامات والاتهامات!

وكان الشيخ جمال الدين الأفغانى يؤكد لنا أن الشعب المصرى سيقوم بثورة. وكان يتمنى أن يقود هذه الثورة بعض تلاميذه.. وتحققت هذه النبوءة فقد كان أحمد عرابى أحد تلاميذه ومصطفى كامل وسعد زغلول!

والرجل الثانى الذى أثر فى حياتى هو الشيخ محمد عبده، وكان يمتحننى فى مدرسة الحقوق، وكنت أحضر دروسه فى التفسير

فى جامعة عابدين، وجمعنا بعد ذلك مجلس جمال الدين الأفغانى، كان رجلًا حكيمًا وشجاعًا. وقلما اجتمعت الحكمة مع الإقدام. وكان صامدًا لا يتزحزح. عادلًا لا يميل مع الهوى. يحكم على نفسه قبل أن يحكم على الناس. كان يفسر القرآن بعقلية المستقبل لا بعقلية الماضى. وكان يحارب الخرافات ولا يهمه إذا رضى الرأى العام أم غضب. إذا اتهمه الجهلاء بالكفر أو حملوه فوق الأعناق. وكان يؤمن بأن مستقبل الشرق فى العلم لا فى الشعر. ولم يكن يقتنع برأى إلا بعد دراسة وتمحيص. وأعتقد أن سعد زغلول تأثر بجمال الدين ومحمد عبده معًا، وهما أستاذاه الحقيقيان!

يرفض أن يكون رئيسًا للجمهورية

قبل الثورة بأيام قابلته فى فندق سيسيل بالاسكندرية، وكان البلد يعيش فى أزمة وزارية. وزارة تؤلف ووزارة تستقيل. فسألته ما هو الحل؟ قال لطفى السيد: العساكر! وظهرت على وجهى الدهشة أن أسمع هذا الكلام من أحد رواد الديمقراطية فى مصر، ولاحظ دهشتى وقال: نعم العساكر.. لمدة سنة أو سنتين، وبعد ذلك نتوب ونعود إلى الديمقراطية ونمارسها ونعتنقها!

وفى سنة ١٩٥٤ قال لى الرئيس جمال عبد الناصر إنه أوفد الصاغ لطفى واكد أحد الضباط الأحرار إلى قريبه لطفى السيد يعرض عليه ترشيحه لرياسة الجمهورية، وأن لطفى السيد

رفض، وأن عبد الناصر يعرف صداقتى للطفى السيد ويعتقد أننى سأقنعه بقبول هذا المنصب الكبير.

وذهبت إلى لطفى السيد فى منزله بمصر الجديدة وناقشته طويلاً فى رفضه، وقال لى: هذه الثورة قام بها عساكر ويجب أن يكون رئيس الجمهورية عسكرى، ومادام عبد الناصر قاد الثورة فيجب أن يرأسها، ولست أقبل أن أكون طرطورًا يجلس فى رياسة الجمهورية!

قلت: أنا أعرف أنك سترفض أن تكون طرطورًا..

قال: وعندئذ سيضعوننى فى السجن! إننى أفضل أن أبقى جالسًا على الكرسى الذى أجلس عليه الآن فى مكتبى بالمجمع اللغوى!

نحن أحسن من آبائنا!

وكان عندما يلتقى بى يقول: أنت أحسن من أبيك، وأبوك أحسن من جدك! إننى أعرف جدك جيدًا وكثيرًا ما كنت ألتقى به عند الشيخ محمد عبده، وأعرف والدك وكنت ألقاه عند سعد زغلول. فأنا أؤمن أن جيلكم أحسن من جيل آبائكم، وجيل آبائكم خير من جيل أجدادكم. أنا عشت أكثر من تسعين سنة، وأقول لك إن جيل القرن العشرين أحسن من جيل القرن التاسع عشر، وجيل القرن التاسع عشر أحسن من جيل القرن الثامن عشر. ولا تصدقوا من يقولون لكم إن الأخلاق قد

انحطت فى الحاضر عما كانت عليه فى الماضى. وإن الفساد قد زاد الآن أكثر مما كان من خمسين سنة! إن كل ما حدث أن عدد السكان زاد فزاد عدد الناس الطيبين وزاد عدد الناس الفاسدين. ولكن نسبة الفساد فى الماضى أكثر كثيرًا من نسبة الفساد فى الحاضر! لو راجعت إحصائية الجرائم والجنايات لوجدت أن النسبة فيها زادت أقل مما زاد عدد السكان! إذا كانت الإباحية زادت عشرة فى المائة، فالفضيلة تضاعفت مرتين، وإذا كان الإلحاد زاد واحدًا فى المائة فإن الإيمان وصل إلى ٩٩ فى المائة!

وكان يؤمن بالتطور والتقدم. وكان يرى أن الفرامل التى توضع فى طريق انطلاق الشباب هى فرامل مؤقتة. وكان يفخر أن أعظم أعماله هو إدخال البنت إلى الجامعة!

وفى شهر فبراير سنة ١٩٦٣ ذهبت لأعوده فى بيته فى مصر الجديدة، فاستدعانى إلى لقائه فى غرفة نومه، وكان معه فى الغرفة صديقه الدكتور بهى الدين بركات.

وكان راقدًا فى فراشه، وقد تدثر بغطاء ثقيل، وسألته عن شكواه. فقال باسمًا: أشكو من كل شىء! يظهر أننى عشت أكثر مما يجب، وأكثر مما أريد! وكان بجواره كتاب الأغانى..

وقال إنه يعيش فيه ويهرب إليه من الأمراض، وفى صفحاته ينسى أنه مريض. وسألته عن الكتب الجديدة فقال إنه انقطع عن قراءة الكتب الجديدة لأنها تتعبه، وإنه يكتفى بقراءة الجرائد اليومية. وسألته ماذا تقرأ فيها؟ قال أتصفح العنوانات الكبيرة!

وفى يوم ١ مارس استيقظ لطفى السيد فى الساعة السابعة صباحًا كعادته كل يوم وطلب من ممرضته قدرية أن تعد له الإفطار وأحضرت له فولاً مدمّسًا وكوبًا من البرتقال!

وكان لطفى السيد يقول إنه اعتاد منذ صباه أن يأكل الفول المدمس كل صباح، ولم يغير هذه العادة أبدًا إلا عندما سافر إلى سويسرا ليتعلم، افتقد الفول المدمس، وحاول أن يستورده من مصر ففشل... وعند عودته إلى مصر كان أول شىء طلب أن يأكله الفول المدمس! وكان يهزأ من الذين يقولون إن الفول المدمس «يتخن العقل» ويقول: لا أشعر بصفاء ذهنى أكثر مما أشعر به بعد أن آكل طبقًا من الفول المدمس!

ويومها نام بعد الإفطار ثلاث ساعات، ثم استيقظ وتناول غداءه وكان مكونًا من ربع فرخة وبطاطس بوريه وطبق مهلبية.

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر أحس بصداع شديد واستدعى طبيبه الدكتور محمد توفيق طلعت وفحصه وطمأنه على صحته ونصحه بأن يأخذ قرصين من الأسبرين، وسأله لطفى السيد : هل سأموت اليوم!؟

وقال الطبيب: لا... أنت بخير!

وطلب الصحف وتصفحها بسرعة ولم يستطع أن يكملها فألقاها على الأرض، وقال للممرضة: غريبة إن متعتى فى الحياة أن أمسك الصحف بيدى كأننى ألمس الدنيا.. ولا أشعر بهذه الرغبة اليوم!

وفى الساعة الثامنة مساء طلب عشاءه وكان طبقًا من شوربة الخضروات وطبقًا من المهلبية. وبعد ذلك نام. ونامت الممرضة على سرير فى نفس الغرفة. واستيقظت الممرضة فى الساعة الرابعة والنصف صباحًا على صوت جسمه وهو يتحرك فى السرير المجاور وقال لها بصوت ضعيف: أريد فنجانًا من الشاى!

وعادت الممرضة بعد نصف ساعة فوجدته نائمًا.. اقتربت منه ووضعت يدها على جبهته فوجدتها باردة.. وأمسكت يده فلم تسمع نبضًا.. وضعت أذنها على قلبه وصرخت: مات!

واندفعت إلى غرفة ابنه السيد لطفى السيد الذى يقيم معه فى نفس المنزل وأيقظته من النوم وأخبرته أن والده قد أسلم الروح.

وكان الدكتور سليمان عزمى باشا هو طبيبه الخاص، وفى آخر زيارة له قال له لطفى السيد وهو يهنئه بالعام الجديد (سنة ١٩٦٣):

– أنا أشعر أننى سأموت فى هذا العام!

قال سليمان عزمى: يا رجل! إن صحتك أحسن من صحتى!

وبعد أسابيع قليلة أصيب الدكتور سليمان عزمى باشا بالذبحة الصدرية وتوفى على الفور!

ومات لطفى السيد بعد ذلك بأسابيع!

وصدقت نبوءة الدكتور سليمان عندما قال للطفى السيد: «إن صحتك أحسن من صحتى..!».

العملاق الجبار يحب تلميذة صغيرة!

كان الكاتب الجبار عاشقًا رقيقًا. لا يتوقف قلبه عن الحب. أحب وأحب وأحب. كان يخرج من حب كبير ليدخل فى حب أكبر. وكان يداوى الحب بالحب. وتحدث شعره وتكلمت كتبه عن كل امرأة عشقها. وكان يضحك ويقول إن قيسًا لم يفضح ليلى وإنما شهرها، وأنطونى لم يشهر بكليوبترا وإنما خلدها. وقد أحب امرأة مشهورة واحدة هى الكاتبة مى زيادة، وكانت أشهر منه. أحبها وهو فى السفح وكانت هى فى قمة الجبل. كان كاتبًا شابًا وكان ينافسه فى حبها رجال مشهورون يجلسون فوق قمة الجبل. وما لبثت مى أن وضعت العقاد الشاب على قمة قلبها. جعلته سلطانًا على قلبها وجعلت الآخرين حاشية فى قلبها الذى كان يشبه قصر السلطان لكثرة ما يتردد عليه من وزراء وكبراء! وكان العقاد يسخر أحيانًا من مى ويقول لها: «إن قلبك مثل نادى محمد على لكثرة ما يتردد عليه من عظماء!!» وكان نادى محمد على «نادى التحرير الآن»، أكبر نادى فى القاهرة وكان يجمع الكبار والعظماء والوزراء! وكان العقاد يضيق بمنافسيه مع أنه وحده كان يأكل الفاكهة ويترك للعشاق الآخرين القشر والبذور. وكانت مى تحب العقاد الرجل وتعشق جبران خليل جبران الكاتب، مع أنها كانت تقابل كل يوم العقاد فى جريدة المحروسة التى يملكها

والدها، ولم تلتق بجبران طول حياتها مرة واحدة. وكان العقاد يغار من هذا الرجل الذى كان بينه وبين مى بحار وقارات بينما كانت مى بين ذراعيه. واستطاعت مى أن تثير غيرة العقاد العنيفة بحديثها المستمر عن الشاعر الشاب الذى يعيش فى أمريكا. وكانت هذه الغيرة العمياء لا تخمد الحب بل تزيده اشتعالاً. وكانت كبرياء العقاد تمنعه أن يتلوى من الألم، ولكن مى كانت تعرف أنه يتعذب، وكانت تجد متعة لا حد لها بهذا العذاب. وتبادل العقاد ومى خطابات الهوى والغرام. وكان العقاد يكتب لها أكثر مما تكتب له. كانت المرأة الوحيدة فى حياته فى تلك الأيام. وكان الشاب الأسمر العملاق يعاملها أحيانًا كملكة ويتغزّل فيها ويتغنى بهواها ثم فجأة يثور عليها، ويخلعها من عرش الحب الذى تستوى عليه، ثم يعود إليها أكثر عشقًا وأكثر غرامًا. وكان ينافسه أحياناً أستاذ ذلك الجيل أحمد لطفى السيد. وكان أحمد لطفى السيد فيلسوف عصره، وكان يكتب خطابات غرام لمى كلها فلسفة. وكانت مى تحب ذلك الحب العجيب الذى يفلسف القلب وفى الوقت نفسه تحب الشاعر الذى يحترق ويحرقها، ويحبها ويلعنها، ويتعبد بها ثم يكفر. ويقبل عليها ثم يدبر. وكانت مى تقول لصديقاتها إن العقاد سريع الرضا وسريع الغضب يقدم لها وردة فى الصباح ويلقى عليها طوبة فى المساء! وكانت تسمى حبه «الحب المتعب». ولم يكن العقاد يكره الكاتبة مى فى يوم من الأيام، فقد كانت كراهيته هى قمة العشق، وروى العقاد أنه عرض عليها يومًا الزواج فابتسمت وقالت: «إذا حدث هذا

فيجب أن يتم الزواج فى قسم بوليس. لأننا فى كل ساعة ستقوم بيننا خناقات ومشاجرات. ولابد من وجود جندى بوليس ليصلح بيننا»!.

ومن هذه الخلافات بين المحبين فقد كان العقاد يقول إن أسعد أيام حياته هى التى أمضاها مع الكاتبة مى، وأشقى أيامه هى التى قضاها مع السيدة التى أطلق عليها اسم سارة ولم يكن هذا اسمها، فقد كانت متزوجة، وكانت هى وزوجها على قيد الحياة عندما ألف العقاد قصتها المشهورة. وبدَّل وغيَّر فى شكلها وفى وضعها حتى لا يحرجها أمام زوجها، وإذا كان العقاد قد ذاق طعم السعادة مع مى إلا أنه ذاق مرارة الشقاء مع سارة. فقد كانت امرأة تهوى أن تلعب بقلوب الرجال. كانت تعشق لتخون. وكانت تخرج من بيت العقاد لتذهب إلى لقاء شاب آخر. ويقرر العقاد أن يضع نهاية لهذه المهزلة فيطردها من بيته، فإذا بها تعود إليه.ويكتشف أنالحب الذى مات بعث حيًا من جديد، أو يكتشف أنه وارى هذا الحب التراب وهو لايزال ينبض، ولم يطفئ التراب النار بل زادها اشتعالاً. وكان يطلق الحب بالثلاثة ثم يكتشف أنه لايزال يسرى فى دمه.

* * *

وذات يوم كان العقاد يقلِّب إحدى المجلات المسرحية فرأى صورة فتاة صغيرة سمراء تقول إنها تلميذة فى مدرسة الفنون فى شبرا وإن هوايتها التمثيل. وقرأ فى عينى السمراء سحرًا جذبه.

إنها مختلفة عن مى وعن سارة. كل منهما امرأة كاملة الأنوثة. وجد فى عيونهما كل معانى الإغراء والجاذبية ولكن فى عينى هذه التلميذة الصغيرة براءة فتنته أكثر من سحر هاروت وماروت. وطوى المجلة ثم عاد وفتحها من جديد. وانشغل بعدة أمور ولم يستطع أن ينسى هاتين العينين السوداوين الكبيرتين اللتين كانتا تناديانه من كل كتاب يقرأه. وعجب من نفسه أن يتحول فجأة من رجل إلى مراهق. لقد رأى فى الصحف والمجلات ملكات جمال العالم وممثلات السينما، ولكن لم يحدث له مرة واحدة أن عشق امرأة من صورتها! كان يعشق المرأة بعد أن يسمعها تتكلم. الذكاء يستهويه. وخفة الروح تخضعه وجمال الشخصية يأخذ بتلابيبه. آلاف النساء صورهن جميلة، وحقيقتهن بشعة. تهواها وهى صامتة وتنفر منها إذا تكلمت. كم رأى نساء رائعات الجمال فى صورهن الفوتوغرافية فإذا التقى بواحدة منهن شعر أنه يلتقى بثلاجة أو فريجيدير. وعرض صورة الفتاة على بعض أصدقائه ومريديه وإذا بواحد منهم يقول إن هذه التلميذة هى صديقة لأخته التلميذة فى مدرسة الفنون بشبرا. فطلب منه العقاد أن يدعو التلميذتين إلى اجتماع يوم الجمعة الذى يقيمه العقاد كل أسبوع، ويتردد عليه تلاميذه ومريدوه.

ودخلت التلميذة هنومة خليل مع صديقتها وشقيق الصديقة إلى الشقة التى يسكنها العقاد فى ضاحية مصر الجديدة. ولاحظت هنومة أن الجدران كلها مغطاة بالكتب. كتب فى المدخل وكتب فى الصالة وكتب فى الصالون. ورأت رجالاً كبارًا وشبانًا صغارًا

يملأون مقاعد الصالون عرفت بعد ذلك أن بعضهم طلبة فى الجامعة وبعضهم أدباء وبعضهم شعراء وبعضهم من كبار الموظفين. ورأت رجلاً فارع الطول يقف ليستقبلها. وما كاد الجالسون يرونه واقفًا حتى وقفوا إجلالاً واحترامًا. وكان يرتدى بذلة داكنة، ويلف حول رقبته كوفية. ودعا العقاد هنومة أن تجلس فى مقعد قريب منه. وجلست مذعورة. شعرت أنها تجلس فى حضرة شخصية عظيمة. الذين حوله يعاملونه باحترام وإجلال. ولأول مرة فى حياتها عرفت من هو العقاد. قبل ذلك لم تكن تعرف اسمه. ولم تقرأ له مقالاً. ولم ترَ له كتابًا. ومضى العقاد يكمل الحديث مع مريديه كأنها ليست موجودة. ثم التفت إليها وسألها فى صوت مهيب ماذا تقرأ؟ ما هى هواياتك؟ ماذا تريدين أن تكونى فى مستقبلك؟ وأحست هنومة بالسعادة لأن هذا العملاق الكبير مهتم بها. ويريد أن يعرف كل شىء عنها، وعندما سألها عن هواياتها، قالت: الرسم والتمثيل. وسألها لمن من الكتاب تقرأ؟.. وعجزت هنومة عن الرد فإنها لم تكن تعرف اسم كاتب واحد، لا باللغة الغربية ولا بأى لغة أخرى وتلعثمت قليلاً ثم قالت: أنا لم أصل بعد لأن أقرأ لكبار الكتاب. لأننى لا أدرك معنى الكلمات التى يستعملونها، وإنما أحب الأفلام الغرامية الرومانسية.

وقهقه العقاد. وانزعجت هنومة من طريقة ضحكته. ظنت أنه يسخر منها ويهزأ بها وشعر هو أنه جرحها، فأقبل عليها يقول باسمًا:

– طيب! ألم تقرئى شيئًا لعباس محمود العقاد؟
قالت : لا!
فضحك مرة أخرى وعاد يقول:
– ألم تقرئى لهيكل «حياة محمد»؟ ألم تقرئى لتوفيق الحكيم «عودة الروح»؟
قالت هنومة:
– لا أعرف أحدًا منهم. أقرأ القصص الغرامية البسيطة والكتب غير المعقدة.

وعاد العقاد يضحك لبراءتها وصراحتها. وفى أثناء ذلك تسلل التلاميذ والأصدقاء، وقد شعروا أن العقاد أقبل على محادثة هذه التلميذة الصغيرة، ونساهم أجمعين. وبقى فى الغرفة أربعة: العقاد وهنومة وصديقتها وشقيق الصديقة.

وقام العقاد من مقعده واتجه إلى دولاب فى الغرفة، وفتحه وأخرج كتابًا واستدار لهنومة وقال لها:

– اعتبرى نفسك تلميذتى. ابتداء من اليوم سيكون فى هذا البيت جامعة أنت تلميذتها الوحيدة.

وارتعشت هنومة. كيف تدخل الجامعة وهى لم تحصل على الشهادة الإعدادية والشهادة الثانوية؟

ومضى العقاد يسألها هل تقبل أن تدخل جامعته.

واستطاعت هنومة بعد جهد أن تفتح فمها، وتقول: لى الشرف.

وناولها العقاد كتاب «عبقرية محمد» وهو يقول:

– خذى هذا الكتاب واقرئيه جيدًا. كل كلمة أو جملة لا تفهمين معناها ضعى تحتها شرطة، وعندما أراك المرة القادمة فسوف أفسر لك ما لا تفهمين!..

وسألته هنومة ومتى تكون المرة القادمة؟ أجاب العقاد: غدًا!

شعرت هنومة بالسعادة أن تلقى هذا الاهتمام من أستاذ كبير، وفى الوقت نفسه شعرت بالرعب لأن الامتحان سيكون غدًا؟ متى تقرأ الكتاب؟ ومتى تستوعبه؟ ومتى تفهمه؟.. وأحس العقاد بحيرتها وخوفها فقال لها: يكفى أن تقرئى صفحة واحدة!

ولم تنم هنومة، بقيت طوال الليل ساهرة تقرأ الكتاب، تحاول أن تفهم فتعجز. تعود إلى قراءة الصفحة من جديد. كانت تشعر أنها مقدمة على امتحان خطير. شعرت برغبة عجيبة فى أن تنجح فى هذا الامتحان. لم تقرأ صفحة واحدة بل قرأت عدة صفحات وذهبت فى اليوم التالى إلى بيت العقاد. واستقبلها الأستاذ مرحبًا. ووجدته ممتحنًا عطوفًا إذا أخطأت صحح خطأها فى لطف، وإذا نست ذكّرها. وإذا تلعثمت شجعها. وبعد عدة لقاءات تحولت محاضرات الجامعة إلى قصة حب! كانت كلما انتهت من كتاب أعطاها كتابًا آخر، أعطاها عبقرية عمر وعبقرية على وكتابه عن سعد زغلول.

ويدأ يحكى لها عن سارة. لم يعطها القصة لتقرأها، وإنما جلس يروى لها القصة من أولها لآخرها، بأسلوب ساحر، بتفصيل

دقيق، جعلها تعيش فى قصة حبه الكبير حتى تمنت فى لحظة من اللحظات أن تكون سارة الجديدة. كان يناجى سارة وكأنه يناجيها. يصف المرأة القديمة وكأنه يصف التلميذة الجديدة. كان حديثه عن الحب فيه حرارة وصدق. وكان يروى القصة كما حدثت بغير أن يدخل إليها خيال الكاتب أو لغة الشاعر، وكانت قصة مثيرة جعلت هنومة تحب سارة وتكرهها، تريد أن تسمع من العقاد كل شىء عن سارة، وتريد فى الوقت نفسه أن لا يذكرها وينساها!

وفوجئت به يضع لها جدولاً مثل جدول الحصص فى المدارس. نصف ساعة لغة عربية. نصف ساعة لغة إنجليزية. نصف ساعة تاريخ الفنانين. يدير أسطوانة لبتهوفن ثم بعد أن تسمعها يروى لها قصة الفنان العظيم. وفى يوم آخر يدير أسطوانة لسيد درويش. ويحكى لها عن حياته ومغامراته وحبه وموسيقاه! كان يصحبها فى حياة كل فنان عظيم سواء كان شاعرًا أو موسيقيا أو رسامًا أو مثالاً!

وشعرت هنومة أن الأستاذ يريد أن يخلقها من جديد. لا يريد أن ينزل إلى مستواها ويحدثها بلغتها، بل يريد أن يرفعها إلى مستواه ليحدثها بلغته. كان اللقاء خليطًا من العلم والحب، ومزيجًا من الأدب والهوى.

وفوجئت هنومة بهذا المزج العجيب بين العاشق والأستاذ. وبدأت تشعر نحوه باحترام عجيب ولكنها لم تحبه. شعرت أنه

أكبر كثيراً من أن تحبه فتاة صغيرة مثلها. كانت تشعر أنها واقفة على الأرض وأنه جالس فوق قمة الأهرام. وعندما يمد ذراعه الطويلة ليرفعها إلى سمائه لا تصدق أذنها لما تسمعه من كلمات الغزل، ولا تصدق عينيها وهى ترى العملاق يتحول إلى عاشق وله‍ان.

وكان من الممكن أن تحبه لو كانت أكبر سنًا مما هى، ولولا أنه حاصرها، وأصبح يراقب حركاتها ويتتبع خطواتها! كانت تذهل من أنه يعرف كل شىء عنها. متى خرجت؟. متى دخلت؟. أين ذهبت؟. وخيّل لها فى وقت من الأوقات أن كل تلاميذ العقاد أصبحوا مباحث ومخابرات تقدم تقارير يومية عن تصرفاتها. بل خيّل إليها أحيانًا أن كل قراء العقاد يعملون عيونًا عليها.

ذات يوم طلب والدها منها أن تلقاه فى ساعة معينة فى محل الحلوانى أسدية بشارع فؤاد – أى ٢٦ يوليو الآن – وذهبت هنومة إلى الموعد ففوجئت بالعقاد جالسًا مع أبيها. تراجعت إلى الوراء فزعة. كيف استطاع العقاد أن يعثر على أبيها، وأن يتعرف به، وأن ينشئ صداقة معه. وفهمت أن العقاد يريد أن يعرف كل شىء عنها حتى ما يجرى فى داخل بيتها وازداد فزعها وخوفها من هذا الحب الذى يضيّق عليها الخناق!

ولم تفكر أن تخونه وإنما فكرت أن تهرب منه. شعرت أنها تهرب من جنة لها أسوار عالية تحولها إلى جحيم.. كل خطواتها محسوبة.. كل كلماتها مراقبة. كل حركاتها موضع سؤال أو استجواب أو تحقيق دقيق.

وكان يناجيها بالشعر، وكانت هنومة تفهم شعره حينًا ولا تفهمه أحيانًا، وكانت تعرف من كل قصيدة إذا كان يهجوها أم يتغزل فيها. وكان إذا غضب عليها كره كل النساء، وإذا رضى عنها مدح كل النساء!

واعتاد فى مطلع كل حب أن يكتب فى بدايته تقويمًا له، فعن العام الأول كتب يقول لها:

«تقويم هذا العام من لحظاته الأولى لديك..
قومى ارفعيه إرفعى وارفعى عنه الغطاء براحتيك
من يوم مطلعه إلى رجعاه.. موقوف عليك».

وفى العام الثانى للحب كتب قصيدة «عام ثانٍ» وفى العام الثالث كتب قصيدة «عام ثالث» وفى العام الرابع نظم قصيدة «عام رابع» جاء فيها:

«عدنا.. وعاد بنا الهوى فى ملتقانا كل عام!
دارت علينا كواكبه.. وطاب لنا المقام!
حب يدوم وعالم أبدًا يدور على الدوام!

* * *

من كان يحسب والهوى يخطو لأول عامه
أنا سنتبع رابعًا منه ليوم تمامه
آمنت بالعهد الذى يطوى المدى بدوامه»!

ووصف العقاد أعوامه الأربعة مع التلميذة الصغيرة:

«راضين نمضى فى الحياة وتارة تغضبينا

وعلى كلا الحالين نمضى بالعواقب واثقينا
متشوقين إلى اللقاء، وإن كتمنا الشوق فينا
كم من شموع عاودتنا طالعات راجعات
ألف، وفوق الألف ما شاء الحساب من المئات
مهما اختلفن فحبنا نور يضىء مدى الحياة».

ومع كل هذا الحب كان لا يثق فيها، ولا يطمئن لها ويسألها فى القصيدة «أوفيت لى؟ ويجيب عنها كلا!»

وأحياناً يلوم نفسه لأن الخريف عشق الربيع! رجل كبير يحب امرأة صغيرة.. وأحياناً يصف هذا الحب بأنه حب أحمق. ويقول إن افتتانه بهذه الصغيرة هو العجب العجَاب!!

وكان يريد منها أن تلازم بيتها، ولا تخرج منه إلا لتذهب إليه. لا تزور أحدًا ولا يزورها أحد. وذاتَ يوم طلب منها أن تصنع له بلوفر، ووقفت هنومة فوق كرسى لتأخذ مقاس العقاد. وصحبها إلى محل فى شارع سليمان باشا أمام سينما مترو، واشترى معها الإبر والصوف. وفهمت هنومة من هذا أنه يريد أن يبقيها فى البيت حتى تنتهى من صنع البلوفر، فقد كان طويل القامة عملاقًا، وكان عريض المنكبين، وفهمت هنومة من هذا التكليف أنه يحتاج إلى عدة شهور تبقاها فى البيت لا تخرج ، وعادت إلى محل الصوف فى شارع سليمان وأعطته مقاس العقاد وأعادت له الصوف وطلبت من المحل أن يصنع البلوفر!

وتم صنع البلوفر.. وقدمته له. وكان العقاد يزيد أن تفكر فيه

هنومة فى كل «شكة إبرة» ولم يفت هذا الاحتيال على ذكاء العقاد، واكتشف أن هنومة لم تصنع له البلوفر كما كان يتمنى، بل أعطته لمصنع بلوفرات! وانهال عليها بالأسئلة والاستجوابات. كان محققًا بارعًا ومخبرًا صحفياً لماحًا، ومازال بها حتى اعترفت بما فعلته. ويومها نظم قصيدة يقول لها فيها: «خونى.. فأنت أحلى من الوفاء»!

وكان يحس أنها القيثارة التى يعزف عليها ألحانه، وفجأة يشعر أنها ليست قيثارته وحده، وأن آخرين عزفوا عليها كما عزف، فيحطم القيثارة ويقول: «حطمتها.. حطمتها!.. ولا أقول آسفاً، ولا أقول راضيًا، ولكننى إن لم أحطمها حطمتنى»!

واستراح أنه حطمها، وأن التراب يغطى بقاياها، وأن السوس بدأ ينخر فيها، وأن الليل يخيم عليها. انتهى كل شىء. نساها إلى الأبد! لم تعد الشمس تشرق عليها. لا يلوح لها خيال. ثم فجأة يجد القيثارة المحطمة تعود إليها الحياة. تجمع حطامها، ويعجب الشاعر أن القيثارة الفانية عادت إلى الحياة. عادت تغنى من جديد فيصيح قائلاً: «قيثارتى! قيثارتى! غنى وغنى واسعدى»!

هذا الحب العجيب الذى ملك قلب العملاق كان يدهش أصدقاءه، كانوا لا يفهمون كيف ينسجم الكاتب الجبار مع هذه التلميذة الصغيرة؟ كيف يتفاهم فى العالم العلامة مع فتاة لم تحصل إلا على شهادة الابتدائية؟ وكان العقاد يضحك ويقول: وأنا أيضًا لم أحصل إلا على شهادة الابتدائية.. انتظروا عشر سنوات وسوف تجدونها طه حسين!

وكان من المستحيل أن تصبح هنومة طه حسين. كانت معجبة بالعقاد الرجل ولكنها كانت ترتعد خوفاً من العالم العلامة. كانت ترى المسافة بينهما مسافة بعيدة لا تستطيع أن تقطعها.

كان يحدثها عن بيرون وشيلى وشعراء البحيرة وشكسبير، وكانت تريد أن يحدثها عن عبد الوهاب وفريد الأطرش وشكوكو! كان يستمتع وهو يروى كلمات الروائيين العالميين أمثال والتر سكوت وشارلس ديكنز وتاكرى وكنجزلى. وكانت هى تستمتع بسماع مسرحيات يوسف وهبى ونجيب الريحانى وعلى الكسار فى الإذاعة.

وكان يطلب منها أن تحفظ دواوين الجاحظ والجرجانى والأصفهانى وتقرأ الأغانى! وكانت هنومة تحفظ أغنية «بلاش تبوسنى فى عينيه» لعبد الوهاب. و «ياريتنى طير أطير حواليك» لأسمهان!

وتقول هنومة خليل إنها لو كانت أكبر سناً مما كانت فى تلك الأيام لاستطاعت أن تعبد الرجل الذى أحبها كل هذا الحب. فهى لم تستطع أن تحيط بكل هذه العظمة وهى تحيطه بذراعيها. كل ما عرفته أنه رجل عظيم من محيط ليس محيطها. فلم يكن العقاد فى تلك الأيام كاتبًا شعبيا، وإنما كان كاتب الخاصة، وكان عدد قليل من القراء المثقفين يقدرون قيمته الحقيقية، فقد اعتزل السياسة منذ عام ١٩٣٥ وانصرف إلى وضع كتابه عن سعد زغلول وإلى كتابة «العبقريات».

وكان العقاد معجبًا بقصة بيجماليون لبرنارد شو الذى استطاع أن يحول فتاة جاهلة إلى سيدة مجتمع. وكان العقاد مؤمنًا أنه قادر أن يجعل من هنومة بيجماليون جديدة، وقد نجح إلى حد كبير فى أن يحول هنومة غير المتعلمة إلى سيدة مثقفة تقرأ وتطلع وتناقش. ولم تشعر هنومة بهذا التحول الضخم الذى حدث فيها، كانت مهتمة بأزيائها الجديدة وزينتها وشعرها وقوامها ومظهرها الخارجى. وكانت عملية تجميلها من الداخل ترهقها وتتعبها. فلا تكاد تترنح من كلمات الحب حتى يفيقها العقاد بقصيدة لشكسبير. وكانت محاولة غريبة أن يخلق الكاتب الكبير من حاملة الابتدائية التى تتتبع باهتمام أفلام أنور وجدى وليلى مراد، وتقف أمام المرآة تقلد كواكب السينما ونجومها، أن يخلق منها أديبة مهتمة بأمهات الأدب العربى الكبرى كالأمالى والكامل والبيان والتبيين والعقد الفريد ونهج البلاغة. ولكن العقاد عندما كان يحب لا يؤمن بالمستحيل. كان واثقا أنه قادر أن يحول الصحراء إلى جنة خضراء، وكانت هنومة مبهورة بالرجل الكبير. وكانت تشعر أنها غريبة فى عالمه العجيب. تمامًا كما تجىء بطفل من غابات إفريقيا، وتضعه فى مجمع الخالدين فى باريس. هنومة تعتقد بأنها تحتاج إلى سنوات وسنوات حتى تدخل جامعة العقاد وتتخرج فيها. والعقاد يعتقد أنها لو أعطت كل وقتها وجهدها واهتمامها للأدب فسوف تستطيع أن تجمع بين فتنة الجمال وفتنة العلم!

وكانت هنومة تؤمن أنها لا يمكن أن تكون المرأة التى تخيلها

العقاد. هى تريد أن تكون نجمة سينما، ولم تسمع أن فاطمة رشدى أو عزيزة أمير أو راقية إبراهيم قرأت تلك الكتب العويصة التى كان أستاذها يريد منها أن تقرأها وتفهمها، ووجدت هنومة أن الحل هو أن تهرب من جهنم الأدب إلى جنة الفن... إنها تريد أن تستمتع بالحرية. تمشى فى الشارع ولا تشعر أن أحدًا يراقبها. تخرج من بيتها بغير أن تنظر يمينها ويسارها خشية أن يكون أحد عيون العقاد ينتظرها ليكتب تقريرًا عن ساعة خروجها. كان العقاد يريد أن يعرف متى خرجت من البيت ومتى عادت. إذا أحضر لها سيارة تاكسى تقلها إلى بيتها طلب من سائق التاكسى أن يعود إليه ليعرف منه إذا كانت توقفت فى الطريق أو إذا كانت تركت التاكسى قبل بيتها.

وكان يثور بطريقة مخيفة إذا كذبت عليه. وذات مرة رأت أن تذهب إلى جروبى، مع بعض صديقاتها وفوجئت به أمامها. وكان عقلها صغيرًا فلم تفهم من كل هذا أنه دليل على هواه الجامح، بل فهمته على أنه غيرته العمياء. ولم تفهم أنه يحاصرها ليحتفظ بها. وإنما فهمت أنه يضيق عليها الخناق ليخنقها.

وكان يحكى لها أدق تفاصيل حياته وخصوصياته، وإيراداته، وكم يأخذ من كل كتاب يؤلفه. وكان يريد أن تكون مثل كل امرأة أحبها،، وليست كواحدة منهن!

قال لها إنه أحب فى مى زيادة ذكاءها وأنها كانت سيدة مجتمع.. «ولا أحب فى سارة أنها امرأة خائنة، فأنا أريدك سيدة

مجتمع مثل مى، ولا أريدك خائنة مثل سارة، وإنما أريدك امرأة مثلها» !

وذات مرة كان يتحدث عن مى بحماس، فاختلج صوته، وارتعشت أطرافه، وبدأت الدموع تترقرق فى عينيه. أما سارة فكان لا يذكر اسمها إلا ويصفها بالخيانة وينزعج من ذكرياته معها، وكان يقول دائمًا سارة هى عكس مى.. الفرق بينهما هو الفرق بين الملاك والشيطان. وكانت هنومة تسأله من تكون بين هاتين فكان يقول أنت الاثنان معاً. عندما تكونى بعيدة عنى أتصورك شيطانًا، وعندما تكونى بين ذراعىَ أراك ملاكًا !

وكان شكه فى سارة يجعله يشك فى كل امرأة أخرى. وقد عذبته كثيرًا بخيانتها واستهتارها وغدرها، وكان هذا هو الإطار الدائم الذى يضع فيه صورة كل امرأة عرفها بعد ذلك. وبعد أن توطدت العلاقة بين العقاد وهنومة كان لا يسمح لأحد أن يراها. يشك فى كل إنسان. فى كل ابتسامة، فى كل ضحكة. فى كل رجل. حتى إذا كان الرجل أصدق أصدقائه وأخلص خلصائه. إذا تأخرت عن موعد معه اعتقد أنها كانت فى موعد غرام. وإذا جاءت فى الموعد اعتقد أنها فعلت ذلك لتخونه وهى فى طريقها إلى بيتها. ويقول لها: إن الوفاء ليس طابع المرأة. وإن الخيانة هى القاعدة والأخلاق هو الاستثناء. ولم يكن يتهمها لأنه تأكد أن لها علاقة برجل آخر، بل كان يتهمها لأنه لم يعد يثق فى امرأة بعد أن خانته سارة ! ولقد عرف العقاد كل رجل خانته سارة معه، أو ابتسمت له، أو صافحته أو حدثته فى التليفون. وكانت سارة

تعجب من كشفه لكل أسرارها وخباياها. وكأنه كان يختفى فى داخلها. وكانت تقول لصديقاتها إنه هو الذى شجعها على خيانته بإصراره على اتهامها دائمًا بالخيانة وعلى دفعها للغش والخداع.

واستطاعت أن تغافل العقاد، فقد قرأت هنومة أن أفلام عبد الوهاب تبحث عن وجوه جديدة، وأفهمت العقاد أنها ذاهبة لتزور خالتها، وذهبت إلى مكتب عبد الوهاب وقبلوها فى الفيلم الجديد.

واتصلت بالتليفون بالعقاد وقالت له:

- سوف أشتغل بالسينما!

قال لها: أنت مجنونة.. تعالى عندى.

وقالت له: لن أعود أبدًا!..

وانفجر العقاد فيها وقال لها بصوت كالرعد: لابد أن تجيئى حالًا!

ولأول مرة فى حياتها معه لم تشعر بالخوف، ولم تطع أمره، ولم تذهب صاغرة إلى داره. كان معها عقد اشتغالها فى السينما فأحست أن معها «خاتم السلطان» من قصة ألف ليلة وليلة. تدعكه فتفتح لها الكنوز!

ومثلت دورًا أمام محمد أمين.

وأحبها وعرض عليها الزواج، وقبلت على الفور بغير تردد، فقد كان كل ما تتمناه أن تتخلص من دور الصعلوكة التى عشقها السلطان! كانت تريد أن تكون فنانة فى مهنة تحبها. على أن

تكون أميرة فى قصر لا تطيقه. أصبحت الحرية هى حلمها. كأنها كانت تريد أن تعيش فى كوخ مع رجل تستبد به، لا أن تكون أميرة فى سراى محاطة بأسوار وحراس!

وأسرعت إلى التليفون وتحدثت مع العقاد وقالت له:

– قل لى مبروك! لقد عقدت أمس قرانى على المطرب محمد أمين.

وأقفل العقاد السماعة فى وجهها!

وأسرع العقاد واستدعى الرسام المعروف صلاح طاهر، وطلب إليه أن يرسم صورة لهنومة والذباب يغطى وجهها.. إشارة إلى الوسط الفنى الذى انغمست فيه.

وغيرت هنومة اسمها باسم جديد، وبقى العقاد يحبها من بعيد، يتتبع أخبارها، ويبحث عن صورها فى المجلات. فإذا وجد صورتها مزقها وداسها بقدمه، وإذا لم يجد صورتها عاد يقلب المجلة من جديد! ثم تطلع إلى صورتها المعلقة والذباب يغطى وجهها ويبتسم فى شماتة!

وكان يؤكد لأصحابه أنه نساها ولم يعد يحبها ولم يعد يفكر فيها ولا يكاد يذكر أن فى حياته كانت امرأة اسمها هنومة، ثم يعود إلى الحديث عنها.

ولم يستمر الزواج بين هنومة والموسيقار محمد أمين طويلاً، وانفصلا. وعلم العقاد بالنبأ السعيد وتوقع أن تعود هنومة راكعة صاغرة، ولكن هنومة لم تعد. نست أيامها الحلوة معه ولم تذكر إلا

الليالى الشقية التى كان يضعها فى قفص الاتهام! نست أنه عندما سافر إلى السودان عندما كان الألمان على أبواب العلمين أعطاها كل أوراقه الخاصة، - ى خطابات مى الغرامية، وطلب منها أن تحتفظ بها، وأوصاها إذا قتله الألمان أن تسلم هذه الأوراق إلى أشخاص معينين حددهم. نست أنه كان يصر أن تحدثه فى التليفون مرتين كل يوم. وفى كل مرة يطلب منها أن تعطيه النمرة التى تتحدث منها، ليطلبها هو، حتى يتأكد أنها تتكلم من نفس المكان الذى ادعت أنها تطلبه منه. لم ترَ فى هذا دليلاً على العشق والهوى والهيام بل اعتبرته دليلاً على عدم الثقة. وعلى الشك! إن أم كلثوم تقول إن الشك يحيى الغرام. ولكن هنومة كانت تعتقد أن الشك يقتل الغرام!

وأحبت بعد ذلك النجم أحمد سالم. وجن جنون العقاد. فقد كان أحمد سالم شابًا جميلاً جذابًا، وكان يعتبر فى أيامه دون جوان مدينة القاهرة الذى تترامى على قدميه الجميلات والغانيات والممثلات!

وكان حبا ملتهبًا تتحدث عنه الصحف والمجلات. وكانت الصحف والمجلات تتحدث عن الحب العظيم بين الممثلة السمراء والنجم السينمائى الساحر!

ومات أحمد سالم فجأة!

وبقيت هنومة على وفائها لأحمد سالم. ورفضت أن تعود إلى العقاد.

وتزوجت بعد ذلك من الموسيقار محمد فوزى ثم تطلقت منه واستمرت تقاوم الحب العظيم، وتطلقت من محمد فوزى وأصرت أن لا تعود أبدًا إلى الجنة التى خرجت منها!

وكانت تتصل بالعقاد فى المناسبات. تسأل عنه إذا مرض. وتهنئه فى العيد. وترحب به إذا عاد من السفر، ولكنها كانت تصر على أن تكون صداقة فى حدود الصداقة. وكان العقاد يرحب بهذه المحادثات التليفونية التى تعيد إليه أيام النجوى والعشق والغرام والهيام... ثم تغلق التليفون ويعود وينظر إلى صورة الذباب يغطى وجه حبيبته من جديد!



هذه قصة غرام الكاتب العظيم والتلميذة الصغيرة. قصة عباس محمود العقاد والنجمة السينمائية المشهورة مديحة يسرى!

عَدُوّ المرأة كانَ يَعبُدهَا!
كيفَ دَخَلَت المرأة إلى جَيب تَوفيق الحَكيم

لم يكن توفيق الحكيم عدو المرأة أبداً. كان يحبها ويكرهها، يعشقها ويهرب منها، يجرى وراءها ويجرى منها. يقدم لها باقة الورد ثم يأسف على الفرنكات التى دفعها! فهو لم يجد امرأة فى شبابه تساوى الفرنكات التى دفعها ثمن فنجان شاى معها، أو ثمن غداء بجوارها. ولعل السبب فى ذلك أنه كان يحب دائماً من طرف واحد، وفى شبابه أحب فتيات كثيرات ولم يجد المرأة التى تأخذ وتعطى، كان يخلص وهى تخون، كان يسهر وهى تنام، وكان يبكى وهى تضحك. وأنت تجد كثيراً من اللآتى أحبهن توفيق بطلات فى قصصه ومسرحياته. فهذه القصص هى تاريخ حياته ونبضات قلبه وقصص حبه. كان يضع على شفاه بطلاته الكلمات التى كان يتمنى أن يسمعها من المرأة التى أحبها. وكان فى شبابه يبحث عن الجمال. فإذا اقترب منه وجده جمالاً أخرس لا يتكلم، وقد كان يبحث عن العقل داخل كل امرأة! وكثيراً ما وجد هذا العقل فارغاً. ولم يكنٍ يبحث عن ملكة جمال وإنما كان يبحث عن فيلسوفة أو عن مفكرة أو عن امرأة تحاوره، وكان ذكاء المرأة يستهويه أكثر مما يجذبه سحرها. فقد كان يجد السحر فى

الشخصية أكثر مما يجده فى تقاطيع الفتاة الجميلة الممشوقة التى اختارها!

وأنت ترى «حريم» توفيق الحكيم مختفية فى كتبه. وكان يحرص دائماً أن يضع على وجه كل امرأة أحبها حجاباً، وهو الذى دعا فى شبابه إلى السفور، وكان أحياناً يحب الممثلات اللواتى يقمن بتمثيل رواياته. يجلس فى مقعد المتفرج فيرى الممثلة وقد سلطت عليها الأضواء، وخلفها المناظر المسرحية فيتصور أن هذه المرأة بالذات تستحق أن يحبها، فهى تردد كلماته، وتنطق بأفكاره وتتحدث بلغته، فإذا اقترب من هذه الممثلة التى تقوم بالدور الأول فى الحياة وجدها لا تصلح لأن تقوم بدور ثانوى فى حياته. أدهشه أن الممثلة فى الحباه امراة أخرى، جاهلة تافهة. كلماتها فيها سذاجة، وعباراتها كلها سطحية، وهكذا يدفن توفيق معبودته فى اللحظة التى يقترب منها! وعندما سافر إلى باريس ليتعلم استهوته بنات باريس بجمالهن الفّتان وسحرهن الفتاك، ورشاقتهن، وراعته ما فى المرأة الباريسية من حيوية وقوة شخصية وجرأة. ووقع أسيراً لهوى بعض الفرنسيات، ثم اكتشف أن المرأة الفرنسية التى اختارها تفضل الرجل الذى ينفق عليها على الرجل الذى يحبها، وأنها تهتم بجيبه أكثر مما تهتم بقلبه، وأنها تعتبر أن مهمة الرجل أن يدفع ثمن غدائها وثمن عشائها، وأن يدعوها على حسابه إلى المسرح، فهى تحب الغداء والعشاء والمسرح أكثر مما تحب الرجل الذى دفع هذا الحساب!

وقد عاد توفيق الحكيم من باريس دون أن يتزوج من فرنسية

كما فعل كثير من العرب الذين كانوا يدرسون فى فرنسا!

ولقد وصف توفيق هذا الحب الذى عاش فيه طوال شبابه بأنه أشبه بمرض «الزكام». وكان يصاب بالزكام كثيراً، رغم أنه كان يرتدى معطفاً باستمرار، ويحيط عنقه بكوفية، إلّا أنه كان دائماً يتعرض لتيارات هوى النساء فيصاب بالزكام، ويعتزل فى بيته بضعة أيام حتى يشفى من الزكام اللعين. وكان زكام الحب يشبه زكام المرض، فيفقد الطعام طعمه، ويفقد الشراب لذته، ويشعر بفقد الشهية، ثم ينتهى الزكام فيخرج إلى شارع الهوى ويصاب بالزكام من جديد!

وأصبحت والدته تلح عليه أن يتزوج، وهو يفلت من إلحاحها. يحاول أن يؤجل فكرة الزواج مدعياً أنه بلا وظيفة ولا يجوز أن يتقدم ليطلب يد فتاة وأسرته هى التى تنفق عليه! ويعين توفيق وكيلًا للنيابة فيدعى أنه عينّ فى الأرياف ولن تقبل العروس أن تعيش معه فى عناء الريف. وتزداد الأم إلحاحاً وتحدثه عن عروس قصيرة القامة. فيطلب عروساً طويلة القامة. وتجئ له بعروس هيفاء القامة فيعترض أنها أطول منه وسوف يضطر أن يشب على قدميه ليقبلها! وتحضر أمه عروساً ابنة باشا فيرد أنه لا يريد مصاهرة الباشوات! وتكتشف والدته فتاة جميلة ابنة أحد زعماء الأحزاب السياسة فيرفضها توفيق لأنه لا يريد التدخل فى السياسة وزواجه من ابنة سياسى سوف يغمسه فى السياسة التى لا يحبها! وأخيراً تعثر الأم على ابنة مليونير من أهل الريف.

وتجئ بصورتها فيجدها توفيق فتاة طويلة جميلة ذات عينين ساحرتين. وتحت الضغط والإلحاح المستمر فى الصباح والمساء يرضخ توفيق لأمه ويقبل أن يخطب الفتاة وتتم الخطبة ويتحدد موعد لعقد القران، وتفرش أسرة العروس الرمل أمام سرايها، وتزينها بالورود والرياحين، وتضع الثريات الملونة فى حديقتها، ويجيء المدعوون والمدعوات ويحضر المأذون!

وينظرون العريس فلا يحضر. يبحثون عنه فى البيت فلا يجدونه. يبحثون عنه فى بيوت أصدقائه فلا يعثرون له على أثر! يطوفون على الأندية والمقاهى التى يتردد عليها... لا فائدة! اختفى العريس وانصرف المدعوون والمدعوات، وأطفئت الأنوار وذبلت الزهور والرياحين!

اختفى توفيق الحكيم من المدينة كلها، واستمر مختفياً إلى أن فسخت الخطبة، وثار الأب والأم على توفيق الذى عرّضهما لهذا الحرج. ويعترف توفيق أنه ارتدى ملابس العريس ووضع فى عروة الجاكتة زهرة الجاكتة، فقد اختار بذلة اشتراها خصيصاً لهذه المناسبة واشترى حذاءً جديداً ورباط رقبة جديداً. ثم نظر إلى المرآة فلم يصدق أنه أصبح عريساً، وشعر برجفة فى جميع أطرافه، وتصور أنه سيدخل بقدميه إلى سجن رهيب. سيفقد حريته. وعندئذٍ قرر أن يهرب من السجن قبل أن يدخل إليه!

وقد كفت الأم والأب عن البحث عن عروسة لتوفيق الحكيم. وقرر توفيق أن يعيش وحده فى بنسيون، ورفض أن

يعيش فى بيت الأسرة مع أمه وأبيه وأخيه، لأنه لا يريد أن يحدثه أحد فى موضوع الزواج!

عاش كالراهب. لا يزوره أحد. لا يستقبل أحداً، وكان يشعر أن حريمه هنَّ كتبه فكان يسهر الليالى مع كتاب يقرأه، أو كتاب يكتبه.

وكان يعمل معنا فى أخبار اليوم. يجيء فى الضباح ويشرب قهوته، ويبقى معنا إلى الظهر، ثم يذهب إلى البنسيون.

وذات يوم أقام أحمد الصاوى محمد الذى كان وقتئذٍ محرراً فى «أخبار اليوم» مأدبة غداء فاخرة فى شقته بالزمالك. وأرى هنا أن أفتح قوساً، وأنقل صفحة من مذكراتى بتاريخ أكتوبر سنة ١٩٤٥ أى منذ أكثر من أربعين سنة:

«الأستاذ أحمد الصاوى محمد يعيش فى شقة أنيقة فاخرة على ضفاف النيل، حيث يقيم المآدب والحفلات والسهرات، ينفق بلا حساب، يحب البذخ والترف، يهوى أن يشترى لنفسه أجمل بذلة، وأن يأكل أغلى مانجو، وأن ينام فى أفخر فراش. لا يهمه كم ينفق، وإنما يهمه كيف يتمتع وكيف يعيش... لا يحسب حساب يومه، ولا حساب غده. إنه يؤمن بالمثل الذى يقول: «إصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب»! وقد صرف فعلاً ما فى الجيب. وجاءه فعلاً ما فى الغيب! واشترى السيارات والعزب والأثاث الفاخر... وأخيراً أراد أن يعيش كما يعيش الملوك والأمراء!

والأستاذ توفيق الحكيم كان يعيش فى شقة متواضعة، ثم

استكثرها على نفسه، فأجرها من باطنه ليكسب عشرة جنيهات كل شهر وعاش فى بنسيون! وتوفيق لا يفهم المآدب، وإنما يحرص على حضورها. ولا ينفق شيئاً، وإنما يتلذذ بأن يقترض شيئاً. أسعد أوقاته يوم تدفع له تمن فنجان القهوة الذى شربه، وأتعس أيامه يوم يدفع ثمن القهوة التى شربها. وهو يحبك ويأنس لك ويثق بك إذا جلست بجانبه فى النادى ولم تطلب شيئاً على حسابه، وهو يكرهك وينفر منك ويبتعد عنك إذا تركته يوماً جالساً ونسيت أن تدفع الحساب! وهو يحب الاقتصاد والتقتير ويشترى البذلة ويبقيها عنده عشرات السنين، وكثيراً ما يضيق هو على البذلة أو تضيق البذلة عليه، ولكنه يؤثر أن لا يوسعها أو يضيقها عند الترزى، لأن ذلك سيكلفه مالاً، وإنما يجتهد أن يزيد وزنه أو ينقصه حتى يناسب البذلة نفسها!... وهو لا يهمه ما يأكل، وإنما يستطيب أن يشترى أرخص ثمار المانجو، ويستطيبها أكثر إذا أكلها بالمجان. وهو لا يفضل صنفاً معيناً أو طبقاً خاصاً، وإنما يلذ له أن يأكل الطعمية فيدفع غيره الحساب، ولا يلذ له مطلقاً أفخر الديوك إذا كان هو الذى سيدفع الحساب!

هذه مقدمة لا بد منها لتعرف الرجلين أو العقليتين. كل واحد منهما يزعم أنه سعيد والآخر شقى. ولقد دعا الصاوى شلة «أخبار اليوم» من كتّاب ومحررين ليروا المجد الباذخ مركزاً فى شقته، ويذوقوا الكرم الحاتمى ممثلاً فى طعامه... فأكلوا وتمتعوا وبهروا. ثم عقدوا جلسة فوق العادة فى دار «أخبار اليوم»، وبدأوا يحاولون

إقناع توفيق الحكيم أن يخرج من الجنة.

توفيق الحكيم: اتركونى! إنى سعيد كما أنا فى بنسيونى!

الشلة: ولكنك فى جنتك هذه محروم من الحياة! ما فائدة رجل مثلك يكسب فى العام ٢٠٠٠ جنيه، وعندك ٢٥٠ فداناً من أجود الأطيان!

توفيق (فى حسرة): ليتها كانت ٢٥٠ فداناً، ولو كانت كذلك لكنت حاتم الطائى أو شيطانه ولكنها ٢٠٠ فدان فقط لا غير!

الشلة: ما رأيك فى أن تقوم بمخاطرة، كما يفعل الفدائيون الكوماندوس، وتقيم عند الصاوى، فى شقته، وتدفع له مبلغًا كل شهر، فتنام لأول مرة فى حياتك فوق فراش وثير، وتأكل طعاماً شهياً متقناً، وتضغط على الجرس مرة فيأتى السفرجى، وتضغط على الجرس مرتين فيأتى الطباخ!

توفيق الحكيم (تغريه الفكرة): وأضغط على الجرس ثلاث مرات فيأتى الصاوى! إننى على كل حال مستعد أن أدفع للصاوى ٢٠ جنيهاً كل شهر فى مقابل أن أقيم عنده، وآكل وأشرب وأنام... وأضغط الجرس!

الصاوى محتجاً: يا هلفوت! إن ٢٠ جنيهاً لا تكفى لشم الهواء عندى. إن الهواء وحده فى هذه الشقة يساوى عشرين جنيهاً!

توفيق الحكيم: ولكن أريد أن أسكن عندك بدون هواء! لا أريد هذا الهواء الذى سيكلفنى ٢٠ جنيهاً فوق مصاريف

الأكل والشرب... لا أريد الهواء، وسأقفل النوافذ! ولن أقف فى البلكونات، وما حاجتى للهواء ونحن على أبواب الشتاء؟ وإذا احتجت فى الصيف إلى هواء فسأسافر إلى الاسكندرية وأستنشق ما أريد من هواء ثم أعود إلى مصر.

«الشلة»: ولكن يجب أن تخرج أولاً من جنة البخل التى تعيش فيها! نريد أن نعلمك أن تكون فدائياً وكوماندوساً فى عالم الكرم!... نريد أن نعلمك البذخ والصرف والاستمتاع بالحياة!

توفيق الحكيم: إننى أعيش فى جنة فعلاً. إن سمعة البخيل تفيده ولا تضره. كل واحد منكم إذا جلس فى قهوه أقبل عليه الشحاذون كالنمل ينغصون حياته إلاّ أنا... فإنهم لا يجرأون على أن يقتربوا منى، أنهم يعرفوننى ويعرفون أننى لن أدفع مليمًا، ولهذا يئسوا من معونتى. أليست هذه سعادة؟! ثم أن الجمعيات الخيرية التى تضيقون بكثرة ما تبيع لكم من تذاكر إنها جميعاً تتجاهلنى، لأنها تعرف أننى بخيل، والبخيل لا يدفع. ولم يحدث فى حياتى أن تلقيت خطاب استعطاف... إلا مرة واحدة جاءنى خطاب يطلب صاحبه إعانة قدرها عشرون جنيهاً، وسررت كثيراً بهذا المغفل المتفائل الذى أحسن الظن بكرمى، ورحت أقرأ الخطاب، مرة ومرتين وثلاث مرات، مسروراً بأننى سأخيب ظنه. ثم تطلعت إلى العنوان فإذا بالخطاب مرسل إلى رجل يقيم فى الطابق العلوى، وقد أعطاه لى عامل البريد خطأً!

الشلة: ولكنا نريد أن نخلقك من جديد، ونجعلك رجلًا كريماً،

والحل الوحيد أن تقيم لأول مرة فى حياتك مأدبة، وتدعونا إليها.

توفيق الحكيم: إننى لست من أنصار الثورة والطفرة، ولكنى من أنصار التطور والتدرج فلأتمرَّن على الكرم قليلاً قليلا... فمثلا أبدأ بدعوة واحد منكم لشرب فنجان من القهوة، ثم أدعو اثنين. ثم أتحول من القهوة إلى الغداء. وبعد ذلك أقيم هذه المأدبة، لأنكم تعلمون أن الخروج من الظلام الدامس إلى النور الساطع يعمى العيون! ثم إننى سعيد فى بخلى هذا كما تسمونه، وفى جنتى هذه كما أسميها!

الشلة: نحن نصرّ على أن نخرجك من جنتك هذه.

توفيق: خروجى من جنتى يشبه خروج آدم من الجنة... فيما أنتم إلّا أبناء حواء! ولقد أغرت حواء آدم بالخروج من الجنة ليأكل التفاح، بماذا تغروننى أنا؟

الشلة: بأقة تفاح!

توفيق: ولكن أنا الذى سأدفع ثمن أقة التفاح، وهو لا يقل عن عشرة قروش على أى حال.

الشلة: إن ثمنها جنيهاً!

توفيق: هذا ألعن!.. والذى أعلمه أن آدم خرج من الجنة ولم يدفع ثمن التفاح الذى أكله، ولو كانت حواء أخبرته بذلك قبل خروجه من الجنة، لما خرج وفضل أن يبقى فى الجنة على أن يدفع ثمن التفاح.

الشلة: لابد أن تقيم المأدبة.

توفيق الحكيم (يحاول التخلص): إننى أوافق على إقامة المأدبة، ولكن ليس فى بيتى طباق وشوك وسكاكين تكفى ثمانية أشخاص.

التاجر سيد جلال: أنا أتكفل بالأطباق والشوك والسكاكين!

توفيق الحكيم (يحاول النجاة من جديد): ثم إننى لست خبيراً فى اختيار أنواع الأطعمة. ولم يسبق لى أن أقمت مأدبة!

الشاعر كامل الشناوى: أنا أتكفّل باختيار الأطعمة.

توفيق الحكيم (يضيق ذرعًا): ثم هناك عقبة كؤود، وهو أنه ليس عندى طباخ أو سفرجى.

الصاوى: لا تحمل همًّ هذا... سأرسل لك طباخى والسفرجى.

توفيق الحكيم (يشعر بحصار اقتصادى فيسلم أمره إلى الله، ويبدو كأنه فأر فى مصيدة) ثم يقول: فليكن... إذن لا مانع من إقامة الحفلة.

الشلة: إنها لن تكلفك كثيراً!

توفيق: إنها ستكلف على كل حال، ولو كلفتنى جنيهًا فإن معنى ذلك إننى سأخسر من ثروتى جنيهًا. فماذا سأستفيد فى مقابل هذه الخسارة؟

الشلة: سوف تأنس بأصدقائك!

توفيق: إننى آنس بهم فى المآدب التى يقيمها غيرى.

الشلة: إذن فلتكتب مقالاً، وتدفع لك أخبار اليوم ثمن المقال وهو أربعون جنيهًا وتقيم المأدبة بالمبلغ.

توفيق: وماذا استفدت؟ أنا سأخسر الأربعين جنيهًا التى كانت ستدخل إلى جيبى!

مصطفى أمين: لا تحزن! نحن على استعداد لأن نشترى هذا المقال وندفع لك ثمنه المعتاد وفق الاتفاق الذى بيننا. أى أننا سنأخذ منك المقال المعتاد وندفع ثمنه، ثم نأخذ مقالاً آخر وتحول ثمنه إلى تكاليف المأدبة!

توفيق الحكيم «مسرورًا»: عال! لا مانع إذن من إقامة المأدبة فى الأسبوع القادم (ينتبه إلى نفسه) ولكن... ألا ترون أن مأدبة تكلف ٤٠ جنيهًا تعد إسرافًا؟! وهل يليق أن تأكلوا بأربعين جنيهًا، بينما الفلاح المصرى لا يجد أربعة قروش يأكل بها؟! إنكم تدافعون فى مقالاتكم عن الفقير! فكيف ترتكبون هذه الجريمة فى حق الإنسانية؟ ماذا ستقول صحف المعارضة عن هذه الحماقة؟ لن أسمع أن ثمانية أشخاص يأكلون بأربعين جنيهًا فى وجبة واحدة، أى ان الفرد الواحد سيتكلف خمسة جنيهات! وخمسة جنيهات هى مرتب حامل بكالوريا قبل مشروع الإنصاف! أى أن الواحد منكم سيتناول شابًا فى طعام الغداء، وسنأكل نحن الثمانية، ثمانية شبان حاملين بكالوريا! وثمانى ثانوية عامة، بدلاً من ثمانى بفتيك أو ثمانى كوستليته!

الشلة فى حالة يأس: كم تريد أن تدفع؟

توفيق الحكيم: إننى رجل درست القانون، ويجب أن أحترم القانون. الأمر العسكرى ينص على ألاّ يزيد ثمن الغداء على

٢٥ قرشًا فى فنادق الدرجة الأولى، فليكن بيتى فندقًا من الدرجة الأولى مثل شبرد وسميراميس والكونتننتال، فإذا ضربت ٨ × ٢٥ قرشًا فإن المجموع مئتى قرش، وعشرة فى المائة بقشيش فيصير المجموع ٢٢٠ قرشًا! ثم ثمانين للنبيذ والكونياك والشامبانيا.

الشلة: ضجة ودمدمة!

توفيق الحكيم: لا تحتجوا!! أعرف أن هذا إسراف. ولكن يجب أن تتمتعوا. إن هذه مأدبتى الأولى والأخيرة! يجب أن يكون الويسكى بلا حساب، ولهذا فلنصرف ٨٠ قرشًا على الخمور.

الصاوى: إن هذا المبلغ لا يكفى!

توفيق: يكفى وزيادة (فى نوبة كرم) وإلّا فلنجعله خمسة جنيهات. وفى هذه الحالة اسمحوا لى أن أنتهز الفرصة فأدعو جميع أصدقائى الذين دعونى للغداء والعشاء طوال حياتى، وبذلك أسدد لهم هذه العزائم وأستريح. ولا تنسوا الناشر! الناشر لن يغفر لى إذا أغفلت دعوته إلى مأدبتى العذراء، ويحسن أن نفهمه أن هذه الدعوة لتكريمه هو!... ثم إن هناك جماعة من الناس أتمنى لو دعونى إلى تناول الغداء والعشاء، فلماذا لا ندعوهم أيضًا. وهكذا أورّطهم ليدعونى إلى مآدبهم.

الشلة: إذن ستكون مأدبتك مصيدة؟!

توفيق: ليست مصيدة... إنما هى طُعْمٌ كالذى يضعونه فى المصيدة!

الشلة: ولكن هذا مستحيل... عدد المدعوين حوالى الثلاثين أو الأربعين... وخمسة جنيهات لا تكفى أبدًا، حتى لو طبقنا أحكام الأمر العسكرى!

توفيق: إن قواعد الاقتصاد تقول: إنه كلما زاد عدد المدعوين نقصت نفقات الفرد الواحد، ثم إننا قوم إذا أكلنا لا نشبع... هذا حديث شريف.

الشلة: يجب أن تزيد المبلغ قليلاً!

توفيق (ثابتًا فى موقفه كالأسد): يستحيل!.. يستحيل!.

أنطون الجميل رئيس تحرير الأهرام: لماذا لا تقيم الحفلة ياتوفيق يوم ١٣ نوفمبر، وتقول إنك أقمتها احتفالاً بعيد الجهاد الوطنى، وبذلك ترضى الوفديين والسعديين والدستوريين والكتلة الوفدية والمستقلين! وتدعو السفير الفرنسى فى القاهرة فيطلب لك وسام اللجيون دونير!

كامل الشناوى: وفى هذا الوقت حدث هجوم العلمين، فتنشر الصحف الإنجليزية إنه احتفال بالماريشال مونتجمرى ويطلب الإنعام عليك بلقب سير! أو يطلب طبع كتبك بالإنجليزية.

الصاوى: وفى هذا الشهر وقعت ثورة لبنان (ثورة تشرين) فأنت تحتفل أيضًا بذكرى الثورة اللبنانية وقد ينعم عليك بنيشان لبنانى لهذه المناسبة السعيدة!

توفيق الحكيم: طبعًا ستنشر الأهرام نبأ هذه المأدبة مجانًا!

أنطون الجميل: جميع أعمدة الأهرام تحت أمرك!

كامل الشناوى: وعلى الأخص أعمدة الوفيات!

مصطفى أمين: وستنشر خبر المأدبة فى صدر الصفحة الأولى فى أخبار اليوم بعنوان «خبر اليوم...» أو ننشره تحت عنوان «صدق أو لا تصدق...»!

الصاوى: وسأكتب عنك فى يوميات شركة مصر للتأمين وأقول: انظروا أيها الناس لولا أن توفيق الحكيم مؤمن على حياته ومطمئن للمستقبل لما جرؤ أن يقيم مأدبة وينفق عليها كل هذه المبالغ الباذخة!

على أمين: وسأوصى عليك وزير التموين ليبيع لنا الطعام بالتسعيرة!

سيد جلال: وسأتكلم عنك فى مجلس النواب.

على أمين: سيتكلم أثناء الاستراحة!

توفيق دياب: أما أنا إذا كتبت رأيًا عنك فسوف يظن الناس أنك «الفتى الطائش» وخاصة إذا علموا أنك تهورت، واندفعت وأقمت مأدبة أنفقت عليها خمسة جنيهات!

توفيق الحكيم: ما رأيكم فى أن تدعوا أم كلثوم لتحيى لنا الحفلة... طبعًا بشرط أن يكون ذلك فى حدود خمسة جنيهات!

الشلة: هذه مسألة سهلة. إن ثمن أسطوانة أم كلثوم ٣٠ قرشًا، فسندفع هذا المبلغ لتغنى فى الحفلة كما تغنى فى الأسطوانة.

توفيق الحكيم: ولكن الاسطوانة تبقى عندى طول الحياة!

الشلة: سنتفق مع أم كلثوم عندما تحب أن تسمع الأغنية أن تطلبها فى منزلها فى التليفون وتقول لها: غنى لى شوي شوي، فتغنى لك مجانًا كالأسطوانة تمامًا.

توفيق الحكيم: إننى أرغب فى الحصول على تأكيد صريح بأنكم لن تنفقوا على الحفلة أكثر من خمسة جنيهات. ثم من يضمن لى أن يجيء لى فى نهاية الحفلة من يقول لى إننى مدين لكم بخمسين أو ستين قرشًا؟ إنكم جميعًا رجال مِتْلافون، وأنا لا أرى فيكم رجلاً اقتصاديًا أطمئن إليه فى عملية اقتصادية خطيرة كهذه؟

الشلة: عليك أن تختار الاقتصادى الذى تثق به ليشرف على مصاريف المأدبة.

توفيق الحكيم: حافظ عفيفى باشا.

الشلة: إذن نجعله مشرفًا على ميزانية الحفلة.

الحكيم (فى توجس وشك!): ولماذا قبلتم حافظ عفيفى سريعًا. لابد أن نضم عددًا من الاختصاصيين مثل اسماعيل صدقى باشا وعبد المقصود أحمد باشا نائب رئيس بنك مصر وعلى الشمسى باشا رئيس مجلس إدارة البنك الأهلى، ونضم إليهم محمود شكرى باشا رئيس اللجنة المالية بمجلس الشيوخ والأستاذ عبد الرحمن البيلى رئيس اللجنة المالية بمجلس النواب، وتتولى هذه الجمعية وضع ميزانية المأدبة.

الشلة: موافقون !...

توفيق الحكيم: فى حدود خمسة جنيهات.

الشلة: طبعًا.

توفيق الحكيم (يتردد من جديد): أخشى أن تكونوا جعلتم لى البحر طحينة!

الشلة: أبعد كل هذا تسمى البحر طحينة؟! أبعد كل هذا تسمى المأدبة بحرًا تخشى أن تغرق فيه! تقيم مأدبة تدعو إليها أصدقاءك، وترد على الدعوات، وتجر بها أقدام الذين سيدعونك فى السنوات القادمة، وتكرم ناشر كتبك، وتحتفل بعيد ١٣ نوفمبر وترضى الوطنية، وتحتفل بعيد العلمين وترضى مونتجمرى والإنجليز، وتسمع أم كلثوم، وتنال وسام الاستحقاق من لبنان... كل هذا بخمسة جنيهات. ومع ذلك تسميه بحرًا خطرًا تخشى أن تغرق فيه؟

توفيق الحكيم (فى يقظة فكرية): ولكن ماذا أستفيد أنا من هذا الكرم كله؟

الصاوى: تستفيد!!.. أن يقال عنك الكريم الأمثل خليفة حاتم الطائى!

توفيق: ولكنى سأخسر خمسة جنيهات!

الصاوى: إنى أنفق ذات اليمين وذات اليسار، وكلما أنفقت جنيهًا جاءتنى عشرة جنيهات... والحسنة تأتى بعشرة أمثالها!

توفيق الحكيم: الذين وضعوا هذه القاعدة استثنونى أنا وحدى منها! حدث أن تصدقت فى شبابى بعشرة قروش، وبقيت طويلاً أنتظر عشرة أمثال الصدقة. لم يأت الجنيه، وهكذا أفقدنى هذا الإحسان مائة وعشرة قروش... العشرة التى دفعتها والمائة التى انتظرتها!!

الصاوى: لن تندم على الكرم هذه المرة!!

توفيق دياب: مستحيل أن أصدق أن توفيق الحكيم سيدفع خمسة جنيهات... كما أنه مستحيل أن ينطق الأبكم أو يسمع الأصم، أو يبرأ الأبرص أو يبصر الأعمى. وما بخلك هذا إلّا مرض كالصم والبرص والعمى، وإذا حدثت هذه المعجزة فسيزورك الناس من أنحاء البلد مغتبطين مهنئين فرحين.

توفيق الحكيم: وسأضطر لتقديم القهوة لهم. ألم أقل لكم إنها خسارة من كل ناحية.

وانتهت المحادثة الطويلة أو المجادلة الفاشلة بأن تقدم أحد الحاضرين وافتدى توفيق وحل مكانه فى إقامة هذه المأدبة! وهكذا تمّ إنقاذ توفيق الحكيم من هذا المأزق.

وتنفّس توفيق الصعداء، وقبل على الفور هذا الموقف السعيد؟... وخاصة بعد أن علم أنه أحد المدعوين!

ثم جاءت امرأة وأخرجت توفيق الحكيم من جنة البخل إلى جنة الإسراف والكرم والبذخ!

وأصبح أصدقاء الحكيم فى شبابه يرونه رجلاً آخر!
من هى هذه المرأة وكيف جعلت قلاع الحرص والاقتصاد التى أقامها توفيق الحكيم حول قلبه تسقط واحدة بعد واحدة...
فى الموضوع القادم سنحاول أن نحل هذا اللغز الفريد!

عَدُوّ المرأة يَتزوّج بشرُوطهِ

انتقل توفيق الحكيم من البانسيون الذى كان يقيم فيه إلى شقة فى عمارة سيف الدين المطلة على النيل فى حى جاردن سيتى. ولم يكن انتقال توفيق من غرفة واحدة إلى شقة واسعة مقصودًا به أن يسكن داراً واسعة أو أن يفتح النافذة أو يقف فى الشرفة ليطل على النيل الجميل! جيران توفيق يقسمون أنهم لم يروه مرة واحدة يقف فى النافذة أو فى الشرفة ويطل على النيل! ولم يكن مهتماً بفرش الشقة. كان كل اهتمامه أن يجد مكاناً واسعاً يضع فيه كتبه التى كانت مكدّسة فى غرفته بالبانسيون... وكانت صاحبة البانسيون تهدده كل يوم لأن هذه الكتب هى التى تملأ البانسيون بالفيران!

وكان توفيق الحكيم فى تلك الأيام محرراً معنا فى «أخبار اليوم». كان يخرج من بيته فى الساعة الثامنة صباح كل يوم ويمشى على قدميه إلى مكتبه بأخبار اليوم، ويبقى فيه إلى الساعة الأولى بعد الظهر ثم يعود مشياً على الأقدام إلى بيته لتناول الغداء، ثم بعد ذلك يجلس فى مكتبه يقرأ ويكتب إلى منتصف الليل. كانت حياة توفيق كالساعة التى لا تقدم ولا تؤخر، وكان لا يكتب وهوْ فى الجريدة، بل يمضى وقته يتحدث ويناقش وينقد

ويتخانق. وكان محله المختار فى غرفة المحررات فى أخبار اليوم، وكان يجد متعة فى الجلوس معهن ومحاورتهن وإثارة غضبهن بهجومه المستمر على المرأة. وكان السؤال الدائم على شفاة المحررات: لماذا لم يتزوج؟ وكان توفيق يقول لأنه ليس مجنوناً حتى يتزوج، وإذا حدث المستحيل وأصيب بالجنون، فلن يجد المجنونة التى تتزوج منه!

وبعد فترة لاحظنا تغييراً فى توفيق الحكيم. أصبح أكثر أناقة مما كان. وكنا نذكر أن الأستاذ التابعى أهداه ذات يوم ربطة عنق (كرافتة) من محل سولكا فى باريس وسأله توفيق عن ثمن هذه الكرافتة فقال التابعى إنها عشرة جنيهات! وسأله توفيق الحكيم: هل يمكن «فك» هذه الكرافتة؟ أى شراء عشر كرافتات كل كرافتة بجنيه مقابل الكرافتة الواحدة. وتقدم الشاعر مأمون الشناوى وتعهد بأنه يقوم بعملية الفكة المطلوبة، وأخذ الكرافتة السولكا، وأحضر لتوفيق الحكيم عشر كرافتات أخذها توفيق الحكيم سعيداً قريراً بهذه الصفقة! ولم يقل له مأمون الشناوى يومئذٍ أن ثمن الكرافتات التى اشتراها كلها كان جنيهاً واحداً، بواقع عشرة قروش عن كل كرافتة! وذات يوم اشترى توفيق الحكيم كرافتة من المشمع، كل قيمتها أنها لا تتغير، ويمكن غسلها... أما فى تلك الأيام فقد اختفت من عنق توفيق الحكيم كرافتات مأمون الشناوى، والكرافتة المصنوعة من المشمع. وظهرت كرافتة ماركة سولكا رفض توفيق أن يذكر لنا مصدرها!

وقال كامل الشناوى يومها: إن هذا التغيير سببه أن توفيق يجلس دائماً فى غرفة المحررات ولعله رأى أن من اللائق أن يجلس معهن فى كامل أناقته!

ولكن عادات توفيق لم تتغير. استمر يجئ إلى المكتب ماشياً على قدميه ويعود إلى بيته ماشياً على قدميه لا يعترف بالتاكسى ولا بالعربة الحانطور!

وكان توفيق الحكيم يمضى كل يومه فى «أخبار اليوم» وأترك السيدة مى شاهين أول محررة فى أخبار اليوم تصف الحياة فى هذه الدار التى كان نجمها توفيق الحكيم...

«كانت الحياة فى أخبار اليوم ضاحكة ممتعة. كنا نعمل ونضحك. نشقى ونبتسم. وكنا نكافح ونمرح. كانت جلساتنا فى«أخبار اليوم» لا تخلو من مناقشات جادة، ونوادر حلوة. وإذا دخلت ورأيتنا فى إحدى هذه الجلسات كنت تدهش... كيف يجتمع العرق والضحك فى مكان واحد، وكانت ندوات «أخبار اليوم» تولد أفكاراً عبقرية، ومقالات عميقة وتثير أبحاثاً هامة.وكانت تتحول إلى مبارزة بين أفكار، وإلى مصارعة بين عقول. ثم تنقلب إلى مباراة فى «القفش» بين ملوك الفكاهة وخفة الروح. ثم كنت تشهد هذا الاجتماع يتحول فجأة إلى مجمع علمى، فيه أحاديث عن الاختراعات والفنون وتقدم العلم وابتكارات العقول. ثم يتوقف البحث العلمى بنكتة تنهى هذا الاجتماع الجاد ونعود ونضحك من جديد، ثم يقطع سكرتير التحرير علينا هذا الهزار

اللذيذ، ويذكرنا بأن موعد الضبط على الأبواب فتختفى الضحكات، وتظهر أقلام الحبر فى أيدى الكتّاب والمحررين، وكأن الندوة تحولت إلى مصنع، وإذا بكل من يعمل ويترجم ويؤلف ويبتكر ويكتب، وقد نسينا أننا كنا إلى بضع لحظات نضحك كما يضحك الناس فى رواية شائقة من روايات نجيب الريحانى...

فى هذا الجو الضاحك كان يعيش توفيق الحكيم، وكان معه إبراهيم عبد القادر المازنى وأحمد الصاوى محمد وكامل الشناوى ومأمون الشناوى وعلى أمين ومصطفى أمين. وكان ينضم إليهم فى بعض الأحيان أم كلثوم ونجيب الريحانى وسليمان نجيب وحنفى محمود وهم ملوك الفكاهة فى تلك الأيام. ولم يلحظ أحد فى تلك الاجتماعات أن تطوراً خطيراً يحدث فى توفيق الحكيم، فقد كان يحرص على أن يحضر مآدب الغداء والعشاء التى تقام يومياً فى دار «أخبار اليوم» وكان أول من يحضر وآخر من ينصرف.

وذات يوم دق جرس التليفون فى مكتب مصطفى أمين، وقالت سيدة إنها تسكن فى عمارة الأمير سيف الدين التى يسكن فيها توفيق الحكيم. وإنها لاحظت شيئاً غريباً لا يصدقه عقل، وهو أن سيدة فاتنة طويلة القامة تسكن فى شقة توفيق. وإنها رأتها بعينيها وهى تفتح نافذة غرفة نوم توفيق كل صباح. وعندما سمعت السيدة تروى هذا الخبر العجيب لم أصدقها وتصورت أنه مقلب أعده أحد أصدقاء عدو المرأة. وسألتها هل هى متأكدة من هذا الخبر؟ فقالت إنها واثقة مئة فى المئة ودعتنى أن أذهب بنفسى إلى

بيتها وأطل على شقة توفيق الحكيم لأرى هٰذه الفاتنة المجهولة التى غزت بيت عدو المرأة واستولت عليه وأرغمت عدو المرأة أن يرفع الراية البيضاء!

ولم أشأ أن أذهب وأوفدت إحدى المحررات، ورابطت المحررة من الصباح المبكر إلى منتصف الليل. وشاهدت المحررة السيدة الفاتنة وهى ترتب غرفة نوم توفيق، وهى تدخل المطبخ، وهى تعد الطعام!

وسألنا الصاوى باعتباره المستشار الخاص لعدو المرأة فأكد لنا أن الخبر كاذب ولا أساس له من الصحة، وأنه كان يتحدث أمس فقط مع توفيق عن الزواج، فقال توفيق إنه لن يتزوج ولو شنقوه! وحاصر توفيق بالأسئلة والاستجوابات فأنكر وقال لنا: متى أتزوج وأنا معكم بالليل والنهار؟ فمن هى العروس التى ترضى أن يمضى شهر العسل فى «أخبار اليوم»!

وصدقناه وقلنا للمحررة التى أكدت أنها رأت سيدة فاتنة فى بيت توفيق الحكيم إنها فى حاجة إلى زيارة طبيب العيون، وإنها ربما كانت خادمة توفيق واختلط الأمر على المحررة ضعيفة النظر فتصورت أنها إحدى نجوم السينما! وعدنا نسأل توفيق هل عنده خادمة فى البيت؟ فأكد أنه لا يستخدم خادمات وأن عنده طباخ رجل يقوم بمهمة السفرجى والفراش والبواب والسكرتير فى وقت واحد!

وبدأنا نراقب توفيق مراقبة دقيقة، كان يراوغنا ويهرب منا،

ويبالغ فى عدائه للمرأة، ثم قام عدد من المحررين بتحقيق صحفى واسع النطاق وتبين أن توفيق الحكيم تزوج فعلاً، وأنه أخفى هذا الزواج عن الجميع، وقررنا أن نرسل مصور «أخبار اليوم» محمد يوسف ليصور العروس خلسة فى بيت توفيق، ونفاجئ عدو المرأة بأن ننشر صورة العروس فى الصفحة الأولى من «أخبار اليوم». ولكننا خشينا لو فعلنا ذلك أن يغضب توفيق وأن يستقيل من «أخبار اليوم» احتجاجاً على هذا الفصل البارد!

وأخيراً اعترف توفيق الحكيم لنا أنه تزوج من سيدة مطلقة لها ابنتان، وأن الزواج كان زواج عقل، الغرض الأول منه تأسيس بيت يصلح لحياة فنان. الكتب فيه أهم من الفراش. والموسيقى فيه أكثر من الطعام!

وأنه وضع لزوجته شروطاً صعبة، وأصرّ على أن توقع بإمضائها على كل شرط من هذه الشروط قبل أن يوقع عقد الزواج، ووقعت العروس على هذه الشروط التى تشبه معاهدة فرساى التى استسلم فيها الجيش الألمانى للغزاة الفاتحين، الفرنسيين والإنجليز!

وقال لنا عدو المرأة إن شروط التسليم هى:

الشرط الأول: أن لا يعرف أحد أننا تزوجنا. أريد أن يبقى هذا الزواج سراً بيننا لا تعرفه إلا أسرتك فقط لا غير!

الشرط الثانى: أن لا ينتشر نبأ هذا الزواج فى الصحف لا تلميحاً ولا تصريحاً.

الشرط الثالث: أن لا أخرج معك خارج البيت. أنا أخرج وحدى وأنت تخرجين وحدك!

الشرط الرابع: أن أسافر وحدى إلى الخارج، ولا تسافرين معى.

الشرط الخامس: لا نستقبل ضيوفاً فى بيتنا لا من الرجال ولا من النساء.

الشرط السادس: لن أصحبك إلى نزهة أو رحلة حتى إلى مدينة الاسكندرية... أنت تسافرين وحدك وأنا أسافر وحدى!...

الشرط السابع: سوف أعطيك كل شهر مائتى جنيه. أنت تدفعين منها إيجار البيت ومصاريف الطعام والكهرباء ومرتبات الخدم، ولا تتجاوزين هذا المبلغ بمليم واحد!

الشرط الثامن: لست مسئولاً عن مشاكل البيت والخدم، وهى مسائل من صميم اختصاصك وحدك، والمطبخ من اختصاصك.

الشرط التاسع: مشاكل الأولاد من اختصاصك وحدك.

الشرط العاشر: مهمتك أن تمنعى عنى الشحاذين والمتسولين والنصابين الذين يطلبون منى نقوداً.

الشرط الحادى عشر: أن لا تطلبى منى شراء سيارة وأنا رجل تعودت أن أمشى على قدمى، ويمكنك لو شئت أن تستعملى الترام، وتجلسى فى عربة الحريم.

الشرط الثانى عشر: يجب أن تعاملينى كطفل صغير، والفنان طفل صغير يحتاج دائماً إلى الرعاية والاهتمام.

الشرط الثالث عشر: إننى أريد بيتاً هادئاً، لا ضجة فيه ولا خناقات ولا أصوات تزعجنى حتى أتفرغ لكتابة ما أريد.

الشرط الرابع عشر: أن أنام فى غرفة نوم وحدى، وأن تنام الزوجة فى غرفة نوم أخرى.

الشرط الخامس عشر: إننى لا أريد أن تتدخل الزوجة فى عملى. وسوف أعتبر نفسى مسجوناً فى سجن بلا أسوار، أدخل فيه عندما أريد، وأخرج منه عندما أشاء!

وقال توفيق إن من العجيب أن عروسه وافقت على هذه الشروط القاسية التى لم يسبق لها مثيل، وإنها احترمت شروطه ولم تعترض على أى شرط ولا تبرّمت من أى شرط.

وذكر لى توفيق أنه كان صديقاً لجاره وهو شاب ضابط فى القوات المسلحة، وأنه تعرف على زوجته فى بيت شقيقها، وأعجبه فيها اهتمامها الشديد بالأدب وشغفها بالفن، واكتشف أنها قرأت له كل ما كتب، وأنه كان يبحث دائماً عن امرأة درست ما كتب، ووجد فيها هذه المرأة!

أما السيدة سيادات عروس توفيق الحكيم فقد كانت تروى قصة مختلفة بعض الشىء لصديقاتها المقربات منها. كانت تقول إنها صحيح وقّعت بإمضائها على الشروط الخمسة عشر، ولكنها بذلت جهوداً خارقة شيئاً فشيئاً وسنة بعد سنة حتى ألغت

الشروط الخمسة عشر واحداً بعد الآخر!

وأول شرط ألغته هو شرط عدم شراء سيارة، فقد مكثت شهوراً تلح على توفيق أن يشترى سيارة حتى رضخ وطلب منها أن تذهب هى وتختار السيارة التى تريدها. وذهبت إلى محلات السيارات واختارت سيارة إنجليزية من أغلى السيارات فى تلك الأيام وكان ثمنها خمسة آلاف جنيه... وما كادت تخبر توفيق بثمن السيارة حتى ذعر وقال إن هذا المبلغ يقتضى منه أن يكتب كذا مقال لأخبار اليوم وكذا قصة...

وأخيراً رضخ توفيق لإلحاح زوجته وقال إنه سيوقع الشيك بإمضائه فقط، ولكنه لن يكتب الخمسة آلاف جنيه بخط يده، لأنه لو فعل ذلك ستصاب يده بالشلل... وفعلاً وقع توفيق الشيك وكتبت زوجته رقم الخمسة آلاف جنيه بخط يدها واشترت السيارة!

والشرط الثانى الذى ألغته زوجة توفيق هو شرطه بأن لا تزيد المصروفات عن مائتى جنيه فى الشهر، فقد كانت تشم رائحة النقود التى فى جيبه، وتعرف كيف تأخذها منه، وكان توفيق يقول لها: إن المرأة نشالة محترمة، تتخصص فى نوع واحد من الجيوب، وهو جيوب الزوج! وكان توفيق يدهش من إحساس زوجته العجيب أن معه فلوساً، فإذا قبض مثلاً ألف جنيه من الناشر، أحست ساعة دخوله البيت أن فى جيبه شيك الناشر! وكان أحياناً يخفى الشيك فى جلدة «البيريه» فتكتشف مكانه!

وكانت لا تفتش جيوبه، وإنما لا تضع يدها فى مكان إلّا وتجد فيه الفلوس التى قبضها سراً! وكان توفيق يعجب من كفاءتها العظيمة فى تجريد ما فى جيوبه، وكثيراً ما كانت تقول له: أنت لا تنفق شيئاً ولا تحتاج إلى فلوس، ولا تعرف كيف تنفقها... إننى سأتولى إنفاقها بالنيابة عنك!

وسألت توفيق مرة: قلت لنا مرة إنك لن تتزوج سيدة إلّا إذا استطاعت أن تطهى لك صينية بطاطس، فهل امتحنت زوجتك فى صنع صينية البطاطس؟

وضحك توفيق: الغريب أننى نسيت هذا الشرط، ولكنها كانت طاهية ماهرة. وكانت أستاذة فى صنع الأرز بالخلطة والكشك والكنافة!

وذكر لى توفيق أنه عندما طالب المرأة المصرية أن تصنع صينية البطاطس كان بسبب ما لاحظه أن خريجات الجامعة كن يجهلن كيف يصنعن طبق البيض المقلى!

وسألته: هل دخلت زوجتك إلى قلبك من معدتك؟

قال توفيق: الواقع أنها دخلت من عقلى إلى قلبى!

وكانت السيدة سيادات توفيق الحكيم تقول إنها كانت معجبة بقصص توفيق الحكيم قبل أن يسكن بجوارها. ولما علمت أن عدو المرأة سكن فى الشقة المجاورة قررت أن تستولى على قلبه، وأن تأخذ عدو المرأة أسيرًا فى حرب ثقافية، فعكفت على قراءة كل ما كتب، وبعد ذلك طلبت من شقيقها وهو ضابط شاب فى

الجيش أن يدعو توفيق الحكيم أن يتناول الطعام فى بيتهم ولبى توفيق الدعوة.

وتقول زوجة توفيق: لم أتبهرج لتوفق لأبهره بجمالى! لم أهتم بالبودرة والأحمر والريميل. وإنما تعمدت أن أتبهرج له ثقافيًا وحاولت أن أستعرض أمامه معلوماتى عن كل ما كتب. ويومها ذهل توفيق من اطلاعى الواسع على كتبه ومؤلفاته ومن حفظى لجمل معينة من قصصه. ولقد أحببت الفيلسوف الفنان فيه قبل أن أحب الرجل!.. وكنت أراه رجلاً فاتنًا أو هو «دون جوان أدبى»! سحرتنى كلماته. جذبتنى أفكاره. فتنت بحواره. كنت أحيانًا أشعر أن قصصه ومسرحياته هى خطابات غرام يرسلها لى! كنت أقرأ فيها أشياء كثيرة لا يقرأها الناس!

والشرط الثالث الذى ألغته زوجة توفيق الحكيم هو أن لا تتدخل فى عمله... قالت السيدة سيادات الحكيم: إننى تدخلت فى عمله عندما أعطاه الرئيس جمال عبد الناصر القلادة، وهى أكبر نيشان فى الدولة، وحدد موعدًا فى عيد العلم ليسلم القلادة إلى توفيق. قلت له: إحذر أن تحنى رأسك أمام عبد الناصر وأنت تتسلم القلادة! قال لى: كيف لا أنحنى له وهو رئيس الجمهورية؟ قلت له: إعلم أنك أعظم من الرئيس جمال عبد الناصر! قالت لى: إننى أراك أهم رجل فى الدنيا... وذهب توفيق إلى الاحتفال، وتابعته فى التليفزيونَ ولاحظت أنه لم ينحنِ أمام الرئيس! وسعدت بذلك أكثر مما سعدت بالوسام!

وكان توفيق يقول لزوجته: «والله يا أم اسماعيل يظهر أننى خدعتك وأفهمتك أننى رجل عظيم بينما أنا رجل بسيط جدًا وهكذا... جه نبقك على شونة»... كما يقول المثل العامى. وكانت زوجته تقول له: إننى أشعر أننى زوجة أهم رجل فى مصر وأريد أن أقول للدنيا كلها إننى زوجة توفيق الحكيم... ولكنها لم تفعل ذلك أبدًا، ولم تقل مرة واحدة فى محل تجارة إنها زوجة توفيق الحكيم، بل كانت تستعمل اسم أسرتها.

وكانت أحيانًا تنادى توفيق باسم «محسن» وهو بطل قصة عودة الروح؛ فقد رأت وهى تقرأ القصة أن محسن هو توفيق الحكيم الحقيقى!

* * *

وكانت سيادات امرأة ممشوقة القوام، فاتنة الجمال، شقراء الشعر، شعرها خليط من اللون الأصفر واللون البنى، وكانت لها ابتسامة جذابة، تأسر القلب. وكان عقلها أقوى ما فيها. منطقها يأسر القلوب. وكانت تغلب توفيق الحكيم فى المناقشة، تعرف كيف تحاوره، وترد عليه، وكان صوتها جميلًا، كثيرًا ما غنت لتوفيق بعض الأدوار التى يحبها. وقد تعلمت حتى حصلت على شهادة الثانوية العامة، واستطاعت بذكائها وإصرارها أن تتثقف وتتعلم وتدرس حتى كان يخيل إليك وأنت تسمعها أنها تحمل شهادة الدكتوراه. وهكذا بهرت توفيق بسعة اطلاعها. كانت امرأة ساحرة. وكانت تستطيع بجمالها وحده أن تأسر توفيق الحكيم

عدو المرأة ولكنها لم تشأ أن تسحره بجمال تقاطيعها، وإنما تعمدت أن تسحره بفتنة ثقافتها وقوة شخصيتها. وهكذا كانت المرأة الوحيدة التي استطاعت أن تخضع عدو المرأة، واستسلم ولكن بشروط، استطاعت أن تلغيها كلها!

وكانت تقرأ كل كتبه، وتناقش كل مقالاته، وتحاوره فى كل أفكاره، وعندما التقت بتوفيق أبدت إعجابها به كرجل، وأخفت عنه إعجابها به ككاتب، ولم يلبث أن أحس توفيق أنها تراه الرجل الوحيد فى العالم. وكانت ترى فيه كل الأساطير التى كتبها فى كتبه، وكل الرجال الذين كانوا أبطال قصصه، وهكذا دخلت إلى قلب توفيق من باب لم تطرقه امرأة أخرى من قبل. وإذا كانوا يقولون إن الحب من أول نظرة، فقد كانت قصة توفيق أنها بدأت الحب من أول كلمة!

وكانت تجد لذة أن تخدمه. لا تتركه إلّا بعد أن تقدم له عشاءه، وتضعه فى الفراش، وتغطيه باللحاف، وتضع القربة الساخنة تحت قدميه. وكان ينام الساعة الحادية عشرة مساء. وكانت هى تبقى ساهرة بعد ذلك تستمع الاسطوانات أو تتابع الراديو، وكانت تتعمد أن تستيقظ الساعة السابعة صباحًا قبل أن يفتح عينيه فى الساعة الثامنة صباحًا، وتكون قد أعدت له طعام إفطاره.

كانت تشعره دائمًا أنه الملك وأنها رعيته. ولم يكن توفيق حاكمًا مستبدًا، وكانت الكلمات الحلوة تجرده من سلطانه وهيلمانه ويلغى كل يوم شرطًا من شروطه التى كان يفرضها بصفته عدو المرأة رقم واحد!

ولم يكن توفيق عدوًا للمرأة، وقد عشق المرأة وأعجب بها، وكان كاهنًا فى محرابها، وإشاعة أنه عدو المرأة أطلقها زملاؤه، وشجعها هو على الانتشار. ويقول الموسيقار محمد عبد الوهاب، وكان من أقرب أصدقاء توفيق الحكيم، إنه فى شبابه كان يحملق فى كل امرأة جميلة ويسرح عدة دقائق، وهو يملأ عينيه بهذا الجمال، وفى تلك الأيام كانت تقوم منافسة بين عبد الوهاب وأم كلثوم. وكان الرجال جميعًا من حزب أم كلثوم، والنساء جميعًا من حزب عبد الوهاب، وهكذا كانت حفلات عبد الوهاب الغنائية مليئة بسيدات الطبقة الراقية وهوانمها. وكان توفيق الحكيم يحرص على أن يحمل عودًا بين يديه ويدخل مع فرقة عبد الوهاب الموسيقية ويجلس معهم على المسرح يتظاهر بأنه يعزف على العود بينما هو فى الواقع يحملق فى وجوه المتفرجات!

ولم يعارض توفيق الحكيم النساء المصريات اللواتى طالبن بمنح المرأة حق الإنتخاب وعندما ألفت الدكتورة درية شفيق حزبًا يطالب بدخول المرأة الانتخاب، وكان اسم الحزب «حزب بنت النيل». ولم يتصد للحزب النسائى التى أنشأته السيدة فاطمة نعمت راشد والتى طالبت بمساواة النساء بالرجال.. بل إنه رحب بهذه الفكرة ولكن على طريقته. فقد كتب فى سنة ١٩٣٨ يؤيد هذه المطالب ويقول: «نعم... فلنتشجع ولنفعل ذلك. وخذوا قولى على سبيل الجد. إذا أردتم لحالنا الإصلاح ولبلادنا فلاحًا، فأعطوا النساء حق الانتخاب، وأدخلوهن حلبة السياسة حتى يخرج منها الرجال، وينصرفوا إلى النافع المثمر... صدقونى واصغوا إلى

اقتراحى. والقوا بالمرأة فى هذا المعترك لتريحوها وتستريحوا منها، وتنقذوا أنفسكم وتدخروها لما هو أجدى لأمتكم... أيها الأزواج الشاكون من صخب زوجاتكم أقذفوا بهن فى بحر السياسة وقفوا أنتم على بر الأمان لتشاهدوا منظرهن الرائع، وهن ممسكات بعضهن بثياب بعض، يمزقنها بالأظافر الحمراء»!

ولكن بعد ذلك بست سنوات عدل توفيق عن رأيه فلم يسمح لزوجته بالالتحاق بالجمعيات الخيرية النسائية ولا بالعمل السياسى النسائى. وكانت زوجة توفيق هى الأخرى ترى أن مكان المرأة فى البيت. ورزق توفيق من سيادات بنتًا وولدًا، وكان اسم البنت زينب وقد ورثت عن أم توفيق الحكيم الكثير من طباعها وكان يسميها «إز إز». وكانت أم توفيق هى السيدة أسما البسطامى، وقد عاشت معظم حياتها فى عزبة الحكيم القريبة من قرية أبو السعود بمحافظة البحيرة، وهى السيدة التى قال عنها توفيق... إنها الجندى المجهول فى حياته... ومن العجيب أن والد توفيق وهو المستشار اسماعيل الحكيم فشل فى إدارة زراعته وأغرقها فى الديون، وكذلك فعل جده لوالده. أما أمه فقد استطاعت أن تدير المزرعة بكفاءة عجيبة، واستطاعت أن تسدد ديون الأب والجد، وأن تشترى أرضًا تضمها إلى المائة فدان التى تركها زوجها.

وكان توفيق يحسب ألف حساب لابنته إز إز ولعنادها الموروث، وفعلًا صدقت نظرته، فقد تزوجت بالرغم منه ومن والدتها، واختارت الزوج الذى أرادته متحدية رغبة والدها.

وكان اسماعيل بن توفيق يصطدم بأبيه. كان يهوى الموسيقى، وكان أبوه يريد أن يعلمه ليكون وكيل نيابة مثله أو مستشارًا مثل أبيه، وأصر اسماعيل أن يشتغل بالموسيقى وخضع توفيق لإرادة ابنه الصغير.

وكانت زوجته لا تستطيع أن ترفض طلبًا لابنها أو لابنتها.. حدث مرة أن طلب اسماعيل من والده مبلغًا كبيرًا لشراء آلة موسيقية ورفض توفيق بشدة. وتدخلت الزوجة وتوسطت حتى قبل أن يدفع المبلغ بشرط أن يكون دينًا على أقساط يسددها اسماعيل كل أول شهر.

وكان توفيق ينتظر صباح كل أول شهر على باب غرفة نوم اسماعيل يطالبه بقسط الدين. وكان اسماعيل يخرج من غرفة نومه حاملاً القسط المطلوب، ويشعر توفيق بسعادة غريبة أن ابنه يسدد الدين بانتظام!

ولكن الذى لم يعرفه توفيق أن زوجته السيدة سيادات كانت تسلم ابنها فى آخر كل شهر القسط المطلوب ليدفعه اسماعيل فى الصباح لأبيه.. وفى الظهر كانت زوجته تضع يدها فى جيب توفيق وتسترد القسط الذى دفعته فى اليوم السابق!

وكانت علاقة زوجة توفيق بأولادها علاقة صداقة، وكانت تعطيهم كل ما يريدون من نقود دون أن تخبر توفيق حتى لا تنكد عليه الحياة. وكان توفيق يكبرها بثمانية عشر عامًا، ولكن لم تشعره فى يوم من الأيام أنها أصغر منه بيوم واحد!

وكانت تلاعبه الطاولة، وتتعمد أن تخسر له، وأن يكسب منها، وكانت فى بعض الأحيان تراهنه وتتركه يأخذ المكسب، وكان هذا الأمر يسعد توفيق كثيرًا حتى ولو كان المكسب هو عشرة قروش!

* * *

كانت السيدة سيادات بيومى - زوجة توفيق - تقول دائمًا لصديقاتها المقربات إنها سعيدة جدًا فى حياتها مع توفيق، والشىء الوحيد الذى يعكر سعادتها أنها كانت دائمًا تعتقد أنها ستموت صغيرة السن، ولذلك كانت تقول: إننى لا أحب أن أنام كثيرًا، لأننى سأنام إلى الأبد فى يوم من الأيام. وكانت تشعر أن متعتها فى الحياة أن تسعد كاتبًا اسمه توفيق الحكيم. كانت تتفانى فى خدمته وفى راحته.

وفى مرضها الأخير زارتها إحدى قريباتها وسألتها:

- ألم تندمى فى يوم من الأيام أنك تزوجت توفيق الحكيم؟

قالت سيادات: ولا لحظة واحدة طول ٣٠ سنة.

وعادت تسألها: ألا تشعرين أنه أكبر منك كثيرًا؟

قالت زوجة الكاتب: أبدًا.. إننى أشعر أنه طفلى الصغير الذى لم يكبر أبدًا..

كيف أفلس أغنى صحفى فى مصر

كان الأستاذ محمد توفيق دياب يدرس مادة «الإلقاء» فى مدرسة وادى النيل الثانوية، وكانت مادة جديدة على التلاميذ فى تلك الأيام.

وكان التلميذ يوسف وهبى تلميذًا مشاغبًا فى مدرسة وادى النيل، وفى أول حصة أراد يوسف الصغير أن يهزأ بالأستاذ الكبير ويسخر منه...

وإذا بالمدرس توفيق دياب يأمر التلميذ يوسف وهبى أن يخرج فورًا من الفصل ولا يعود إليه إلا فى السنة القادمة!

وحاول التلاميذ إقناع أستاذهم بالعفو عن الطالب المشاغب، ولكن توفيق دياب أصر على عقاب يوسف وهبى وقال: إنه لا يصلح مطلقًا للإلقاء!

وجاء ناظر مدرسة وادى النيل يرجو المدرس أن يصفح عن التلميذ المشاغب ويقول: إنه ابن عبدالله باشا وهبى، وإنه يدفع المصاريف!

وقال يوسف وهبى: إن توفيق دياب لا يفهم شيئًا فى الإلقاء بينما قال توفيق دياب: إن يوسف وهبى لن يفلح فى الإلقاء على الإطلاق.

وضحكت الأقدار، وبعد سنوات أصبح توفيق دياب أخطب الخطباء فى مصر، وأصبح يوسف وهبى أكبر ممثل فى الشرق!

والتقى الاثنان فى مسرح رمسيس الذى افتتحه يوسف وهبى سنة ١٩٢٣ فى شارع عماد الدين، ودهش توفيق دياب أن تلميذه الفاشل أصبح ممثلاً كبيرًا يتحدث عنه الناس.. ودهش يوسف وهبى عندما طلب منه توفيق دياب أن يؤجر مسرح رمسيس يومًا فى الأسبوع ليلقى دروسًا فى فن الإلقاء، فى مقابل تذاكر يشتريها الجمهور! وقال له يوسف وهبى: إن الجماهير اعتادت أن تحضر المحاضرات مجانًا، ولم يحدث مرة واحدة أن دفع الجمهور قرشًا واحدًا ثمنًا للاستماع لمحاضرة من المحاضرات!

وقال توفيق دياب: إن هذا علم جديد فى مصر، وإنه واثق أن الجمهور سيقبل على المسرح ويدفع ثمن التذاكر..

ووضع يوسف وهبى مسرحه مجانًا تحت تصرف أستاذه القديم الذى طرده من حصة الإلقاء..

وفى يوم المحاضرة بيعت كل التذاكر، وامتلأت كل المقاعد والبناوير والألواج وأعلى التياترو.. واضطر بعض الحاضرين إلى الوقوف على أقدامهم ساعة ونصف الساعة حتى انتهت المحاضرة، وكانت شيئًا جديدًا فى مصر.

وكان توفيق دياب شخصية غريبة، كاتب من الطراز الأول، وخطيب من الطراز الأول، ودرس فن الإلقاء فى جامعة لندن، وأرسل وهو طالب فى إنجلترا مقالاً إلى الأستاذ أحمد لطفى السيد

رئيس تحرير جريدة «الجريدة» وإذا بلطفى السيد ينشر مقال الطالب توفيق دياب فى الصفحة الأولى ودهش توفيق دياب عندما وصلت إليه نسخة الجريدة فى لندن، ووجد نفسه فى الصفحة الأولى ومنذ ذلك اليوم قرر أن يكون صحفيًّا.

وعندما أصدر حزب الأحرار الدستوريين جريدة «السياسة» انضم توفيق دياب إلى أحرارها، وأصبح يكتب مقالات من نار ضد سعد زغلول، وعين مدرسًا فى الجامعة إلى جانب عمله الصحفى، ورشح نفسه فى أول انتخابات لمجلس النواب سنة ١٩٢٤ ضد رئيس الوزراء... وسقط توفيق دياب مرشح الأحرار الدستوريين، وسقط معه رئيس الوزراء، ونجح مرشح سعد زغلول!

وفى سنة ١٩٢٨، ألف محمد محمود باشا زعيم الأحرار الدستوريين الوزارة، وحل مجلس النواب، وأوقف الحياة النيابية ثلاث سنوات قابلة للتجديد!

وقرأ توفيق دياب الخبر فى الصحف، وثار على رئيس الوزراء الذى أوقف الحياة النيابية، وثار على حزب الأحرار الدستوريين الذى وافق على الاعتداء على الدستور، وكتب مقالاً من نار فى جريدة الأهرام بعنوان «من الأعماق» أعلن فيه استقالته من الجامعة ومن جريدة السياسة، احتجاجًا على الاعتداء على دستور البلاد، واشترك مع الدكتور محمود عزمى فى تحرير جريدة وادى النيل التى تصدر فى مدينة الإسكندرية، وهاجم فيها الديكتاتورية

والطغيان، وبعد بضعة أيام أصبحت هذه الجريدة من أوسع الصحف انتشارًا فى مصر..

وضاق رئيس الوزراء بهذه الجريدة، واستدعى صاحبها وأقنعه بأن يستغنى عن توفيق دياب ودكتور محمود عزمى، وإلا سيعطل الجريدة نهائيًا! وفوجئ توفيق دياب فى اليوم التالى بخطاب من صاحب الجريدة يستغنى فيها عن خدماته... وقد كان توفيق دياب هو كل شىء فى الجريدة فى تلك الأيام!

وأصدر توفيق دياب بعد ذلك عدة جرائد، وفى كل مرة يعطل رئيس الوزراء الجريدة نهائيًا، أو يصادرها وهى فى المطبعة..

وفى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٨ أقيم الاحتفال بعيد الجهاد الوطنى، وهو اليوم الذى ذهب فيه سعد زغلول إلى دار الحماية البريطانية، وطلب باسم الشعب أن يخرج الإنجليز من مصر..

ووقف توفيق دياب على المنبر وبدأ هادئًا، ثم انطلق كالإعصار ينقضّ على الوزارة، ويدعو الشعب إلى الثورة، وإذا بالجماهير تلتهب حماسًا وتخرج الألوف فى مظاهرة صاخبة تهتف بسقوط الديكتاتور.

وأمر النائب العام بالقبض على توفيق دياب بتهمة التحريض على الثورة وتأليب الجماهير.. وعرض توفيق دياب على القاضى فأمر بالإفراج عنه مع دفع كفالة.

وفى ذلك اليوم أصبح توفيق دياب أحد زعماء الوفد، وكلما رأته الجماهير حملته على الأعناق هاتفةً بحياته. واستمر يصدر

الصحف وتغلقها الحكومة إلى أن سقطت الديكتاتورية، وألف عدلي يكن باشا وزارة محايدة أعادت الدستور وأوقفت تعطيل الصحف والمجلات.

وأصدر جريدة اليوم، وكانت جريدة صباحية وفدية، وتولت وزارة إسماعيل صدقي باشا الحكم وقرر أن يحكم بيد من حديد، وعارضه توفيق دياب بمقالات نارية عنيفة، وأمر صدقي باشا بمصادرة جريدة اليوم، ثم أمر بإغلاقها نهائيًا.

وفي تلك الأيام ذهبت إلى توفيق دياب أعرض عليه أن أعمل في جرائده، ورحب بي، واستأجر جريدة صغيرة اسمها العلم المصري، واشتركت معه في تحريرها، وما كادت الجماهير ترى اسم توفيق دياب على الجريدة المجهولة حتى أقبلت عليها تتخاطفها، وفي يوم وليلة أصبحت جريدة العلم المصري أوسع الجرائد انتشارًا في مصر، وبعد يومين أصدر صدقي باشا قرارًا بتعطيل جريدة العلم المصري تعطيلاً نهائيًا، ولم ييأس توفيق دياب وطلب مني أن أعود في اليوم التالي لتصدر جريدة جديدة يتحدى بها الديكتاتور، وبعد ثلاثة أيام وجد توفيق دياب جريدة اسمها «الأخلاق» واستأجرها من صاحبها ببضعة جنيهات، وأصدرها مهاجمًا الديكتاتورية من جديد! وأمر صدقي باشا بمصادرة جريدة الأخلاق بعد صدورها بيومين! وكانت هذه المصادرات وأوامر التعطيل تكلف توفيق دياب مبالغ طائلة، ولكنه رفض أن يتراجع، وأصدر جريدة «الثبات».. وصدر منها عدد واحد، وعطلها صدقي باشا في اليوم التالي، ولم يتراجع توفيق دياب أمام التهديد

والوعيد، وأصدر جريدة جديدة باسم «النهاردة» ولم يمهلها صدقى باشا سوى يومًا واحدًا وعطلها عن الصدور..

وانهالت الديون والحجوزات على توفيق دياب، وأحاط به أصدقاؤه وزملاؤه ينصحونه أن يحنى رأسه للعاصفة، ولكنه أصر على أن يتصدى للطغيان حتى لو مات من الجوع، وفى ديسمبر سنة ١٩٣٠، أصدر جريدة الضياء واستمرت فى الصدور إلى أن تهاوت الديكتاتورية، فأصدر جريدة الجهاد، وأصبحت من أوسع الصحف اليومية انتشارًا، وانهالت الأرباح على توفيق دياب، واشترى أحدث مطبعة من ألمانيا، وانتقل من دار الجريدة المتواضع فى شارع ضريح سعد، إلى قصر كبير، فى شارع فؤاد الذى أصبح الآن شارع ٢٦ يوليو.. ولكن هذه الثروة المفاجئة لم تجعله يهدأ أو يهادن أو يضعف فى هجومه على خصوم الحياة النيابية، وقدمته النيابة فى عدة قضايا صحفية، لا يكاد يخرج من قضية حتى يدخل فى قضية أخرى، وقدمته الحكومة إلى محكمة الجنايات بتهمة إهانة الوزراء، فحكمت محكمة الجنايات ببراءته، وإذا بالحكومة تقدم نقضًا فى الحكم، وعرض الحكم على محكمة النقض برياسة عبد العزيز فهمى باشا، فأمر بنقض الحكم وسجن توفيق دياب ثلاثة شهور، ولما كان توفيق دياب محكومًا عليه قبل ذلك بالسجن ستة أشهر مع إيقاف التنفيذ بتهمة إهانة النواب، فقد ضم عبد العزيز فهمى باشا الحكمين معًا، فأصبح محكوما على توفيق دياب بتسعة أشهر مع النفاذ! وكان الحكم مع الشغل.. ووضع توفيق دياب فى سجن «قره ميدان» بالقلعة،

ونزعوا ملابسه، وألبسوه بدلة السجن الزرقاء، ونام على الأسفلت، بالرغم من مرضه وتقدمه فى السن، ومنع من قراءة الصحف، ووضعوه فى ورشة الترزية.. وهناك بدأ يتعلم الخياطة، واستطاع فى تلك المدة أن يصنع طاقية وكان فخورًا بها حتى أنه أخذها معه عند الإفراج عنه.

وفى أثناء سجن توفيق دياب حصل ولداه الطفلان كامل وصلاح على الشهادة الابتدائية وأراد محررو الجهاد أن يسعدوا الأب فى سجنه بنجاح ولديه، برغم الظروف العسيرة التى تمر بها الأسرة وأصروا أن يكون مانشيت الجريدة «نجاح نجلى صاحب الجهاد فى الشهادة الابتدائية»! وكانت هذه أول مرة فى التاريخ ينشر نبأ نجاح تلميذ فى الشهادة الابتدائية مانشيت بعرض الصفحة الأولى!

وأذكر فى أثناء سجن توفيق دياب أن دعت أم المصريين صفية زغلول السيدة قرينة توفيق دياب لتتغدى معها فى بيت الأمة.

وجلسنا نتناول الغداء. وكانت زوجة توفيق دياب تذكر زوجها كلما ذاقت طعامًا شهيًا وتتساءل ترى ماذا أكل توفيق دياب فى ذلك اليوم؟! وكان السجن يقدم لتوفيق دياب فى ذلك الوقت عدسًا فى الغداء وطعمية فى العشاء وفول مدمس فى الإفطار.

وجاء السفرجى يحمل طبق الحلوى واسمه «عيش السراية»

ويسمونه باللغة التركية «كميل قطايف». وهو عبارة عن قطائف محلاة بالقشدة، وأكلت زوجة توفيق دياب بشهية من طبق عيش السراية، ولاحظت صفية زغلول ذلك، فقالت لزوجة توفيق دياب: هل تحبين عيش السراية، قالت زوجة توفيق دياب: جدًا جدًا، فقالت صفية زغلول مازحة: تحبين عيش السراية قد إيه، فقالت زوجة توفيق دياب ببساطة: قد ما بحب توفيق بك!

وكان بين توفيق دياب وزوجته احترام متبادل دام أكثر من أربعين عامًا وكان يناديها دائمًا «ياحميدة هانم». وكانت هى تناديه «ياتوفيق بك».

ولزواج توفيق دياب من زوجته قصة غريبة، فقد كان طالبًا فى جامعة لندن، وفى أثناء إحدى المحاضرات رأى طالبًا يتكلم الإنجليزية بطلاقة وعرف أنه مصرى فتقدم إليه وتعرف به، وعرف أن اسمه كامل حسين، وبدأت بين الطالبين صداقة وطيدة، وذات يوم عرف توفيق دياب من صديقه أن له أختًا لم تتزوج بعد، وطلب توفيق دياب إليه أن يتزوجها دون أن يراها لقد أحب صديقه كامل حسين، وأعجب به وبأخلاقه، فقرر أن يتزوجها.. وقال كامل حسين: إنه لابد أن يسأل أخته أولاً، وقال لها: لى صديق اسمه توفيق دياب، وهو رجل غير عادى، إذا أراد الخروج من الغرفة وقرر أن يختصر الطريق إلى الشارع رفض أن ينزل من السلم، وقرر أن ينزل من الشباك. فإذا قبلت ذلك يمكنك أن تتزوجيه

قالت الأخت: أقبل!

وهكذا تم الزواج..

وعلى الرغم من أنه تعلم فى إنجلترا، وطاف أوربا، وعاشر المجتمعات الغربية، فإنه عاد إلى مصر وهو فلاح من الشرقية، وبقى فلاحًا فى أسرته طوال حياته، وانعكست أفكاره المحافظة فى معاملته لبناته، فقد جاء لهن بمدرسة تعلمهن الموسيقى، ومدرسة لتعلمهن الرقص، وأنشأ فى بيته بمصر الجديدة ملعب تنس، ولكنه لم يسمح لبناته بطلاء الأظافر، أو أن تقابله ابنته بفستان قصير، وكان إذا دخل بيته ورأى بناته ساكتات قال لهن: مالكن كالتماثيل، فإذا ضحكت إحدى البنات قال لها: إن البنت المؤدبة لا تضحك وإنما تبتسم فقط.. وأن الضحك من غير سبب قلة أدب!

ولم يوافق طول حياته على الاختلاط، وكان يشجع تعليم المرأة، وعندما حصلت بناته على شهادة الثانوية العامة رفض أن يدخلن الجامعة، حتى لا يختلطن مع الصبيان، وقد بذل جهدًا كبيرًا حتى تم إنشاء كلية البنات بالاتفاق مع الدكتور منصور فهمى الذى كان ضد اختلاط الجنسين!

وحدث أن أرادت زوجة توفيق دياب أن تبيع أرضها لشركة أجنبية، وجاء مندوب الشركة الأجنبى لتوقيع العقد، ولم تقابله زوجة توفيق دياب، بل جلست فى غرفة أخرى، وعند لحظة التوقيع دخلت الغرفة، ووقعت بإمضائها وخرجت على الفور،

وقال لها توفيق دياب بعد أن انصرف المندوب الأجنبى: إن هذا رجل أجنبى، وكان يجب أن تجلسى معه فى وجودى، وفى المرة الثانية جاء المندوب الأجنبى لتوقيع العقد النهائى، ودخلت زوجة توفيق دياب إلى الحجرة وصافحت الأجنبى، ثم وقعت بإمضائها وجلست وأشعلت سيجارة، وبقى توفيق دياب صامتاً فلم ينطق بكلمة واحدة، وكانت زوجته تشعر أنه يغلى لأنها سمعت كلامه وأطاعته!

* * *

وفى سنة ١٩٣٦ تولى النحاس باشا الحكم بعد أن حُرِمَ حزب الوفد من الحكم أكثر من ست سنوات، واعتقد أصدقاء توفيق دياب أن متاعبه قد انتهت، لا مصادرات، ولا تعطيل صحف، ولا سجون، ولا فقر، ولا إفلاس ولا خلاف مع الحكومة، فهذه هى حكومة حارب من أجلها وكافح سنوات طويلة مطالبًا بعودة الدستور..

وقدرت الحكومة موقفه، وانتخب عضوًا فى مجلس النواب، ثم عرضت عليه الحكومة أن يستقيل من البرلمان، وينعم عليه مجلس الوصاية برتبة الباشوية، لأن الدستور يمنع الإنعام على النواب برتب ونياشين.. وبعد ذلك بفترة يعود إلى البرلمان..

ورفض توفيق دياب أن يستقيل من البرلمان ليصبح توفيق باشا دياب، وأصر أن يبقى أفنديًا كما هو.. وبفضل توزيع الجهاد الضخم، أصبح توفيق دياب أغنى صحفى فى مصر.

وحدث أن حكمت المحكمة بتعيين النحاس باشا رئيس الوزراء ناظرًا لوقف البدراوى باشا، وغضب توفيق دياب أن يقبل رئيس الوزراء نظارة وقف إلى جانب منصبه الكبير وكتب مقالاً بعنوان «آن للسمعة الغالية أن تصان» وقال: إن حبه للنحاس يجعله يغار عليه من شبهة الخطأ، وإنه يجب أن يرفض زعيم الأمة نظارة الوقف.. وكانت هذه أول مرة يجرؤ صحفى وفدى على مهاجمة زعيم الأمة... وهوجم توفيق دياب بعنف، وقررت لجان الوفد مقاطعة جريدة الجهاد.. ولكنه بقى متمسكًا برأيه! وأعلنت الحكومة عليه الحرب، وأعلن الحزب عليه الحرب!

وانهار توزيع جريدة الجهاد، وتكاثرت عليه الديون.. وحاربته الحكومة بمنع الإعلانات عن جريدته..

وصدرت جريدة «المصرى» تنافسه، واضطر توفيق دياب أن يجعل الجهاد جريدة مسائية بدلاً من صدورها فى الصباح..

ومع ذلك استمرت الجهاد تتلقى الضربات، واضطر توفيق دياب أن يترك بيته، وأن يترك إدارة جريدته، وأن يبيع سيارته، وأن يبيع مطابعه التى كانت أحدث مطابع فى مصر، وهكذا أفلس أغنى صحفى فى مصر.

وفقد كل شىء إلا قطعة أرض بور..

ولم يفقد شجاعته وإيمانه وجرأته!

هذه قصة كاتب من أعظم كتاب مصر!

وتسلم ابنه الوحيد قطعة الأرض البور.. وأقام فيها، وقطع

كل صلة له بالدنيا، لا إجازة ولا عطلة ولا شباب ولا راحة بل عمل متواصل بالنهار والليل ، واستطاع الشاب خريج كلية الزراعة أن يحول الأرض الجرداء إلى حدائق غناء، بعد أن كانت ترابًا مقفرًا أصبحت تنتج الذهب... أصبح يصدر إلى أوربا التفاح والخوخ والفراولة... وإذا بالفاكهة المصرية تغزو أوربا لأول مرة وتراها فى محل من محلات هارودز فى إنجلترا فى الواجهة الزجاجية ملفوفة بالورق السلفان والورق المفضض والمذهب كأنه مجوهرات..

واستطاعت الأرض الجرداء أن تعوض على ابن توفيق دياب وبناته وأحفاده الثروة الكبيرة التى فقدها الأب فى الصحافة دفاعًا عن رأيه..

وأصبح الابن والبنات الثلاث شركاء فى الأرض الزراعية، ولم يحدث مرة واحدة أن سألت أخت أختها عن حسابها، وأنشأ الابن مشروعات أخرى كبيرة، وأدخل إخوته شركاء معه بغير أن تطلب واحدة منهن أن تشترك فى أى مشروع.

وكانت هذه الرابطة الأسرية القوية هى الكنز الذى تركه توفيق دياب لأولاده..

وكان فى الكنز ذهبًا!

عندما يحب أشهر عازب فى مصر

عندما كان فكرى أباظة يكتب فى العشرينيات مقالاً فى جريدة الأهرام، كان باعة الصحف ينادون على الجريدة صائحين «فكرى أباظة الأهرام!».. ذلك أن مقال فكرى أباظة الساخر الضاحك كان يبيع الجريدة أكثر مما يبيعها نبأ استقالة الوزارة!

ولم يكن فكرى فى ذلك الزمن يتقاضى مليماً واحداً من الأهرام ثمناً لمقاله الذى يرفع توزيع الأهرام ثلاثين أو أربعين ألف نسخة فى اليوم. كان كاتباً هاوياً، وكان محامياً شاباً فى الزقازيق يتردد على نادى المدينة وقد ارتدى البنطلون الأبيض الطويل والقميص الأبيض وفى يده مضرب التنس الذى لا يفارقه. ومن الغريب أن فكرى نال فى تلك الأيام كأس التنس فى مديرية الشرقية، مع أن المعروف أن نظره كان ضعيفاً جداً، وكان من الصعب أن يرى الكرة وهى فى طريقها إلى مضربه!

وكانت مدينة الزقازيق مليئة بالأجانب، ولم تكن السيدات المصريات مباحاً لهن الذهاب إلى النادى الرياضى، وكان مزدحماً بالسيدات والآنسات الأجنبيات، وعلى الرغم أن فكرى لم يكن يجيد أى لغة أجنبية إلا أنه استطاع بخفة دمه ورشاقة حركات يديه أن يكتسب قلوب كثيرات من الأجنبيات المترددات على

النادى.. وما لبثت أن امتدت شهرته إلى مدينة الزقازيق نفسها وأطلق عليه أصدقاؤه لقب «دون جوان الزقازيق»! ولم يكن فكرى أباظة زئر نساء بمعنى الكلمة، فقد كان نظره الضعيف يمنعه أن يفرق بين الطويلة والقصيرة أو بين الشقراء والسمراء، وكان فى تلك الأيام محظورًا على الرجال أن يقتربوا من مجالس النساء، فكان فكرى يحب من «بعيد لبعيد».. ولم تكن التليفونات منتشرة فكان فكرى يعبر عن حبه بخطابات ملتهبة تزداد اشتعالاً كلما ترجمت إلى لغة أجنبية!

ولم يكن لدى فكرى الوقت الكافى للتفرغ للحب فقد عشق الصحافة، واشتهر بالخطابات المفتوحة التى كان يرسلها إلى رؤساء الوزارات والوزراء والزعماء والمندوبين السامين، وكان فيها ما فى خطابات المحبين من لوم وعتاب وهجر ووداع وقبلات وصفعات!

وأصبح اسم فكرى على كل لسان، ثم جاءت الانتخابات وبحث لنفسه عن دائرة يرشح فيها نفسه لعضوية مجلس النواب فلم يجد دائرة واحدة خالية، ونشر إعلانًا فى الصحف هذا نصه:

«شاب فى مقتبل العمر، سنه فوق الثلاثين، متين العضلات، معتدل القوام، من أسرة طيبة، حسن السلوك، حامل لشهادة الليسانس، سبق له الاشتغال بالمحاماة فى أسيوط ومصر، ويحترفها الآن بالزقازيق، يرغب فى ترشيح نفسه للبرلمان، ولكنه لا يجد دائرة فهل عندكم دائرة!! عضو فى الحزب الوطنى، من

تلاميذ مصطفى وفريد، من طلاب الحقوق الكاملة، متيّم بمبدئه، متعصب لعقيدته، ولكنه لا يجد دائرة. قاوم مشروع ملنر، يوم كان الناس يعبدون مشروع ملنر، انتقد على ضعفه سعدًا على قوّته، وعدلى على عزته، وثروت على سطوته. وكان ولا يزال أجرأ مصرى على المندوب السامى البريطانى لورد أللنبى الجبار صاحب الحديد والنار، ورشح سعد زغلول ضده عمر مراد بك».

وتصور فكرى أنه سيكتسح مرشح سعد. مصر كلها تعترف بخفة دمه، وتتشوق لمقالاته وقفشاته ونكاته وسخريته ومقالاته الضاحكة!

وأرسل الوفد كبار أعضائه أمثال فتح الله بركات باشا وعلى الشمسى باشا ومكرم عبيد باشا إلى دائرة فكرى أباظة يحاولون إسقاطه، وفشلوا فى إقناع الناخبين. وهنا وقف القس مرقص سرجيوس وكان من أبطال ثورة ١٩١٩ وصاح فى الناخبين:

– كيف تنتخبون كشكش بك نائبًا عنكم! إن الناس تضحك من مقالات فكرى أباظة كما تضحك من روايات كشكش بك! كيف تقبل كرامتكم أن يمثلكم فى البرلمان نجيب الريحانى المشهور بكشكش بك!

وفى الحال انصرف الناخبون عن فكرى وأسقطوه وانتخبوا مرشح سعد زغلول!

ولم يدخل فكرى البرلمان إلا عندما ترك له سعد زغلول دائرة سنهوا بمحافظة الشرقية وطلب من جميع الأحزاب أن

لا تقدم أى مرشح لمنافسته، ودخل فكرى البرلمان وصال وجال، وهز رئيس الوزراء عدلى يكن وهاجم الوزراء وكان سعد زغلول رئيس مجلس النواب، فكان يسكت النواب الذين يقاطعونه، ويمنع النواب الذين يهاجمونه، ويحميه من محاولات بطش الأغلبية، ومعاكسة الأقلية.

وذات يوم وقف فكرى فى حفلة ذكرى محمد فريد، وأخذته الحماسة وطعن فى سعد زغلول وطعن فى الوفد المصرى وطعن فى البرلمان، فلما عقد المجلس جلسته الأولى بعد ذلك الخطاب أحس فكرى أن جميع النواب يتنمرون له، ويتآمرون عليه، ويعدون خطة لفصله من عضوية البرلمان لأنه اعتدى على كرامة البرلمان، وبدأ الخطباء يهاجمونه بشدة وقسوة وعنف والمجلس يؤيدهم والأغلبية تناصرهم، والوزراء يصفقون لهم، ولكن سعد زغلول فاجأ النواب بقوله:

– إن الكلام الذى قاله النائب المحترم إنما قاله خارج المجلس، فمن أراد أن يرد عليه، فليرد عليه خارج المجلس، وأنا لا أسمح بهذه الحملة على حضرة النائب المحترم!..

واستطاع الزعيم سعد أن ينقذ فكرى أباظة من هذا الكمين المدبَّر، ولم يخطر ببال فكرى أن الرجل الذى هاجمه بأقسى الكلمات هو الرجل الذى يمد يده لينقذه من الغرق. وقد اعترف فكرى أن سعدًا أسره بهذا الجميل الذى لم يكن يتوقعه منه، وذهب فكرى إليه فى مكتبه وقال له: جئت أشكرك! قال سعد:

لماذا؟ قال فكرى: لأنك دافعت عنى! قال سعد: أنا لم أدافع عنك إننى كنت أدافع عن حرية الرأى. قال فكرى: ولكنى شتمتك! قال سعد: لا يهمنى أن تشتمنى ما دمت كنت تدافع عن استقلال بلادى. أنت تريد أن تكون سوَّاق زعماء تلهب ظهورنا لتدفع بالعربة إلى حيث تريد! أنت مجنون! نحن لسنا فى حاجة إلى كرابيج تلهبنا، ضمائرنا هى كرابيجنا! قال فكرى: إن لم يركب أمثالنا من الناشئين على أكتافك، ويشتهروا بأنهم يتجرأون عليك، ويطعنون فيك، فمتى نظهر ومتى نشتهر؟!

فقام سعد وقبَّل فكرى أباظة وقال له: أرحتنى الآن.. إذهب واشتمنى كما تشاء!

* * *

وفى عام ١٩٤٩ كان حسين سرى باشا يؤلف وزارته الأخيرة واختار وزيرين عن الحزب الوطنى، كان بينهما فكرى أباظة، وكانا زميليه فى المدرسة السعيدية الثانوية بالجيزة، وذهب حسين سرى باشا يعرض على الملك فاروق فى نادى السيارات بالإسكندرية، أسماء الوزراء الجدد ووافق عليهم واحدًا واحدًا حتى نطق حسين سرى باشا اسم فكرى أباظة فقال له الملك فاروق:

– لا.. لا.. ده واد لعين! ده بتاع نسوان!

وتساءل حسين سرى قائلاً:

– أنا أعرف فكرى أباظة جيدًا ولا أعرف أنه بتاع نسوان!

قال الملكُ: بل هو زئر نساء، وهو يكتب فى مقالاته فى جريدة المصور يعترف أنه زئر نساء. ويقول إن له فى كل بلد صديقة!

واضطر حسين سرى باشا أن يشطب اسم فكرى أباظة من كشف الوزراء ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى رشح فيها فكرى لدخول الوزارة.

ففى سنة ١٩٢٨ ألف محمد محمود باشا وزارته الأولى، وترك فيها مقعدًا خاليًا، كان يريد أن يسنده إلى حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى. ولم يكن حافظ باشا فى مصر، بل كان فى باريس واتصل به محمد محمود باشا فى فندق كلاريدج بباريس وعرض عليه المنصب الوزارى، فاعتذر رئيس الحزب الوطنى عن قبول الوزارة واقترح اسم فكرى أباظة، فوافق محمد محمود مرحبًا. وكان فكرى فى باريس فاستدعاه رئيس الحزب وعرض عليه الوزارة فرفض فكرى.

وفى المرة الثانية عندما ألف الدكتور أحمد ماهر وزارته سنة ١٩٤٤ فأرسل له رسولاً وعرض عليه دخول الوزارة، وقال فكرى أباظة: أقبل بشرط أن يضاف إلى برنامج الوزارة سطران وهما عدم المفاوضة والجلاء بدون قيد ولا شرط.

وقال أحمد ماهر: كيف ذلك ومهمة الوزارة هى مفاوضة الإنجليز للجلاء عن بلادنا ولم يحدث أن جلا محتل عن بلد احتله بغير مفاوضات.

وكان فكرى يضحك وهو يروى هذه القصص ويسمى نفسه

«الوزير السابق!».

وكنت أسأل فكرى أباظة دائمًا لماذا لم يتزوج؟ وبقيت أوجه له هذا السؤال حتى بلغ الثمانين من العمر!

وكان يقول لى: هات لى العروس التى تتوفر فيها شروطى وأنا أتزوجها بعد ٢٤ ساعة!

أولاً: أريد امرأة تشجعنى على الصمود، لا تدفعنى إلى الاستسلام، تفخر بى أننى فى السجن أكثر مما تفخر بى أننى فى مقعد الوزارة. ترضى أن تعيش معى شريفًا فى كوخ بسيط، على أن تعيش معى لصًا فى قصر كبير. أريدها امرأة زاهدة، لا تطلب منى أن أقبِّل الأيادى لأصبح وزيرًا، ولا أمسح الجوخ لتصبح زوجة أحد عظماء الدولة!

ثانيًا: أريد زوجة مقطوعة من شجرة ليس لها أم تغضب عندها، وليس لها أب تهددنى به، وليس لها أخوات تطالبنى أن أبحث لهن عن أزواج يليقون بمقامنا السامى. وليس لها أشقاء تلح علىّ أن أحفى قدمى لمنحهم ترقيات وعلاوات واستثناءات.

ثالثًا: أريد زوجة ضاحكة باسمة فأنا أكره العبوس والتكشير والتبويز، على أن أحتفظ بحقى فى العبوس والتكشير والتبويز، فأنا الرجل الذى أحمل على كتفى المسئوليات والهموم والأعباء ومن حقى أن أنفخ كما أشاء!

رابعًا: أريد أن يكون لى وحدى حق السفر إلى الخارج، فأنا أعشق السفر وحدى دون شريك أو رفيق أو حارس قضائى.

ويكفى أن أحمل على ظهرى حقائبى ولا أريد حقيبة أخرى!

خامسًا: أريد زوجة جميلة أفتح عينى على وجهها فى الصباح «فتنفتح نفسى» وأغمض عينى على وجهها الصبوح فى الليل فأستغرق فى أحلام حلوة! لا أريد زوجة كئيبة لا أكاد أراها فى الصباح حتى أقول: «أعوذ بالله»، ولا أكاد أرى وجهها الذى يشبه العفريت فى الليل حتى أصرخ: «بسم الله الرحمن الرحيم»!

سادسًا: أريد أن تكون زوجتى «المرهم» الذى يضمد جراحى، لا الخنجر الذى يطعننى. أريد أن تكون برشامتى، لا أن تكون صداعى.

سابعًا: أريد أن تكون زوجتى سكرتيرتى الخاصة فى بيتى، لا فاضحة أسرارى، وأن تغطى أخطائى لا أن تقوم بمهمة البوليس السرى والمباحث والمخابرات فى بيتى.

ثامنًا: أريد أن تكون عاقلة وأكون أنا المجنون. تكون هادئة وأنا العصبى. إذا تكلمتُ سكتتْ، وإذا غضبتُ ابتسمتْ، وإذا ثرتُ ضحكتْ، وإذا تأخرتُ عن عودتى إلى البيت لا تنقلب إلى نائب عام، تفتح معى محضر سين وجيم وتسألنى أين كنت من الساعة الثامنة مساء إلا خمس دقائق إلى الساعة الثامنة مساء وخمس دقائق؟ ولا تقيس المسافة بين مكتبى ومنزلى بالسانتى متر والمللى متر لتعرف كم دقيقة تأخرت، وهل كانت الدقيقة ونصف التى تأخرتها كافية لارتكاب الخيانة الزوجية!

تاسعًا: أن تكون زوجتى ملهمتى تكون أول من يقرأ ما

أكتب، وتصارحني بملاحظاتها وانتقاداتها، فالكاتب يجد الإعجاب في كل مكان، ولكن لا يجد النقد المخلص في أي مكان.

عاشرًا: أن تكون زوجتي شجاعة كصفية زغلول، ووقورة كهدى شعراوي، وست بيت كأمي وخفيفة الدم كأم كلثوم!

وحاول فكري أباظة طول عمره أن يجد امرأة تتوفر فيها هذه الشروط العشرة فلم يوفق، ولم ييأس أبدًا، كان دائمًا يحاول ودائمًا يفشل.

وكان أصدقاؤه وخلانه يعاكسونه ويداعبونه ويقولون له إنه فات سن الحب، وأن الشيب حوَّل قلبه إلى جثة هامدة، وكان يسميهم «الغجر».. لأنهم يدفنون قلبه وهو على قيد الحياة!

وذات يوم نظم قصيدة يهاجم فيها الغجر من أصدقائه قال فيها:

قالوا لي بتحب.. قلت ياحب عقبالكم!
الحب مش عيب.. وانتو يا غجر مالكم؟
قالوا لي كبرت.. فال الله ولا فالكم!
ده أنا اللي بأرثي لكم.. وابكي على حالكم!
باحب أي والله.. وانتو يا غجر مالكم!
السطب بيقول لكم.. باطني وروحاني
القلب يا خلق شيء.. والعمر شيء تاني!
فيه قلب شايب عجوز.. في جسم صبياني.
وقلب كله شباب.. ساكن جسد فاني!

بـاحب أيوه بحب.. وانتـو يـا غجـر مـالكم!
أنـا خـبـير القـلوب.. ولا فيش خـبـير تـانى
فيـه قلب تـلقـاه رطـب.. والـتـانى حيـانى
وقـلب زى المـلاك.. والـتـانى شـيـطانى!
وقـلب زى الـدهـب.. وقـلب بـرانى!
بـاحب أيوه بحب.. وانتـو يـا غجـر مـالكم!
يـا الـلى ادعيتـو الهـوى.. ليه تنسـوا فـارسكم
وأنـا عـاجـنـكم، وخـابـزكم، ودارسـكم
وأنـا الـلى من الحب... كـايـدكم وفـارسكم
مـا خـدتهـوش من الكتب ولا من مـدارسكم
بـاحب أيوه بحب.. وانتـو يـا غجـر مـالكم!

والطريف أن أصدقاء فكرى أعجبوا بهذا النشيد الطريف والحنوه وغنوه، وكانوا ينشدونه كلما أقبل فكرى أباظة على النادى الأهلى، وكانوا يسمون هذا النشيد «النشيد القومى لفكرى أباظة»!

وحياة فكرى كلها حب وعشق وهوى وغرام وهجر وصد وخصام ووئام!

وكتب ذات يوم يصف بوهيميته ويقول: «لا أدرك تمامًا ماذا يرى «غير البوهيميين» فى البوهيمية؟ ماذا يرى أرباب الأسر، وأرباب الأولاد والعيال، وأرباب النسل والحرث والمسئوليات، فينا نحن البوهيميين الأنانيين، الطوافين حول

الأرض، المحرومين من نعمة الخلف، ونعمة المزارع والعمارات والأسهم والسندات، ونعمة الحكم والسلطان والصولجان؟

لا أدرى تمامًا رأى هؤلاء فينا، نحن الذين نهيم على وجوهنا حين نشاء، ولا نحسب إلّا حساب حقيبتنا حين نشاء، ولا نحاسب «الحظ» إذا أحسن أو أساء!!

نحن البوهيميين فهمنا الدنيا قبل أن يفهمها غيرنا، وأدركنا زورها وغرورها وشرورها قبل أن يدركها غيرنا، فأصابنا داء البوهيمية وما هو إلّا فلسفة!».

وروى فكرى قصة حبه الأول الفاشل مع فتاة فى مدينة أسيوط اسمها ثروت. وقد عشقها وهو فى ريعان الشباب. وكانت فتاة رائعة الجمال، وعاش فكرى طول حياته يتغنى بجمالها ويصف ملاحتها. وفوجىء فكرى بوفاتها فجأة فاسودت الدنيا فى وجهه، وبكاها ورثاها بالدم والدموع. وذات يوم كان يمشى فى حديقة نادى أسيوط فرأى فتاة شابة تشبه حبيبته ثروت شبهًا عجيبًا طولاً وقوامًا ولون شعرها ولون عينيها، وتسمرت قدماه فى الأرض وتصور أن حبيبته ثروت بعثت من القبر. واقترب منها وخلع نظارته ومسحها بمنديله وعاد يحملق فيها، واعتقد أنها توأم ثروت، ثم عرف أن هذه الفتاة الجديدة لا علاقة ولا قرابة بينها وبين حبيبته القديمة، ومضى يتتبع خطواتها، ويتعرف إلى أفراد أسرتها حتى عرفها وقال لها: «إننى أحبك» وتصور أنها سترفع يدها

وتصفعه على وجهه، فقد كان الحب من ستين سنة جريمة تستحق الذبح! وعاش فكرى هذا الحلم السعيد شهورًا هى أسعد أيام حياته وخاصة أنها اعترفت له أنها أحبته هى الأخرى ساعة أن وقف أمامها فى نادى أسيوط وقد تسمّرت قدماه من الدهشة. وفوجىء بها تنتحر، رمت نفسها تحت قطار السكة الحديدية فدهستها عجلات القطار. وحاول فكرى أن يعرف سبب انتحارها فلم يعرف حتى آخر يوم من أيام حياته. هل رفض أهلها أن يزوجوها من فكرى أباظة الشاب المبتدئ؟ هل كانت مخطوبة لابن عمها وتمسكت به الأسرة؟ هل شعرت أن زواجها بفكرى لن ينجح، وأنها أرادت أن تكون علاقة بريئة، ولما اكتشفت أن فكرى يحبها حبًا مجنونًا عجزت عن مجاراته فانتحرت؟ هذا هو سر لم يعرفه فكرى ولم يعرفه أحد من الذين كانوا أقرب الناس إليه.

وقامت ثورة ١٩١٩ وانضم إليها، وألف فى أسيوط نشيدًا ثوريًا كان يردده المتظاهرون وهم يهاجمون الجيش البريطانى، وحكمت عليه المحكمة العسكرية بالإعدام، وهرب واختفى فى أحد الحقول، وتردد أن الإنجليز قتلوه، وجهل أقاربه فى الزقازيق مصيره، وتعرف بضابط بوليس مصرى فأعطاه هذا الخطاب إلى أمه، وكان يعتز بهذا الخطاب كثيرًا ويحمله فى محفظة نقوده وهذا نصه:

سيدتى الوالدة:

أقبّل يديك، وأدعو لك بالصحة والعافية. كما أرجو ألّا

تحرمينى من دعواتك الصالحات لى بالسلامة والنجاة. فأنا فى أشد الحاجة إلى هذه الدعوات الصالحات.

أرسلت لك هذا الخطاب سرًا مع أحد إخوانى الضباط وكذلك لوالدى، احتل الإنجليز البلد - أسيوط - وأخمدوا الثورة، وبدأوا عمليات الانتقام. ولكن لا تخافى علىّ بعد أن ألقيت نشيدى فى كنيسة الأقباط وأشعلت نار الثورة. لم يستطيعوا القبض علىّ. أنا حى أرزق بحمد الله، وسأعود لكم بالسلامة قريبًا، عندما تسمح وسائل السفر، دائمًا أتذكر نصيحتك «خليها على الله» وقد أديت واجبى لبلادى فلا بد أن الله سبحانه وتعالى سيكتب لى السلامة والجزاء الحسن.

و «الفرانيش» التى حدثتنى بها و «دقة السمسم» نفعتنى جدًا جدًا. كما إنى أعمل بأوامرك ولم أجر مشتريات «شكك» و «على الحساب»، وصلنى مبلغ كويس من أخى فؤاد أباظة عن طريق بور سودان. سأحضر لك معى إن شاء الله طرحة أسيوطى.. إن عادت قطارات السكة الحديد المقطوعة لسيرها الطبيعى. لم تصلنى أخباركم بسبب الثورة المباركة، وإن شاء الله نلتقى جميعًا على خير، اطمئنى فكل شىء بإرادة الله، والمهم أن تنجح الثورة، وأن يكون أولادك من أبطالها ورجالها المبرزين، لا تكتبوا لى مطلقًا حتى لا يعرف الإنجليز أننى لا أزال فى أسيوط، وسأكتب لكم أنا. قبلاتى الحارة يا والدتى العزيزة. وإلى اللقاء قريبًا إن شاء الله.

ولدك المخلص

فكرى أباظه

١٢ زوجة

قال لى فكرى أنه قرر الزواج ١٢ مرة، وعَدَل عن الزواج ١٢ مرة، فى المرة الأولى أعجبته العروس وأعجب بها، وتحدث معها وتحدثت معه، واكتشف أنها متفقان فى المشارب والآراء، وفجأة جاءت سيدة كبيرة من الأسرة الأباظية وقالت إن هذا الزواج يجب أن يلغى فورًا! لماذا؟ لأن فكرى أباظة رضع من ثدى واحد مع العروس، فأصبح الاثنان أخوين، وهذا يمنع الزواج ويحرمه تحريمًا تامًا، واضطر فكرى إلى إلغاء الخطبة وقال لى إن أحدًا من الأسرة لا يذكر أن هذا حدث تمامًا والسيدة العجوز كانت «خرفت» ولكن أحدًا لم يجرؤ أن يقول إنها خرفت!..

وفى المرة الثانية فسخ فكرى أباظة الخطبة لأسباب سياسية، فقد اكتشف أن العروس متحمسة حماسًا شديدًا للزعيم سعد زغلول ولا تعترف بالحزب الوطنى ولا برئيسه حافظ رمضان، وحاول فكرى أن يقنعها بعظمة حافظ رمضان، فلم تقتنع وأصرت أن تسمى ولدها الأول سعدًا وبنتها الأولى صفية.. ورفضت بإباء وشمم أن تسمى حتى ولدها العاشر «حافظ رمضان»...! واغتاظ فكرى من العروس ذات الرأس الناشف وفسخ الخطبة.

وفى المرة الثالثة رفضته العروس لأنه يلبس نظارات على عينيه، وهى تريد عينين فيهما سحر هاروت وماروت!

وفى المرة الرابعة تم الاتفاق على كل شىء. الشبكة والمهر والفرح وتحدد موعد عقد القران. وقبل أن يكتب المأذون العقد قالت الأم:

- عندنا شرط وهو أن تقيم العروس فى القاهرة.

قال فكرى: لكنى يا ستى أقيم فى الزقازيق ومكتبى فى الزقازيق.

قالت: انقل مكتبك!

قال فكرى: مستحيل!

قالت أم العروس: ومستحيل أفارق بنتى وأسيبها تتزوج فى الغربة! الزقازيق؟ أنا أرفض أن تسكن بنتى فى الجيزة!

واضطر فكرى إلى الانسحاب بينما المأذون يستعد ليعقد العقد!

وتكررت المحاولات سبع مرات، وتكرر الفشل سبع مرات! واحدة كتب إليها يعرض الزواج فكان الرد أن أرسلت له بطاقة دعوة لحضور زفافها من رجل آخر. وواحدة اكتشفت أنه فلاح وكانت بنت ذوات. كانا يجلسان معًا على بلاج شاطئ بولكلى فى الإسكندرية فاكتشفت فى كعب قدمه وشمًا أخضر! وصرخت بنت الذوات مذعورة: فلاح! فلاح!..

وحاول فكرى أن يقنعها أن هذا الوشم الأخضر رسمته أمه

ليحميه من الموت! ولكن بنت الذوات أبت أن تنام فى فراش واحد مع رجل يدق وشماً أخضر على قدمه! وقال لى فكرى: إنـه كان بـين أمرين· إما أن يقطع قـدمه أو يقـطع رقبتها.. وفضل أن يقطع رقبتها ويلغى مشروع الزواج.

وكانت مصيبته الكبرى عندما أحب فتاة صغيرة السن. وكـان يكتب لها خـطابات غـرامية تلتهب شـوقـا وحبا، ثم اكتشف أن الفتاة الصغيرة تحب شابا صغيراً وتنقل لـه نفس خـطابات فكـرى أباظـة على أنها خـطاباتها! وكـان الشـاب الصغير عضواً فى النادى الأهلى مع فكرى أباظة، وكـان يطلع الأعضاء الشباب على خطابات جولييت. وانقـطعت خطابـات فكرى فانقطعت خطابات جولييت الصغيرة!

وبعد ذلك سافر فكرى أباظة إلى رأس البر فى صيف عام ١٩٢٩ ورأى فتـاة يونـانيـة فهـام بهـا حبًـا وغـرامًـا، وكـان لا يفترق عنها. وقرر أن يتزوج بهـا. وسمع محـافظ دمياط - وكان رجلاً وطنيًـا متحمسًا - بهـذا المشروع وقـال: إن معناه أن تكسب اليـونان فكـرى أبـاظـة وتخسـره مصـر. وحـاول المحافظ أن يمنع هذا الزواج المختلط بأى ثمن. وجند أصدقاء فكـرى لكى يحاصـروه ويمنعوا هـذه المصيبة. فكـرى يـطالب بإنهاء الاحتلال الإنجليـزى، ويجىء باحتـلال يونـانى! وأخيراً خطر ببال المحافظ أن يقيم عشاء فى عشته برأس البر، ودعا فكرى وبعض أصدقائه ودعا المطربة المعروفـة فاطمـة سرى. وأجلس فكرى بجوار المـطربة. ومـا انتهى العشاء حتى كـان

فكرى قد عشق فاطمة سرى، فقد جذبته بسحرها وجمالها وخفة دمها وذكائها وسرعة خاطرها.

وقيل لفكرى: إحذر من هذه المغامرة. إن أحد كبار الماليين يعشق فاطمة سرى، ويغدق عليها الأموال الطائلة. فأين أنت يا صعلوك بين الملوك! وأصر فكرى المفلس أن ينافس الثرى الكبير. وكان صراعًا طويلا تقدم فيه فكرى وتقهقر، وانهزم، وفى نهاية الأمر انتصر الحب على الثروة، وانتصر الدم الخفيف على هدايا المجوهرات التى لا تقدر بثمن.. وقام فكرى أباظة بدور ضخم فى القضية التى رفعتها فاطمة سرى لإثبات بنوة ابنتها من المليونير محمد شعراوى.

وما كاد فكرى يحمد الله على خلاصه من منافسه الخطير، حتى فوجئ بمنافس أخطر، وقد كان أحد كبار الوزراء فى وزارة اسماعيل صدقى باشا. وكان صاحب نفوذ وسلطان وهيل وهيلمان! وكان فكرى محاميا شابا وصحفيا شابا لا حول له ولا قوة، واستمرت المعركة بين سلطان الحكم وسلطان القلم، بين نفوذ الدولة ونفوذ صاحبة الجلالة الصحافة.

وفى أثناء احتدام هذه المعركة دعت فاطمة سرى الممثلة الكبيرة زينب صدقى لتناول الغداء على مائدتها، ودعت الوزير الخطير ودعت فكرى أباظة.

فى أثناء الغداء هزأت زينب صدقى بالوزير الخطير،

وراحت تغمره بنكاتها وقفشاتها. وزينب من أخف نساء العالم دمًا، وقد عاشت المجلات المسرحية سنوات على قفشاتها ونوادرها.

وفجأة أصبح الوزير الخطير أضحوكة.. ودمعت عينا فكرى من شدة الضحك.. وفى تلك اللحظات ولد الحب فى قلب فكرى أباظة، ودق قلب زينب صدقى.

وبدأت قصة حب طويلة استمرت عدة سنوات. كانت زينب هى الجاسوسة الحسناء التى تجىء لفكرى بأسرار وأخبار ما يجرى فى السياسة المصرية.

وكانت هى الوحى والإلهام للمحاضرات الضاحكة التى كان يلقيها فكرى أباظة فى إذاعة القاهرة، فكانت تنشر المرح بين الناس..

وأصبح المصريون يقولون: إن الأزواج لا يعودون إلى بيوتهم إلا مرتين فى الأسبوع.. مرة ليسمعوا أم كلثوم ومرة ليسمعوا فكرى أباظة أشهر عازب فى مصر!!

* * *

ومات فكرى أباظة وهو يغنى:

قالوا لى بتحب ؟... قلت باحب عقبالكم !
الحب موش عيب !... وانتو يا غجر مالكم !

التابعى

شيعت جنازة الزعيم مصطفى كامل فى عام ١٩٠٨، كان يسير فى مقدمة الجنازة أصغر تلميذين فى المدرسة السعيدية الثانوية فى الجيزة، كانا يحملان باقتين كبيرتين من الأزهار.

الطالب فى السنة الأولى الثانوية فى تلك الأيام كان لا يقل عمره عن ١٤ سنة.

كان التلميذان الصغيران هما.. محمد التابعى وفكرى أباظة.

وكانت الصورة التى التقطت فى الجنازة تحدد يوم ميلادهما الحقيقى، ولكن الكاتبين الكبيرين عاشا طول حياتهما ينكران سنهما الحقيقى، وبلغ الأمر بالأستاذ التابعى أن حصل على جواز سفر جديد فى الأربعينيات أنقص به عمره عشر سنوات وكان فكرى أباظة إذا ووجه بصورته وهو يشيع جنازة مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ ادعى أنها صورته وهو يشيع جنازة الزعيم سعد زغلول!

وقد مات سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ وكان فكرى أباظة يومها نائبًا فى مجلس النواب منذ عامين، وكان عمر النائب، كما ينص الدستور فى ذلك اليوم، يجب أن يزيد عن ثلاثين عاما على الأقل!

وهكذا لا يجوز أن نتهم المرأة وحدها بأنها هى التى تحاول إخفاء عمرها الحقيقى!

وعلى هذا الأساس يكون الكاتب الساخر الكبير محمد التابعى قد ولد فى عام ١٨٩٤ وهو الأمر الذى كان ينكره التابعى طول حياته!

كان التابعى أحد ملوك الصحافة فى مصر، عاش حياته بالطول والعرض، ذاق الفقر والحرمان واستمتع بحياة أصحاب الملايين، عشق الراقصات والأميرات، نام على مقعد فى «بدروم» عمارة الشاعر أحمد شوقى بشارع «جلال» حيث كانت إدارة مجلة روزاليوسف فى أيامها الأولى، ونام فى الجناح الملكى بفندق «جورج سانك» بباريس، كان يركب «بسكليت» ويتنقل بهذه الدراجة من إدارة المجلة إلى المطبعة، وامتلك السيارات من أحدث طراز فى زمن كانت السيارات وقفا على الباشوات وأصحاب الملايين!

عرف الجوع، وكان طعام عشائه فى بعض الليالى هو «سميطة» وبيضة ثمنها فى تلك الأيام خمسة مليمات، ثم بعد سنوات قليلة أصبح يقيم فى بيته مآدب ملكية يحضرها الوزراء والعظماء، وتغنى فيها «أم كلثوم» أو «أسمهان» أو «ليلى مراد».

لم يحدث فى تاريخ الصحافة المصرية أن عاش صحفى فى المستوى الملكى الذى عاش فيه التابعى، أذكر أننى سافرت معه مرة إلى باريس وصحبنى إلى فندق «البرنس دوجال» وسأل عن

الجناح الملكى فقيل له إنه محجوز، فرفض أن ينزل فى جناح آخر، وصحبنى إلى فندق «جورج الخامس» المجاور، وسأل موظف الاستقبال عن الجناح الملكى فأجاب الموظف: إن صاحب السمو الملكى الأمير «امبرتو» ولى عهد إيطاليا يقيم فيه، وأصر التابعى أن نحمل حقائبنا ونذهب إلى فندق ثالث ورابع وخامس وسادس.. وكان الفندق السابع هو فندق «ماجستيك» ووجدنا الجناح الملكى خاليًا وعندئذ خرجنا وأحضرنا حقائبنا من سيارة التاكسى التى داخت معنا!

وبعد ذلك أراد التابعى أن يسافر إلى «سان موريتز»، وأصر أن ينزل كذلك فى الجناح الملكى الذى كان ينزل فيه الملك «فاروق»!

ومع أن التابعى كان لا يعرف كيف يتزحلق على الجليد فقد أصر أن يشترى الملابس الخاصة بهذه اللعبة، وأن يرتديها شأن أبطال هذه اللعبة.

وكان كل أصدقاء التابعى فى هذه الرحلة من الأمراء والأميرات والدوقات والكنتيسات، وكان التابعى يجد متعة غريبة إذا جلس معهم فى مقهى أو فى مشرب أن يدفع هو الحساب! وكان يجد متعة أن ينافس البارون «روتشيلد» على غرام حسناء.

ولم يخطر ببال أحد من هؤلاء الأميرات والكونتيسات أن التابعى استدان مصاريف هذه الرحلة قبل سفره من الخواجا «ساسون» تاجر الورق المشهور فى تلك الأيام! ولم يكن

«الدين» فى نظر التابعى ذلا فى الليل وهما فى النهار، بل كان شامبانيا فى الليل وكافيارا فى النهار!

كان شخصية غريبة.. طرد من مدرسة الحقوق، وعمل موظفًا صغيرًا بمصلحة التموين أثناء الحرب العالمية الأولى بستة جنيهات فى الشهر، كان ينفق خمسة جنيهات منها فى اليوم الأول، ويعيش التسعة والعشرين يومًا الباقية على جنيه واحد، بواقع ثلاثة قروش فى اليوم، قرش فى الإفطار وقرش فى الغداء وقرش فى العشاء.. وتبقى عشرة قروش يدخل بها إلى دارين من دور السينما، ويحصل على مقعد «لوج» بأربعة قروش ويدفع فى كل مرة قرش صاغ بقشيشًا لعامل السينما!

واستطاع وهو موظف أن يستذكر دروس مدرسة الحقوق، ويدخل امتحان الليسانس من الخارج، ويكون ترتيبه الأول بين الناجحين.

وكان يقرأ كثيرًا باللغة الإنجليزية، واستطاع أن يجيد الكتابة بهذه اللغة، وتقدم بطلب وظيفة فى جريدة «الاجيبشيان جازيت» التى كانت تصدر باللغة الإنجليزية فى مدينة القاهرة، وأعجب به مستر «أوفاريل» رئيس التحرير فاختاره ناقدًا فنيًّا للجريدة باللغة الإنجليزية بثلاثة جنيهات فى الشهر! وفرح الشاب بالمبلغ التافه وكأن ثروة هائلة هبطت عليه من السماء.

وهكذا ارتفع ايراد التابعى إلى تسعة جنيهات فى الشهر.. وشعر التابعى أن هذا المبلغ الصغير نقله من طبقة الفقراء إلى

طبقة كبار الأثرياء! وأحب على الفور إحدى راقصات الأوبرا الأجنبيات ودعاها للعشاء معه فى فندق «شبرد» أكبر فنادق المدينة فى تلك الأيام، وفتح لها زجاجتى «شامبانيا»، وأعطى الجرسون جنيهين بقشيشاً.. وبهرت الراقصة بالشاب المليونير، ولم تعرف أنه فى تلك الليلة عاد إلى بيته مشيا على القدمين لأنه لم يبق من مرتبه ستة مليمات يدفعها ثمناً لتذكرة الترام إلى غرفته الصغيرة!

وكان هذا أول حب كبير فى حياة الكاتب الكبير.

وأنقذ الموقف افتتاح البرلمان المصرى سنة ١٩٢٤، وأعلنت سكرتارية مجلس النواب عن حاجتها لمترجم من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية بمرتب ١٢ جنيهًا فى الشهر.

وحددت موعدًا للامتحان.. وتقدم التابعى وتقدم معه حاملو درجات علمية من جامعتى «اكسفورد» و«كامبردج» فى انجلترا.. وإذا بالتابعى يصبح أول الناجحين، وعين على الفور فى الوظيفة المطلوبة..

ولم يكتف بالوظيفة بل خطر بباله أن يصبح ناقدًا مسرحيًّا لجريدة الأهرام وكتب ينقد إحدى المسرحيات وذهب بها إلى «داود بركات» رئيس تحرير «الأهرام» وفوجئ فى صباح اليوم التالى بمقاله ينشر فى الصفحة الأولى، وكانت هذه أول مرة فى تاريخ الصحافة المصرية أن ينشر مقال نقد مسرحى فى الصفحة الأولى!

ولم يجرؤ التابعى أن يوقع المقال باسمه الصريح خشية أن يرفت من وظيفته فى مجلس النواب، إذ لا يليق بالبرلمان الوقور أن يكون أحد موظفيه ناقدًا مسرحيًا ينقد الروايات الكوميدية والدرامية! ولهذا وقع المقال باسم «حندس» وهو الاسم الذى كان يدلله به أصدقاؤه وزملاؤه.

وأصبح «حندس» فى يوم وليلة ناقدًا مشهورًا، وأطلق عليه الفنان «يوسف وهبى»: «الكاتب الذى يسقينى السم فى برشامة».

وكان التابعى معجبا بتمثيل السيدة «روزاليوسف» الممثلة الأولى فى روايات يوسف وهبى على مسرح رمسيس، كان يثنى على «روز» فى كل مقال ويسخر من يوسف وهبى فى كل نقد.. وهكذا بدأت الصداقة الوطيدة بين «روزاليوسف» و «التابعى».

وعندما أصدرت «روزاليوسف» مجلتها فى عام ١٩٢٥ عرضت على «التابعى» أن يعمل معها فتردد وقال إنه لا يصلح إلا للكتابة فى الصحف اليومية! وعندما عرف أن زملاءه فى الكتابة فى المجلة هم «عباس محمود العقاد» و «ابراهيم عبد القادر المازنى» و «محمد لطفى جمعة» و «ابراهيم رمزى» ذعر وأصر على أن لا مكان له بين هؤلاء العمالقة!

وبعد إلحاح قبل أن يكتب صفحة مسرحية واحدة!

وصدرت المجلة وفشلت.. وهوى توزيعها.

وبعد أسابيع قليلة تخلص التابعى من «العقاد» و «المازنى»

و «لطفى جمعة» و «ابراهيم رمزى» وأصبح يكتب المجلة من الغلاف إلى الغلاف!

وارتفع توزيع المجلة، وأصبحت مجلة خفيفة الدم، واستطاعت أن تشق طريقها بين المجلات الأسبوعية فى البلاد!

وأصبح التابعى رئيس التحرير الحقيقى، ولكنه لم يجرؤ أن يعلن اسمه فى المجلة حتى لا يفقد وظيفته فى مجلس النواب، واتفقت السيدة «روزاليوسف» مع صديق لها يعمل كاتب حسابات فى جريدة «البلاغ» أن يكون رئيس التحرير الصورى للمجلة، ويختفى خلفه «التابعى».

وعاش «التابعى» مجهولا مغمورا ثلاث سنوات بينما كانت مقالاته الساخرة متعة القراء.

وذات يوم كتب التابعى سلسلة مقالات عن حياة ملوك وملكات أوربا السابقين، واحتجت المفوضيات الأوربية لأنها اعتبرت هذه المقالات تشهيرًا بحياة ملوكهم الخاصة.

وقبضت النيابة على «إبراهيم خليل» رئيس التحرير المسئول وإذا برئيس التحرير يقول أمام النائب العام إنه «طرطور» وإن رئيس التحرير الحقيقى هو محمد التابعى..!!.

وقبضت النيابة على «محمد التابعى»، وقدمته هو ورئيس التحرير إلى محكمة الجنايات فحكمت عليهما المحكمة بالسجن ستة أشهر مع إيقاف التنفيذ!

وعندما صدر الحكم استدعاه فؤاد كمال بك سكرتير عام

مجلس النواب واستجوبه.. كيف وهو موظف يعمل فى الصحافة؟ وأجاب التابعى أنه أرسل هذه المقالات للمجلة كهاو لا كمحرر. ونشرتها المجلة عملا بحرية النشر.

وكان فؤاد كمال معجبًا بكفاءة التابعى فى الترجمة فحفظ التحقيق!

واستمر التابعى رئيسًا للتحرير من وراء الستار، وكان يرفض أن يكتب فى السياسة بحجة أنه لا يفهم فى السياسة! وقال إنه يفضل الكتابة عن الفنانة «زينب صدقى» أكثر من أن يكتب عن «عبد الخالق ثروت» باشا رئيس الوزراء.

وأرغمته السيدة «روزاليوسف» على الكتابة فى السياسة فكتب فيها مضطرا، ولم يلبث أن تألق، وأدت مقالاته السياسية الساخرة إلى انتشار مجلة «روزاليوسف» وبدأ التابعى يهاجم خصوم الوفد بعنف، وإذا بنواب حزب الأحرار الدستوريين يتقدمون بشكوى إلى مجلس النواب يقولون كيف يسمح لموظف فى مجلس النواب أن يشتم النواب! وحقق مكتب المجلس مع التابعى، فأنكر أنه يكتب فى «روزاليوسف»! ولما كانت غالبية مكتب المجلس وفدية قررت حفظ الشكوى ضد «التابعى»!

وأقيلت وزارة الوفد، وحلت الوزارة الجديدة مجلس النواب، ورأى التابعى أن يستقيل من وظيفته ويتولى رسميًّا رئاسة التحرير!

وصادرت الحكومة مجلة «روزاليوسف» فتضاعف التوزيع، ولمع

اسم «التابعى»، فقد أصبح يوقع مقالاته بإمضائه الصريح.. لأول مرة!

وأصبح باعة الصحف ينادون على مجلة «روزاليوسف» «روزا والتابعى يا جدع!»

وهكذا أصبح اسم التابعى على كل لسان، وكانت مقالاته الساخرة حديث البلاد العربية كلها!

وكان أسلوب التابعى لاذعا فى بساطة، يحول بجملة الوزير إلى «بلياتشو»، والزعيم إلى «بهلوان»، قادرا أن «يسخط» المشروع الحكومى الهام ويجعله «نكتة» على أفواه الملايين، استطاع بعبقرية غريبة أن يجعل حكومة «محمد محمود» تفقد أعصابها، وتضرب مجلة «روزاليوسف» وتبطش بها وتهددها وتتوعدها وكلما سعت الحكومة فى اضطهادها للمجلة كلما انطلقت المجلة فى توزيعها وسعة انتشارها!

إن الكلمة كالطبلة، إذا ضربت عليها بشدة دوى صوتها وارتفع ضجيجها!

وفى يوم وليلة أصبح التابعى أحد كبار كتاب مصر والشرق العربى، وأصبح أكبر كاتب ساخر من الخليج إلى المحيط.

كان التابعى قويًّا مع الرجال ضعيفا مع النساء، كان لا يثق فى أى رجل بسهولة، وكان يثق بأية امرأة بمنتهى السهولة! وكان أستاذا فى جذب النساء بكل اللغات ومن كل الأجناس!!

لم يترك دولة أوربية إلا وله فيها حبيبة، يبرق لها بالتهنئة فى

عيد ميلادها، ويقدم لها الأزهار فى ذكرى لقائهما الأول، وكان سخيًّا مع النساء إلى درجة الإسراف، ومقتصدًا مع الرجال إلى درجة التقتير، فهو يجد متعة لا حد لها فى أن يقدم لسيدة يعرفها لأول مرة خاتمًا سوليتير، ولكنه يستكثر على صديق حميم قلم حبر أمريكانيًّا!

وكان يستثنى من هذا «الاقتصاد» رجلا واحدا هو الموسيقار «محمد عبد الوهاب».

فقد اكتشف التابعى موهبته وهو فى بداية حياته، وكرس قلمه للإشادة به ومعاونته على الصعود على سلالم المجد.

وكان «عبد الوهاب» إذا زار التابعى فى بيته ذهب إلى غرفة نومه وفتح دولاب ملابسه وأخذ منه أى رباط رقبة يعجبه، ويفتح خزانة اسطواناته ويختار أية قطعة موسيقية يريدها!

وكان الشعب منقسمًا بين «أم كلثوم» و «عبد الوهاب» وانضم «التابعى» إلى حزب «عبد الوهاب»، وأصبح ينتهز كل فرصة للسخرية بـ «أم كلثوم»!

ثم أصبح بعد ذلك من أصدق أصدقاء أم كلثوم.

وذات يوم وقع التابعى فى هوى المطربة «أسمهان».. وقرر أن يتزوجها ووافقت أسمهان، ووضع فى أصبعها دبلة الخطبة، ووضعت فى أصبعه دبلة الخطبة!

وكنت يومئذ رئيس تحرير مجلة «آخر ساعة»، وكان «على أمين» سكرتيرًا للتحرير.. وكنا نعارض هذا الزواج بشدة لأن

أسمهان كانت مطربة عظيمة، ولكنها امرأة هوائية، تحب فى الصباح وتكره فى المساء.

ولاحظنا أن التابعى منذ أحب أسمهان أصبح يهمل عمله، ويتابع أخبار «أسمهان»، ولا يتابع أخبار الوزارة! وكان له أكثر من مندوب فى بيت «أسمهان» يوافونه بأخبارها، ومن يزورها، ومن يتكلم فى التليفون، ومن ضحكت له.

وكان التابعى يحرص على مقابلة هؤلاء المندوبين أكثر من حرصه على مقابلة مندوبى الجريدة والمحررين فقد أصبحت الفنانة الجميلة دنياه كلها!

وكان «التابعى» غيورا على «أسمهان»، وكانت هى غيورة عليه، وكان «التابعى» إذا غار احترق، وكانت «أسمهان» إذا غارت اختفت.. ثم يحل الوفاق بعد الخصام، وبعد أيام تعود الحرب من جديد بين العاشقين، ويتبادلان الكلمات والاتهامات.. وبعد يومين يتبادلان القبلات!

كان التابعى روميو وعطيل ومجنون ليلى فى وقت واحد!

وذهبت أنا و «على أمين» إلى «أم كلثوم» وكانت صديقة لنا.. وطلبنا منها أن تنقذ أستاذنا «التابعى» من أن يغرق فى بحر أسمهان.

وقالت «أم كلثوم»: وماذا تريدون منى أن أفعل؟

قلنا: أن تتزوجى أنت «التابعى» لتنقذيه من الغرق!

وضحكت «أم كلثوم» وقالت: أنقذ «التابعى» من الغرق..

لأغرق أنا ؟! «التابعى» لا يصلح زوجا لى ! التابعى تزوج الممثلة «زوزو حمدى الحكيم» ولم يدم الزواج سوى شهر واحد وطلقها..
وذهبنا إلى التابعى وقلنا له إذا تزوج من «أسمهان» فإننى سأستقيل من رئاسة التحرير، ويستقيل «على أمين» من منصب سكرتير التحرير.

وفوجئ «التابعى» بهذا التهديد الصبيانى، وأصر أن يتزوج «أسمهان» لتذهب «آخر ساعة» إلى الجحيم!

وفجأة اكتشف «التابعى» فى نفس اليوم أن أسمهان أحبت شخصية كبيرة من وراء ظهره فمات الحب الكبير بالسكتة القلبية!

وفى اليوم التالى بدأ قصة غرام مع ابنة أحد الباشوات!

فقد كانت حياة التابعى عشقا مستمرا، يخرج من حب إلى حب، وكان قلبه يتغير مع فصول السنة! كان يسافر مرتين إلى أوربا كل عام، وفى كل مرة يقع فى حب جديد، حبيبة للصيف وحبيبة للشتاء! وكان يمضى ستة أشهر من السنة فى مصر، فيحب مصريات وفلسطينيات ولبنانيات وسوريات، كان قلبه مثل الأمم المتحدة فيه ممثل لكل دولة من دول العالم!

وكان شخصية متناقضة، كان يتولى بنفسه مراجعة حسابات مجلة «آخر ساعة» يدقق فى كل مليم، ويعيد جمع وطرح وضرب كل عملية حسابية عدة مرات.

أذكر أنه ذات يوم أبقانا معه فى مكتبه من الساعة الثامنة مساء

إلى منتصف الليل يبحث عن ثلاثة قروش ناقصة فى حساب المجلة، ووجد الغلطة الحسابية فى آخر الأمر، فأخذنى أنا وجميع محررى المجلة بعد منتصف الليل إلى صالة «بديعة» وكانت يومئذ فى شارع «عماد الدين» وأنفق فى تلك السهرة مائة جنيه عندما كانت مائة جنيه تساوى عشرة آلاف جنيه فى هذه الأيام!

وهو يحرص أن يكتب فى «أجندة خاصة» كل مبلغ أنفقه، وفى صفحات الأجندة تجد مفارقات غريبة مثل خمسة مليمات ثمن جريدة «الأهرام» مائة وعشرين جنيها سهرة «بديعة مصابنى».. خمسة قروش فنجان قهوة فى قهوة «الأنجلو» مائة وخمسين جنيها ملابس من الخياط «ماركو».. خمسة مليمات مسح الحذاء.. ثلاثة قروش بن.. خمسين قرشا مصاريف المطبخ.. سبعين جنيها هدية لـ «جولييت»!

وإذا قرأت أجندات التابعى طوال السنوات الماضية استطعت أن تعرف تطور سعر كيلو البامية الخضراء من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٧٦.

وقلم التابعى رشيق أنيق.. أحيانا يشبه أغصان الفل والياسمين، وأحياناً يشبه السيف، أو الخنجر، أو المدفع الرشاش.

لا يحب الذين يدافع عنهم، ولا يكره الذين يهاجمهم.. لا يحقد على عدو ولا يطمئن إلى صديق.. يندفع كالسهم، ويصمد كالجبل.. يهوى المعارضة ويمقت التأييد.. وإذا عارض أشفق على خصمه وهو يذبحه، وإذا أيد سخر بزعيمه وهو يدافع عنه.. وفدى

متحمس على الورق، ومستقل الرأى فى الحقيقة، صادق الملك «فاروق» وخاصمه، وتحمس لـ «النحاس» وانتقده، وأحب «النقراشى» وعارضه، وطالب بالدستور والديمقراطية ثم طالب بوقف الحياة النيابية فى مصر لمدة ثلاثين عامًا!

هو فنان أكثر مما هو صحفى.. كانت هوايته أن يجمع قلوب الممثلات والراقصات وكأنه يجمع طوابع البريد.

وذات يوم أحب سيدة من أسرة كبيرة حبا جارفًا، وسألته عن كل امرأة عرفها فى حياته.. وقال لها إنه سيكتب مقالا كل أسبوع فى مجلة «آخر ساعة» عن كل امرأة عرفها، وجمع هذه المقالات كلها فى كتاب «بعض من عرفت».. وكان من أروع ما كتب.

عرفته سنوات طويلة، عرفته عبقريًّا، إذا كتب.. وشابا إذا عشق.. ومقاتلا عنيفا إذا حارب وعاشقا مجنونا إذا أحب.

وعرفته رجلا له مزاج فى الكتابة.. إذا حوصر عمل ١٨ ساعة كل يوم.. وإذا أفلت من الحصار مكث ستة أشهر دون أن يكتب مقالا واحدًا.. التحدى يثير نشاطه ويقوى خياله ويبرز عبقريته، والرخاء يجعل قلمه يسترخى، وعقله يستريح، ويفضل أن يتمدد على شاطئ البحر فى كابرى على أن يجلس فى مكتبه بميدان التحرير.

كتب سلسلة مقالات رائعة نشرها فى مجلة «آخر ساعة» عن قصة غرامه بأسمهان، هذه المرأة الساحرة التى فتنت القلوب.

وقد غيرت هذه المقالات تاريخ حياته!

فقد أحب قارئة أعجبت بمقالاته، أطول قصة حب فى حياته!

ومن الغريب أن تخلق قصة حب قديم قصة حب جديد!!

وتزوج من قارئة قصة حبه لأسمهان، بعد أن كان قد أقسم ألا يتزوج إلى الأبد، بعد أن فشلت زيجته لأسمهان!

وعاد التابعى شابا من جديد ودامت قصة زواجه السعيد من سنة ١٩٤٦ إلى أواخر السبعينيات، كان عندما تزوج فى الخمسين من عمره، وكانت القارئة التى أحبته فى العشرين من عمرها.

ومات بين ذراعى المرأة التى أحبها أكثر من ثلاثين عامًا!

وقبلها كانت أطول قصة حب فى حياته لا تدوم أكثر من ستة شهور!

هذه قصة أحد سلاطين الحب فى القرن العشرين!

أنت مع الصاوى.. تربح دائماً!

رأيت اسمه فى الصفحة الأولى فى جريدة الأهرام. كان يكتب عموداً ثابتاً يتحدث عنه الناس، وتقبل على قراءته النساء، وتعشقه الفتيات، كان الفتى الأول فى الصحافة العربية. وكان يتحدث عن باريس كأنه أحد أبنائها، وكان يكتب عن فرنسا وكأنه الابن الشرعى لجان دارك. ومنه سمعنا لأول مرة عن متحف اللوفر وعن قصر فرساى وعن الغسالة التى تجلس القرفصاء فى ميدان الشانزليزيه بمدينة النور.

وكان أسلوبه يرقص. وكلماته تنبض بالحياة. وكانت جمله تعزف موسيقى. هذا هو أحمد الصاوى محمد صاحب عمود «ما قل ودل» أقدم عمود فى الصحافة المصرية، فقد بدأ فى عام ١٩٣٠ يكتب هذا الباب، الذى مالبث أن جذب اهتمام القراء، بفضل أفكاره المتجددة المليئة بالحياة. كان الصاوى يدافع عن المرأة، ويؤيد تعليمها، وينادى بقبولها فى الجامعة، ويحارب الذين يريدون أن يعاملوها معاملة الرقيق، ويفرضون عليها القيود والأغلال. وإذا بالنساء المصريات يعتبرن الصاوى محاميهن الذى يدافع عن حقوقهن وحاميهن ضد الظلم والاستبداد.

وكان الصاوى قد ولد فى ٢٠ يناير سنة ١٩٠٢، والتحق فى وظيفة صغيرة فى وزارة الداخلية وعمره ١٨ سنة، ثم استقال منها

وعين موظفًا بالمناجم وبقى فى هذه الوظيفة ست سنوات، ثم استقال منها وسافر إلى فرنسا فى أوائل يناير سنة ١٩٢٧ وحصل على دبلوم الصحافة بدرجة شرف ودبلوم العلوم الاجتماعية العليا مع درجة الشرف من جامعة السوربون.

وفى سنة ١٩٣٥ فكر الصاوى وتوفيق الحكيم فى إصدار مجلة واختارا اسم «المهرجان» وذهبا يستشيران الدكتور عبد الحميد بدوى باشا كبير المستشارين الملكيين الذى أصبح فيها بعد قاضيا فى محكمة العدل فى باريس. واعترض عبد الحميد بدوى على الاسم وقال: إن الناس سيقرأون «المهرجان» بضم الميم أى أنها مجلة المهرج الصاوى والمهرج توفيق الحكيم. وعندئذ عدل الصاوى عن تسمية مجلته المهرجان وأطلق عليها اسم «مجلتى». وصدر العدد الأول فتخاطفه القراء. كانت مجلة أدبية أنيقة يكتب فيها أكبر كتاب مصر. وكان توفيق الحكيم ينشر قصصه فيها. وكان الصاوى ينشر فى جريدة الأهرام إعلانات مثيرة جذابة عن «مجلتى».. فيتضاعف توزيعها ويشتد إقبال الناس عليها. وكان ينشر الإعلانات تحت عنوان «أنت مع الصاوى.. تكسب دائمًا» فقد كان الصاوى يمنح المشتركين مزايا وهدايا مما لم يسبق له مثيل فى الصحف المصرية فى تلك الأيام.

وكانت غلطة الصاوى الكبرى أنه اشترى مطبعة. وإذا به يكتشف أنه وقع فى قبضة عصابة لصوص! تاجر الورق يسرقه ومدير المطبعة ينهبه والزبائن لا تسدد ثمن مطبوعاتها. وأثبت

هؤلاء نظرية «أنت مع الصاوى تكسب دائمًا!» كانوا كلهم يكسبون، وكان الصاوى وحده هو الذى يخسر! وأصدر الصاوى قرارًا بقفل المطبعة وأغلق المجلة الناجحة وسافر إلى حبيبته باريس!

ومضى يكتب «ما قل ودل» فى الأهرام.. وكان الأستاذ داود بركات رئيس تحرير الأهرام معجبًا بالصاوى. كان يشجعه ويدلله، وكان يرى فيه محررًا شابًا يجدد شباب الأهرام. ثم توفى داود بركات، وتولى الأستاذ أنطون الجميل رئاسة تحرير الأهرام. وكان رئيس التحرير الجديد يختلف اختلافًا كاملاً عن رئيس التحرير القديم. كان داود بركات بوهيميًا، لا يعترف بالمواعيد، وكان فنانًا لا يهمه متى حضر المحرر أو متى غاب. وكان أنطون الجميل موظف حكومة بمعنى الكلمة، فقد أمضى عمره يعمل فى اللجنة المالية. يذهب إلى مكتبه فى ساعة معينة وينصرف فى ساعة معينة. يأكل بمواعيد وينام بمواعيد ويستيقظ بمواعيد. كان داود بركات يشجع المحررين أن يوقعوا بإمضاءاتهم على مقالاتهم، وكان أنطون الجميل لا يطيق أن يرى إمضاء محرر على مقال. وكان يضايقه أن إمضاء الصاوى تظهر على الصفحة الأولى من الأهرام كل يوم بغير انقطاع!

وبدأ أنطون الجميل ينشر «ما قل ودل» يومًا ولا ينشرها يومًا، ثم ينشرها يومًا ولا ينشرها ثلاثة أيام! وكان الصاوى قد بدأ عمله فى الأهرام بثلاثين جنيهًا فى الشهر ثم ارتفع مرتبه إلى

أربعين جنيهًا، ولكن أنطون الجميل اتفق مع الصاوى أن تكون قيمة «ما قل ودل» مائة قرش كل يوم! وأصبح مرتب الصاوى ينخفض تدريجيًّا إلى أن وصل إلى ستة جنيهات!

ولم يقبل الصاوى الهزيمة فانتقل إلى جريدة المصرى، وأصبح يكتب فيها صفحة كاملة كل أسبوع يترجم فيها الكتب العالمية، ويكتب بابًا أسبوعيًّا باسم «إبر النحل» بمرتب بسيط!

ولم يكن يهم الصاوى قلة المرتب، فقد كان علمًا من أعلام النهضة الصحفية فى مصر. عشق الصحافة فى صدر شبابه، وهجر وظيفته الحكومية، وألقى بنفسه فى غمار الصحافة فى زمن كان العمل فى الصحافة مخاطرة جريئة تؤدى بصاحبها إلى السجن أو إلى الجوع. كان يكتب المقالات ويرسلها إلى الأهرام ولا يتقاضى مليمًا، وكان يترجم الكتب فى مقابل بضعة قروش. وكافح وهو يصعد سلالم الصحافة درجة درجة. يصعد درجة ويهبط درجة. وكان مقاله فى جريدة الأهرام فتحًا فى الصحافة المصرية، وبعد ١١ عامًا اضطر أن يترك جريدة الأهرام وغادرها صفر اليدين، دون مكافأة أو تعويض.

وفى سنة ١٩٣٩ فرضت الرقابة على الصحافة المصرية وعينّ الحاكم العسكرى على ماهر باشا الصاوى أحد الرقباء على الصحف. وفرح الصحفيون أن صحفيًّا هو الذى سيراقبهم، وإذا به يصبح سوط عذاب يلهب ظهورهم. وقد كنت أحد رؤساء التحرير البؤساء الذين وقعوا فى يد الصاوى الرقيب، وفوجئت

به يشطب مقالات السياسة وأخبار السياسة وأخبار المجتمع وأخبار المسرح والسينما. وكنت أرأس تحرير مجلة آخر ساعة وفوجئت بالصاوى يفتك بالمجلة ويذبح مقالاتها ويلغى أخبارها ويرفض صورها! كان الصاوى صحفيًا مخضرمًا، يعرف أسرار مهنته، وحيل الصحفيين لاستغفال الرقابة ومؤامراتهم لنشر الأخبار الممنوعة، كان الصدام مستمرًا بين الصحف والرقيب. وكان الصحفى ينتصر حينًا، والرقيب ينتصر أحيانًا! وتنفسنا الصعداء عندما ترك الصاوى الرقابة وعاد إلى الصحافة!

وبدأ الصاوى أثناء الحرب ينشر كتبه ومؤلفاته، فى طبعات أنيقة، لم تشهد الكتب مثلها من قبل، وأقبل القراء على هذه الكتب، وكوّن الصاوى ثروة. وهو فيما أعلم أول مؤلف فى مصر استطاع أن يكوِّن ثروة من الكتب، فقد كان من طالع المؤلفين أن يكونوا مفلسين، واشترى بعد ذلك عزبة فى شارع الأهرام. واستطاع أن يقيم فيها عشا جميلاً كان يجمع فيه الأدباء والكتّاب والفنانين. ثم باع العزبة بألوف الجنيهات. ولو أنه صبر عليها بضع سنوات لباعها ببضعة ملايين.

وهوى الصاوى جمع التحف والآثار القديمة، وكنت تدخل بيته – وكان أشبه بالمتحف – مئات اللوحات والتحف والتماثيل بحيث كنت لا تجد فى الشقة الواسعة طريقًا تمشى فيه أو مقعدًا تجلس عليه. وضاقت السيدة زوجته بهذه الهواية وأقنعته أن يبيع ألوف التحف لتستطيع أن تعيش فى الشقة.

وكان الصاوى مشهورًا بذوقه الرفيع، وبراعته فى تحويل الفسيخ إلى شربات. وقبل انتشار مهندس الديكور كان الصاوى أستاذًا فى فن الديكور الجميل، وكان قادرًا أن يحول السيارة القديمة نصف عمر إلى سيارة جديدة يتنافس عليها المشترون.

وعرف بالكرم الشديد، فى نفس الوقت الذى عرف فيه صديقه توفيق الحكيم بالبخل الشديد. كان ينفق أرباحه كأنه حاتم الطائى، وكان يشعر بلذة وهو ينفق، نفس اللذة التى كان يشعر بها توفيق الحكيم وهو يكدس المال. وكثيرًا ما كان يجتمع الضدان، ويحاول الصاوى أن يقنع توفيق الحكيم بالكرم، بينما يحاول توفيق أن يقنع الصاوى بمزايا الاقتصاد! ولم يتغير توفيق إلا بعد أن تزوج، وأصبح يغمض عينيه ويوقع الشيكات!

* * *

وعندما أصدرنا «أخبار اليوم» طلبنا من الصاوى أن يكتب «ما قل ودل»، وطلبنا من توفيق الحكيم أن يكتب مقالاً، وكتبا المقالين.. وأردت أن أنشر إعلانًا فى ثلاثة سطور أقول فيه: «توفيق الحكيم وأحمد الصاوى محمد فى أخبار اليوم».. واجتمع الصاوى وتوفيق الحكيم وخشيا أن تفشل أخبار اليوم واضطررنا أن نحذف الإعلان من الأهرام، إلا أنه ظهر فى جريدة المصرى لأننا لم نلحقها قبل الطبع.. وبعد ذلك أصبح توفيق الحكيم والصاوى محررين دائمين فى أخبار اليوم، فقد كانت جريدة سعيدة الحظ إذ أصبحت من العدد الأول أوسع الصحف انتشارًا فى العالم العربى.

وكان على أمين يقول: إنه لولا اشتغال الصاوى بالصحافة لكان من أعظم أخصائيى الديكور وتنظيم الواجهات الزجاجية فى العالم! فهو يعرف كيف يعرض بضاعته، وكيف يسلط عليها الأنوار الساحرة، فيقف المارة ساعات يتطلعون إلى فترينة الصاوى.

وهو مثلاً صاحب مدرسة فى الذوق وفى قلة الذوق! فإن عشرات الألوف من القراء فى كل أنحاء البلاد العربية لا يزالون يحتفظون فى سنة ١٩٨٥ بمجموعة «مجلتى» التى أصدرها سنة ١٩٣٥، ونقل بها الصحافة نقلة ضخمة، وحولها من أدب إلى فن، ومن سطور مرصوصة إلى لوحات فنية ساحرة. ويذهل القارئ أن مجلتى التى صدرت منذ خمسين سنة لا تقل ذوقاً وفناً وطباعة وسحراً وأناقة عن المجلات الشهرية العالمية التى تصدر فى هذه الأيام.

هذا الكاتب الأنيق الرقيق، الشاعر الملىء بالعاطفة ممكن فى لحظات أن يتحول إلى مدفع رشاش لا يرحم، ولا يجامل، ولا يعرف الحدود.. وكثيراً ما كان يذبح بقلمه ضحية أو يعلقه فى مشنقة هذا القلم، وبعد ذلك يبدأ فى سؤال المتهم الذى يكون قد أسلم الروح. وكثيراً ما تحول قلمه إلى قلم حساس مطواع، فيه قلب شاعر فياض يتحول إلى درع يحمى الضعفاء المقهورين، أو إلى سيف يقطع به رؤوس الطغاة والمستبدين، أو إلى بلسم يضمد جراح البؤساء ويشفى الأشقياء. وكان يجد متعة فى أن يدافع عن قضايا الأفراد والجماعات.

وهو صاحب «مزاج». إذا لم يعجبه الجو الصحفى الذى يعيش فيه، وضع قلمه فى جيبه، وترك مكانه لخطابات القراء.

وهو كاتب لا يخاف. إذا اقتنع بفكرة كتبها، ولا يهمه إذا داس فى طريقه أعز الأصدقاء أو أصدقاء الجريدة التى يعمل بها، أو رئيس تحريرها. وعندما التحق بتحرير أخبار اليوم سنة ١٩٤٤ اتفقنا معه أن يكتب رأيه بصراحة، وعودناه أن ننشر كل آرائه حتى ولو كانت تعارض آراءنا، وقلنا له يمكنك أن تهاجمنا على صفحات الجريدة فى أى وقت تشاء!

وكان الصاوى يجد متعة فى أن يسيل دم أصدقائنا، وكنا نجد متعة فى أن نسير وراءه نضمد الجروح ونمسح الدم الذى أراقه بلا حساب.

وعشنا مع الصاوى فى أيام فقره المدقع، وفى أيام ثرائه الضخم، وعشنا معه وهو رئيس تحرير جريدة الأهرام وعشنا معه فى الشارع بلا عمل ولا وظيفة. عشنا معه فى البانسيون الصغير بشارع عدلى، وفى العزبة الجميلة بشارع الهرم، وفى الشقة الأنيقة فى الجيزة. عشنا معه عندما خفض أنطون الجميل رئيس تحرير الأهرام مرتبه من أربعين جنيهًا فى الشهر إلى ستة جنيهات، ثم عشنا معه بعد ذلك بسنوات عندما ارتفع مرتبه فى جريدة الأهرام إلى ستمائة جنيه فى الشهر.

ولم يتغير الصاوى أبدًا كان يبدو مليونيرًا وفى جيبه ستة

جنيهات، ويبدو مفلسًا محرومًا وفى جيبه ٦٠٠ جنيه. كان يعيش فى القاهرة حياة الملوك والأمراء وفى جيبه ملاليم، أو يعيش عيشة الأدباء البوهيميين وفى جيبه ألوف الجنيهات!

أذكر مرة خرجت معه فى الشارع وكان سعيدًا لأنه لأول مرة من وقت طويل أصبح فى جيبه ثلاث ورقات من مائة جنيه. إنه سوف يسدد بها الإيجار المتأخر. سوف يذهب إلى أكبر خياط فى المدينة. سوف يشترى كرافتات سولكا. سوف يقيم مآدب فاخرة لأصدقائه. وفجأة مر على دكان يبيع الصور الزيتية القديمة. ووقع نظره على صورة أعجب بها. وسأل عن ثمن الصورة فقال البائع ثلاثمائة جنيه، ودفع الصاوى المبلغ وحمل الصورة، وخرج من المحل وليس فى جيبه مليم واحد ثمن الغذاء!

كانت مقدرته هائلة على «الصرف» ولكن كانت له مقدرة أكبر على الاستفادة مما يصرف. كان يعرف أن يحول القرش إلى مائة جنيه، ويحول المائة جنيه إلى قرش صاغ! الصورة التى اشتراها بثلاثمائة جنيه واتهمته يومًا بأنه مجنون، باعها بعد ذلك بألف جنيه.

وعشنا مع الصاوى أجمل أيام العمر فى «أخبار اليوم»، كان معنا توفيق دياب وتوفيق الحكيم والصاوى وإبراهيم عبد القادر المازنى وحنفى محمود. كنا نعمل ونحن نضحك. ونضحك ونحن نكتب. كنا نتناول طعام الغداء والعشاء فى مكاتبنا. كانت أصناف الطعام لا تتغير، ولكن الضحكات كانت تحول طبق الفول

المدمس إلى ديك رومى، وطبق الجبنة المش إلى كافيار وسومون فوميه!

* * *

كان عقد الصاوى مع «أخبار اليوم» ينص على أن يسافر الصاوى إلى أوربا فى أى وقت يشاء ويوافى الجريدة بالتحقيقات الصحفية فيما يراه مناسبًا للنشر، ويتولى الاشتراك فى تحرير «أخبار اليوم» مقابل مئة جنيه فى الشهر، ويقوم أثناء سفره بإرسال عدد من المقالات بحيث لا يقل عن أربعة مقالات شهريًا. وليس للصاوى الحق فى المراسلة أو الكتابة لأى جريدة أو مجلة خلاف «أخبار اليوم»، ولكن له الحق فى تأليف الكتب.

واستمر الصاوى يعمل فى «أخبار اليوم» إلى سنة ١٩٤٩ عندما استدعاه أصحاب جريدة الأهرام ليتولى رياسة تحريرها. وقبل الصاوى فقد كان أول مصرى يتولى رياسة تحرير الأهرام فى تاريخها الطويل. رأس تحريرها الشاعر خليل مطران، ثم داود بركات ثم انطون الجميل، وكلهم كانوا لبنانيين.

وكان أنطون الجميل يتقاضى مرتبًا قدره ١٧ ألف جنيه فى العام، ثم ارتفع إلى ١٨ ألف جنيه فى العام ثم ارتفع إلى ١٩ ألف جنيه فى العام.

وكان عقد الصاوى مع الأهرام غريبًا ينص على قيامه بتحرير مقال يدعى «ما قل ودل» وركن جامعى يعالج شئون الطلبة وركن خاص لشئون المرأة مرة كل أسبوع، ثم أنباء ومقتطفات

ومذكرات عن أخبار المجتمع والأوساط الأدبية والفنية والعلمية فى حدود ما يطلب منه، ومقالات ومقتطفات تاريخية، والمساهمة من الناحية التحريرية أو غيرها فى إخراج الأعداد الخاصة التى تقرر الأهرام إصدارها من وقت لآخر والقيام بالرحلات والمهمات الصحفية التى قد تسند إليه، وكافة المقالات الافتتاحية التى قد يطلب إليه تحريرها!

وفى نص الفقرة الثانية من هذا العقد «إن هذا البيان لم يذكر على سبيل الحصر بل على سبيل المثال، وأن يتعهد الصاوى بتخصيص كل نشاطه الصحفى وكل وقته المهنى للأهرام، وأن يمتنع عن أى مساهمة فى الجرائد والمجلات الدورية الأخرى يومية أو غير يومية، وأن يقدم إلى الجريدة كل ما يطلب منه فى حدود الأوضاع الحالية المعروفة لها، وما قد يستجد من تعديلات وتوسيعات وتحسينات، سواء ما كان منها ممكنًا وموضع بحث الآن، أو ما قد يفكر فيه فى المستقبل».

أما الأجر لهذا العمل كله فقد نص العقد أن يكون ١٦٥ جنيهًا شهريًّا، مضافًا إليه حصة عينية تتمثل فى أن يكون للصاوى الحق فى أن ينشر فى الأهرام إعلانات عن كتبه ومؤلفاته فى حدود ٢٥٠ سطرا فى الشهر. على أن هذه الحصة استبدلت بعد ذلك بأجر نقدى فأصبح مرتب الصاوى ٢٥٠ جنيهًا فى الشهر. ثم تقرر أن يكتب الصاوى مقالات الأهرام الأفتتاحية يوميًّا بأجر إضافى قدره ١٥٠ جنيهًا فى الشهر وبذلك ارتفع مرتبه إلى ٤٠٠ جنيه شهريًّا.

ثم رفع الأهرام مرتب الصاوى إلى ستمائة جنيه شهريًّا وفصل العقد كالآتى: ٢٥٠ جنيها مرتبًا شهريًّا شاملاً تدخل فيه كافة الإضافات والإعانات من غلاء معيشة وغيرها والمرتبات والمكافآت، ومبلغ ١٥٠ جنيهًا مقابل «ما قل ودل» و «زكيبة البريد» ونص العقد على أن نشر هذين المقالين جزء لا يتجزأ من واجبات الصاوى الذى يتعهد بضمان صدورها يوميًا وبانتظام، أيًا كانت الظروف، وحتى فى حالة الغياب والإجازة، بحيث لا يعذر إلاّ فى حالة القوة القاهرة، وبحيث يعتبر عدم قيامه بتحرير هذين المقالين يوميًّا إمتناعًا كاملا من جانبه عن تنفيذ كل ما تضمنه العقد، حتى لو تنازل عن الأجر المقرر لهما. ومبلغ ٢٠٠ جنيه شهريًا بدل تمثيل لتغطية النفقات التى يستلزمها منصب رئيس التحرير بما فى ذلك مصاريف الانتقال!

وهكذا أصبح الصاوى يتقاضى مرتبًا قدره ستمائة جنيه فى الشهر!

وفوجئ الصاوى بقرار فصله من الأهرام، ورفع قضية يطالب بخمسة آلاف جنيه مكافأة مدة الخدمة، وخمسة عشر ألف جنيه مقابل أجره عن الإجازات، وألف وخمسمائة جنيه ما تبقى للصاوى من سنته الأخيرة وعشرة آلاف جنيه تعويضًا عن الفصل التعسفى.

وذهلت «أخبار اليوم» عندما وجدنا أحد أساتذتنا فى الشارع، وأسرعنا إليه فى بيته وعدنا به إلى «أخبار اليوم» عند الفجر!

وظهرت جريدة «أخبار اليوم» فى يوم أول أغسطس سنة ١٩٥٩ وفى صفحتها الأولى الخبر التالى: عاد فجر أمس أحمد الصاوى محمد إلى «أخبار اليوم». سيكون أحد رؤساء تحرير جريدة «الأخبار».

وما كدت أذهب إلى مكتبى حتى دق جرس التليفون وسمعت صوت الرئيس جمال عبد الناصر يقول: ألم تحدثنى فى التليفون صباح أمس؟ قلت: نعم. قال الرئيس: إذن لماذا لم تخبرنى أنك عينت الصاوى رئيسًا لتحرير الأخبار؟ قلت: لم أكن أظن أن هذا خبرًا يهمك. قال الرئيس: بالعكس يهمنى! إن تعيين رئيس تحرير عندى أهم من تعيين وزير. قلت: آسف لم أكن أعرف ذلك. قال الرئيس: هيكل رئيس تحرير الأهرام استأذننى فى طرد الصاوى من الأهرام وأذنت. وكان من رأيى أن نتركه فى الشارع شهرًا أو شهرين ثم تعينه!

وكنت أيامها أحد صاحبى «أخبار اليوم».. ودهشت أن الرئيس يهتم كل هذا الاهتمام بتعيين رئيس تحرير جريدة لا يملكها!

لقاء مع هدى شعراوى

ولقد ألف الصاوى أربعين كتابًا، وكان من أول ما ترجمه قصة تاييس وقصة الزنبقة الحمراء لأناتول فرانس، وقد بدأ الكتابة فى جريدة السياسة عندما كان يرأس تحريرها الدكتور محمد حسين

هيكل، وأعجبت السيدة هدى شعراوى هانم بمقالاته وشجعته على السفر إلى باريس لإتمام دراسته فيها، وبفضلها استطاع هذا الشاب الفقير أن يحقق المعجزة التى كان يتمناها. فقد مات أبوه وهو ولد صغير، وكان يملك بعض الأطيان فى أسوان، وجاء الفيضان وأغرق الأطيان سنة ١٩١٧ وأغرق معها أحلامه فى أن يسافر إلى الخارج. كان عمره يومئذٍ ١٣ سنة وكان تلميذًا بالمدرسة السعيدية. وجاء فيضان النيل وأحرق قلبه، وجلس وكتب مقالا لمجلة المدرسة يصف ما فعله الفيضان القاسى ببيته وثروته وأهله وأحلامه. كان هذا المقال مكتوبًا بدمه وأعصابه ودموعه. وذهل طلبة وأساتذة المدرسة أن يستطيع طالب فى السنة الأولى أن يكتب بهذه الحرارة والبلاغة. ولم يعرفوا أن كل ما فعله الصاوى الصغير أن نقل مشاعره الحقيقية على الورق وكان هذا أول لقاء بين الصاوى والصحافة!

وعندما عاد الصاوى إلى مصر تبنى النهضة النسائية فى البلاد. وكان متأثرًا بالمرأة الباريسية معجبًا بها مشيدًا بثقافتها وجمالها وأصبح للصاوى جمهور كبير بين النساء!

وأذكر أننى فى شبابى كنت أجلس معه فى غرفته بالأهرام، وكنت محررًا بها، وكان الصاوى يتلقى يوميًا ألوف الخطابات، كلها بظروف ملونة زرقاء وحمراء وخضراء وصفراء، تفوح منها الروائح العطرية. كلها من نساء وفتيات صغيرات يعبرن عن غرامهن بالشاب الجميل الذى يكتب بكل هذه الحرارة والاناقة

عن الفتاة المصرية، ويتحمس لها، ويدافع عنها حتى أصبح بحق صديق المرأة فى كل البلاد العربية.

وكنت أنا لا أتلقى خطابًا واحدًا من قراء أو قارئات، وأذكر أننى تلقيت يومًا خطابًا وفتحته بلهفة متوهمًا أنه خطاب إعجاب من قارئة حسناء فإذا به من موظفى مصلحة المجارى فى القاهرة، يشكون من سوء حالتهم، ويطلبون منى أن أطالب بإنصافهم!

وشعرت يومها بالحسرة وبالغيرة من الصاوى. وكنت أكتب يوميات كل أسبوع فى مجلة «آخر ساعة»، وقد كنت رئيسًا لتحريرها، وكتبت فى يومياتى أن الصاوى يشبه الفأر!

وما كاد صديقى الصاوى يقرأ ما كتبته حتى هاج وماج وغضب وثار وهدد وتوعد. وقلت له إننى سأكتب تصحيحًا فى يوميات العدد القادم من «آخر ساعة».. وبررت بوعدى فكتبت أقول:

«كتبت فى العدد الماضى من آخر ساعة أن الأستاذ الكبير والكاتب المعروف أحمد الصاوى محمد يشبه الفأر».

وما كاد يصدر عدد آخر ساعة حتى دق جرس التليفون فى مكتبى وسمعت صوتًا ساخطًا غاضبًا يقول:

– ما هذه الوقاحة وقلة الأدب!؟.. كيف تقولون إن الصاوى يشبه الفأر؟!

قلت له: هل حضرتك الصاوى؟

قال الصاوى: لا أنا الفأر!

ومع ذلك استمر الصاوى يتلقى ألوف خطابات الإعجاب من القارئات!..

واستمر موظفو مصلحة المجارى يطلبون إنصافهم!

على أمين.. نصفى الثانى

عرفته فى بطن أمى! ولدتنا أمنا توءمين، ولد هو أولاً وولدت بعده بخمس دقائق.. وكنت أداعبه فى طفولتنا وأقول له: إننى كنت أكثر منك أدبًا! لقد قلت لك: تفضل أنت أولا وتركتك تخرج إلى الدنيا قبلى.

وكنا نختلف أينا أكبر من الآخر، بعض الدول تعتبر المولود الذى يرى نور الدنيا أولا هو المولود الأول وبعض الدول كاليونان ترى أن المولود الثانى هو المولود الأكبر لأنه تكوّن قبل المولود الذى خرج إلى الدنيا أولا!

وولد على سمينا وولدت نحيفًا حتى إن الأطباء خشوا أن أموت من شدة الضعف ولهذا أمر الأطباء بوضعى ٤٠ يومًا فى طشت من النبيذ.. ولعل هذا هو السبب فى أننى لا أشرب الخمر فقد شربت وسكرت بما فيه الكفاية!

وكان تشابهنا عجيبا وكان من الصعب أن تعرف أمنا من هو على ومن هو مصطفى؟ وقد علمتنا بأن وضعت فى يدى شريطا أزرق ووضعت فى يد أخى شريطا أحمر.. وكنا ننام فى سرير واحد وأذكر أننا غافلناها وتبادلنا الشريطين.. ووضعت فى يدى الشريط الأحمر ووضع أخى فى يده الشريط الأزرق وأصبحنا نتبادل

الشريطين.. عدة مرات حتى إننى لا أعرف الآن هل أنا مصطفى أمين أم على أمين!

وكانت أمنا حريصة أن نرتدى لونا واحدًا من الملابس، فكان من الصعب التمييز بيننا، وقد ضاق ناظر مدرسة دمياط الابتدائية بتشابهنا العجيب فوضعنى فى فصل ووضع عليًّا فى فصل آخر، وكان إذا ضرب المدرس عليًّا فى الفصل بكيت أنا فى الفصل الآخر.. وكانت هذه الظاهرة العجيبة تدهش المدرسين.. وعندما كبرنا كنت أذهب وحدى إلى الخياط أختار قماشا لبدلى ويذهب على إلى خياط آخر ويختار قماشًا لبدلاته ثم نكتشف بعد ذلك أننا اخترنا نفس اللون ونفس القماش! وحدث مرة بعد أن أصبحنا شبابا أن كنا نسير على شاطئ سيدى بشر فى رمل الإسكندرية وإذا بفتاة تسير فى مقابلتنا تسقط على الأرض مغمى عليها فلما أفاقت قالت إنها رأت واحدا اثنين..!

ومنذ ذلك اليوم أصبحنا نحرص على أن نرتدى ألوانًا مختلفة فإذا ارتدى هو اللون البنى ارتديت اللون الأسود وإذا ارتدى اللون الغامق ارتديت اللون الفاتح.. إذ ظهورنا معا فى المجتمعات بملابس طبق الأصل كان يثير الضحك والابتسام!

وكان صوتنا متشابها وأذكر أن عليًّا سافر إلى انجلترا فى الثلاثينيات لإتمام دراسته الجامعية وغاب عن مصر عامين ثم عاد بالباخرة إلى الإسكندرية وسافرت إلى الاسكندرية لاستقباله، ومن هناك طلبت أمى فى التليفون فى القاهرة وقلت لها: أنا على!

وصاحت أمي من الفرحة: إنني حرمت من هذا الصوت طوال سنتين! قلت لها: بل إنك تسمعين هذا الصوت كل يوم!

قالت أمي: أبدا، هذا صوت على الذى لم أسمعه منذ عامين قلت لها: أنا مصطفى ولست عليًا! وأعطيت السماعة لعلى فذهلت أمي أنها لم تستطع أن تفرق بين صوتينا.

وحدث أن تزوج على قبلى، وكانت زوجته تطلبه فى مكتبه بالتليفون ويبدأ هو المحادثة وإذا كان مشغولا أعطانى السماعة وأتم المحادثة دون أن تعرف زوجة على أننى لست زوجها!

وعندما تزوجت للمرة الأولى أصرت عروسى أن تقيم فرحا فى فندق شبرد القديم وعارضت بشدة فى هذه «البهدلة» ولكن أسرة عروسى اضطرتنى أن أقبل هوان الزفة والجلوس فى الكوشة.

وجلست خمس دقائق فى الكوشة وشعرت أننى أختنق واستنجدت بأخى وطلبت منه أن يفتدينى ويجلس بدلى فى الكوشة وقبل المسكين أن يقوم بهذه المهمة الثقيلة حتى انتهى الفرح!

وقليل من أصدقائى المدعوين اكتشفوا أن العريس ليس هو أنا! وفى بعض الأحيان أنظر إلى المرآة وأرى صورة على فى أول الأمر ثم أتبين إنها صورتى!

وكنت أعمل صحفيًا وكان أخى يعمل مهندسًا ثم أصبح مديرًا لمكتب وزير المالية.. وفى يوم من الأيام كنت فى مكتب مكرم عبيد باشا وزير المالية وإذا به يسلمنى ملفا مكتوبا عليه «سرى للغاية»

متصورا أننى مدير مكتبه وتسلمت الملف طبعا دون أن انبهه إلى الخطأ وحدث أن دخل أخى إلى المكتب ورأى وزير المالية يسلم الملف لى فأسرع يخطف منى الملف السرى ويقول للوزير: هذا ليس مدير مكتبك! إنه الصحفى مصطفى أمين!

وهكذا كان ولاء على لعمله أكثر من ولائه لأخيه!

وكان قبل ذلك سكرتيرًا خاصا لوزير الأشغال حسين سرى باشا وكان وزيرًا شديدًا حازمًا دقيقًا فى تنفيذ التعليمات، وكانت تعليماته أن يحضر الموظفون إلى مكاتبهم فى الساعة الثامنة صباحًا ومن يتأخر خمس دقائق يخصم يوم من مرتبه.

وكان من تعليماته أيضا أنه ممنوع على موظفى الدرجة السادسة أو الدرجة الخامسة الصعود فى المصعد وأنه قاصر على كبار الموظفين.

وذات يوم جاء السكرتير على أمين إلى الوزارة فى الساعة التاسعة وما أن رآه عامل المصعد حتى فتح بابه على مصراعيه مرحبًا بسعادة سكرتير الوزير! ودخل على أمين منتفخا إلى المصعد.. وإذا بحسين سرى باشا وزير الأشغال يدخل المصعد فى أثره! وصرخ الوزير: كيف يا أفندى تتأخر ساعة عن موعدك؟ وأيضا تركب المصعد المخصص لكبار الموظفين.

قال على أمين الموظف فى الدرجة السادسة: كيف تخاطبنى بهذه اللهجة؟ أنا مصطفى أمين رئيس تحرير مجلة آخر ساعة ولست سكرتيرك! وتراجع الوزير حسين سرى وقال: أنا كنت أمزح

معك! أنا أعرف جيدا أنك مصطفى أمين هل معقول أن لا أعرف سكرتيرى! وتوقف المصعد ودخل الوزير إلى مكتبه وبعد دقائق دق الجرس طالبًا على أمين.

وأسرع على أمين واستعار ربطة رقبة من موظف وجاكتة من موظف آخر ودخل إلى مكتب الوزير.

وقال له الوزير-حسين سرى: كنت أتصور أن شقيقك ذكى ويفهم النكتة ولكن ظهر أنه عبيط! تصور أنه لم يعرف أننى أداعبه عندما تظاهرت بأننى أعتقد أنه سكرتيرى!

وسكت على أمين ولم يقل إن العبيط هو معالى الوزير!

وكان يبدأ المقال وأتمه دون أن يشعر القارئ أن الأسلوب فى منتصف المقال اختلف عن أوله، وعندما كنا نملك دار أخبار اليوم كان الموظف يدخل يعرض أمرا على أخى فيقول له رأيا معينا ثم يدخل عندى ويعرض نفس الرأى فيتلقى نفس الجواب، وكنت فى الخمسينيات أدرس مادة الفن الصحفى لطلبة قسم الصحافة بكلية الآداب، ثم حدث أن سافرت إلى أمريكا وطلبت إلى أخى أن يلقى المحاضرات بدلا منى، وذهب إلى كلية الآداب وألقى المحاضرة على الطلبة ولم يكتشف الطلبة والطالبات أن الأستاذ ليس هو الأستاذ إلا بعد أن أخبرهم على بالحقيقة فى نهاية المحاضرة! وحدث مرة أن كان أحد الكبار يقوم بمهمة سرية فى لبنان وكان سيسافر إلى بيروت على طائرة شركة مصر للطيران، وصدرت الأوامر بأن لا يسمح لصحفى بركوب هذه الطائرة،

واستعنت بجواز سفر أخى ومكتوب فيه أن وظيفته مهندس، وركبت الطائرة وجلست فى مقعد فى نهايتها وأخفيت وجهى بجريدة.

وجاء الكبير وكان أمين عثمان باشا وركب الطائرة ولم يتبين وجودى وتحركت الطائرة وبعد أن وصلت فوق بورسعيد قمت من مقعدى واتجهت إلى أمين عثمان باشا وما كاد يرانى حتى ذعر وقال لى: إما أن تنزل أنت من الطائرة أو أنزل أنا!

وكنت قد نشرت خبر الرحلة فى عدد آخر ساعة الذى سيصدرصباح ذلك اليوم وخشيت لو نزل أمين عثمان أن يضيع النصر الصحفى فقبلت أن أنزل من الطائرة وأمر أمين عثمان باشا الطيار أن يهبط فى مطار بورسعيد.. ونزلت.. ولكنى أخذت معى قبل أن أنزل حقيبة أوراق أمين عثمان باشا التى تحوى مهمته السرية!

وقامت طائرة أمين عثمان باشا إلى بيروت واكتشف فى نصف الطريق أننى أخذت حقيبته وتركت حقيبتى.. فأمر الطيار أن يعود مرة أخرى إلى مطار بورسعيد.. وكنت قد انتهيت من الاطلاع على أسرار الرحلة وانفردت بنشرها فى جريدة الأهرام.

وهكذا كان للتشابه الذى بينى وبين على فوائد كثيرة ومزايا متعددة! وعندما بدأت تنبت لحيتانا اتفقت مع صاحب صالون الاسماعيلية أن يحلق لى ذقنى فى مقابل عشرين قرشا فى الشهر، وقلت له إن لحيتى تنبت بسرعة وإننى أريد أن أحلقها مرتين فى

اليوم مرة فى الصباح ومرة فى المساء، وكنت أذهب وأحلق لحيتى فى الصباح ويذهب على فى المساء ويحلق لحيته! وذات يوم تصادف أن كان على مرتبطا بموعد هام فذهب إلى صالون الحلاقة بعد خروجى بخمس دقائق.. واكتشف صاحب الصالون الفضيحة وارتفع أجر الحلاق إلى أربعين قرشا فى الشهر!

وعندما كنت ولدا رأيت بنتا جميلة صغيرة فى بيت الجيران وابتسمت لها وابتسمت لى.. وأشرت لها وأشارت لى وأرسلت لها خطاب حب فردت على الخطاب وأصبحنا صديقين.. ووصفت لأخى الفتاة التى أحببتها.. ويظهر أننى بالغت فى وصف ملامحتها وجمالها وجاذبيتها وفتنتها، وحدث أن كان على واقفا فى الشرفة فاعتقدت ابنة الجيران أنه أنا فابتسمت له وحيته وتصور على بنظرته الواقعية أنها فتاة أخرى.. لأنه لا تنطبق عليها أوصاف ملكة الجمال التى رسمتها له فبدأ يعاكسها.. ثم اكتشفنا أن الفتاة واحدة واتفقنا أن نلعب عليها القرعة.. وجئنا بعشرة قروش واختار أخى الصورة واخترت رقم العشرة وألقينا العشرة قروش فى الهواء وفاز رقم العشرة وفزت بابنة الجيران!

وكان على فى شبابه سيئ الحظ فى الحب.

عندما كنا أطفالا فى دمياط أحب «إحسانا» الطفلة بنت الجيران وكان يلعب معها دائما لعبة «عروس وعريس».

ولم يستمر وجودنا فى دمياط أكثر من بضعة شهور وسافرنا إلى القاهرة .

وانقطعت الصلة بين الطفلة إحسان والطفل على.

وسافر على إلى انجلترا ومرت عشرة أعوام وكتبت إلى على خطابا من القاهرة أقول له إن إحسانًا خطبت لمحام شاب وقوجئت به يرسل إلىّ خطابا يقول لى فيه إن زواج إحسان نزل عليه نزول الصاعقة وإنه بكى من هول الصدمة وإنه مكث ثلاثة أيام لا يذوق النوم.

والتقيت به بعد ذلك وسألته: هل وعدتك إحسان بالزواج؟ قال: لا؟ قلت: هل أخبرتها أنك تريد أن تتزوجها؟ قال: لا!

قلت: إذن ماذا صدمك؟

قال: كنا ونحن أطفال نلعب عريس وعروسة.. وأنا صدقت اللعبة واعتقدتها جدا!

وحدث أن جاء إلى القاهرة فى اجازة ودعانا الأستاذ التابعى إلى سهرة فى صالة بديعة وكان التابعى يومها أشهر صحفى فى مصر وجاءت الراقصات يجلسن حول الصحفى الكبير، وجاءت راقصة مبتدئة اسمها شوشو نبيل وجلست بجوار على، وكان عمرها ١٦ سنة وعمر على ١٧ سنة.

وانصرفنا فى منتصف الليل وسافر على لاستكمال دراسته فى انجلترا وبعد أيام جاء الشاب الذى يعشق شوشو نبيل وذبحها وأرسلت النبأ إلى على.. ولم أتصور أنه سيهتم بالخبر، وإذا به يكتب لى عن هذه الفاجعة التى مزقت قلبه فقد ترجم الساعة التى جلس فيها فى الكباريه مع هذه الراقصة صداقة عمر..

وعندما عاد إلى القاهرة أصر أن يزور قبرها!

وبذل جهودا شاقة حتى عثر على قبرها وكأنه كريستوف كولومبوس يكتشف قارة أمريكا واستمر عدة سنوات يزور قبر الراقصة التي نسيها كل الناس والتي جلس معها ساعة واحدة! وكان السكان الذين يقيمون حول القبر يذهلون لرؤية الزائر الوحيد الذى يجيء ويقرأ الفاتحة على قبر الراقصة المذبوحة.

وسألته ما سر الحاحه على زيارتها فى قبرها؟

قال: لإننى أنا الذى ذبحتها! عندما ذهبنا إلى صالة بديعة جلست بجانبى وقالت لى إن فتوة يحبها وإنه يريد أن تستسلم له وهى مصرة أن تحتفظ بشرفها وتقول له: تزوجنى أولا.. ونصحتها أن تصمد.. وصمدت وسمعت نصيحتى.. ولهذا ذبحها!

استمرت القصة ساعة واحدة!

ولكنها عاشت معه العمر كله!

وفى أواخر الأربعينيات فكر فى الزواج ورشح له أصدقاؤه فتاة من أسرة معروفة، ودعانا الأستاذ أحمد عنان إلى لقاء الفتاة وأسرتها فى حدائقه بقرب بلبيس.

وأعجب على بالفتاة وأعجبت الفتاة بعلى ووافق الأب والأم والخال وفرحوا بهذا الزواج السعيد.

ولكن عميد الأسرة رفض الزواج لأن أخبار اليوم تهاجم الحزب الذى ينتسب إليه، وأصر على ألا يتم هذا الزواج،

وخضعت الأسرة أمام إصرار عميدها وفسخت الخطبة وكانت صدمة عنيفة لعلى أمين.

ولم أر عليا حزيناً ومصدوماً ومهموماً كتلك الأيام، الأيام القليلة التى أمضاها فى هذه الخطبة كانت أسعد أيام حياته والأيام التى أمضاها بعد ذلك كانت أشقى أيام حياته.

وكان دائما يقول: لا أعرف لماذا فعل الله بى هذا؟ لابد أن الله غاضب علىَّ!

وكنت أقول له: لابد من حكمة فإن الأقدار لها منطق نعجز أن نفهمه وبعد شهور قليلة فهمنا!

مرضت الفتاة الجميلة الشابة فجأة بالسرطان وتوفيت! وبكى عليها على أمين كأنها أصبحت زوجته!

* * *

عندما أتم على دراسته الثانوية وحصل على شهادة البكالوريا أراد السفر إلى انجلترا لإتمام دراسته فى إحدى كليات الهندسة فى مدينة شيفيلد، وعارضت أمى بشدة لأنها أقسمت فى سنة ١٩١٩ ألا تعامل الانجليز وبقيت محافظة على قسم المقاطعة.

وجاء الشيخ المراغى شيخ الجامع الأزهر إلى بيتنا وأفتى لأمى بأن قسمها هذا لا يمنع أن يتعلم على فى بلاد الانجليز! وكان عمر على ١٦ سنة.

وكانت أمى تخاف أن يتزوج أخى من أجنبية فكتبت وصية تحرم فيها على وتحرمنى من ميراثها إذا تزوج واحد منا فتاة

أجنبية وأوصت أن يذهب الميراث إلى الجمعية الخيرية الإسلامية.

وكان على يحرص كل شهر أن يذهب إلى ملجأ العجائز فى مدينة شيفيلد ويلتقط صورة له بين عجائز الملجأ ويرسلها إلى أمى باعتبارها صورته مع أهل البيت الذى يقيم فيه بمدينة شيفيلد.

ويطمئن قلب أمى عندما ترى ابنها يجلس مع سيدة عمرها مائة وسبع سنوات وشمطاء عمرها تسعون ستة وآنسة فى الثمانين من عمرها! واستمر على أمين على زيارة ملجأ العجائز فى شيفيلد مدة خمس سنوات! وألف على أمين فى عام ١٩٥١ كتاباً اسمه كيف تحكم مصر صدر فى سلسلة كتاب اليوم، وأحدث الكتاب ضجة هائلة، إنه تحدث بصراحة مذهلة عن كيف تحكم مصر وما يجرى فيها من وراء ستار وعن الصراع بين الأحزاب وعن الخلافات بين السياسيين وعن فساد الحكم.

وخصص الفصل الأخير من الكتاب عن عدد من الشباب ساءهم الحال وقرروا أنه لابد من الخلاص من كل ما يجرى فى مصر وأن يقوموا بثورة تحكم البلد حكماً وطنياً شعبياً نزيهاً واختاروا من اختاروا لقيادة هذه الثورة، واتفقوا أن يقفوا أمام تمثال لاظوغلى فى ساعة معينة عند الظهر ومن يمر أمام هذا التمثال يختارونه زعيماً للثورة ومرت راقصة فاستهجنوا أن تحكم مصر راقصة، ثم مر رجل سكران فاستبعدوا أن يحكم مصر رجل مخمور.. ثم مر ابن بلد فقبضوا عليه وسألوه عن اسمه فقال:

دقدق محمد دقدق وأصبح محمد دقدق حاكما على مصر وعدد الاصلاحات التى قام بها.

ومرت السنون وإذا بالشعب يطلب العودة إلى حكم الدستور وحكم الأخزاب.

وقرأ جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وصلاح سالم هذا الكتاب عقب قيام الثورة وذهلوا لأن كل ما تنبأ به على أمين حدث بالحرف الواحد.

ولكنهم استبعدوا أن يعود الشعب ويطالب بالدستور والأحزاب وماتوا قبل أن يعرفوا أن النبوءة تحققت بالحرف الواحد.

* * *

وكان على أمين يعيش دائمًا فى الغد يقرأ الكتب عن المخترعات الحديثة والاكتشافات الجديدة ويتابع قراءة المجلات العلمية.

وفى منتصف الاربعينات كتب يقول: «تم الوصول إلى اختراع جديد يجعلك وأنت جالس فى بيتك تحضر حفلة أم كلثوم الشهرية وتراها وهى تغنى أمام الجماهير أو تشهد مباراة فى كرة القدم بين النادى الأهلى ونادى فاروق (الزمالك الآن).

وما كاد يظهر مقال على أمين حتى انهالت خطابات القراء تشتمه وتلعنه وتهاجمه!

يا كذاب.. يا فشار.. يا ضلالى! كيف تقول أننا سوف نستطيع

أن نرى أم كلثوم تغنى ونحن جلوس فى بيوتنا؟ كيف تجرؤ أن تدعى أننا سنشهد مباراة بين الأهلى وفاروق دون أن نذهب إلى الملعب؟ هل تظن أننا عبطاء ومغفلون؟ هل تتصور أننا أطفال تهزأ بعقولنا؟

لم تستطع عقول الكثيرين فى ذلك الزمان أن تصدق معجزة التليفزيون وكان على أمين يضحك وهو يتلقى هذه الشتائم ويقول: هذه هى أحسن خطابات إعجاب تلقيتها فى حياتى!

وبعد سنوات قليلة كان التليفزيون فى كل بيت وكل كوخ من الخليج إلى المحيط.

رَخَا.. وَصَارُوخان
صَناعَتهُما السّخرية مِنَ العظماء وَالكبرَاء!

طول حياتى حاولت أن أرسم مربعًا أو دائرة أو خطًا مستقيمًا، وفشلت فشلًا ذريعًا. وكم مرة أمسكت القلم أحاول أن أرسم بالخطوط وجه إنسان فإذا بالصورة تجيء صورة كلب أو قطة أو جردل!

وقد تدهش إذا عرفت أننى سقطت فى امتحان شهادة الكفاءة فى مادة الرسم وأحضر لى أهلى مدرسًا خاصا يعلمنى الرسم، وبذلك استطعت أن أحصل على شهادة الكفاءة (الإعدادية الآن) فى الملحق!

ومع هذا الفشل الدائم فى الرسم أمضيت طوال حياتى قريبًا من الرسامين، أعجب بهم وهم يشوهون الوجوه، ويلخبطون السِّمات، ويسخرون من العظماء ويهزأون بالكبراء، ويرسمون الوزير فى صورة ماسح أحذية، ويرسمون رئيس الوزراء فى صورة بهلوان!

* * *

كانت هوايتى فى طفولتى صور الكاريكاتور! وكنت أشبع هذه الهواية فى قراءة مجلة «الأولاد» التى كانت تصدر كل يوم خميس،

وكان الأطفال فى بلادنا ينتظرونها فى كل أسبوع بصبر نافذ، وكانت أكثر توزيعًا من المجلات السياسية الكبرى التى كانت تصدر فى هذه الأيام.

وعندما قررت أنا وعلى أمين أن نصدر مجلة باسم «التلميذ» توزع على طلبة وطالبات مصر فكرت فى إدخال الرسم الكاريكاتورى. وكان يستوقفنى فى ذلك الوقت بعض رسوم ونكات لرسام اسمه «رخا». ولم أكن أعرف هل هو مصرى أم أجنبى. فقد كان أغلب رسامى الكاريكاتور فى مصر من الأجانب. كان الرسام الأسبانى سانتيس يرسم فى مجلة الكشكول، وكان الرسام الأرمنى صاروخان يرسم فى مجلة روزاليوسف، وكان الرسام التركى رفعت وشقيقه الرسام التركى شوقى يرسمان فى مجلة الفكاهة والمصور وكل شىء!

وعلمت أن الرسام رخا له مكتب فوق سوق باب اللوق فى غرفة صغيرة يدفع فيها مائة وخمسين قرشًا كل شهر! وذهبت إلى هناك، وتصورت أننى سأرى رجلًا كبير السن، وإذا بى أفاجأ بولد فى مثل سنى أو يكبر عنى بخمس سنوات.

وأعطيته أفكارًا لعدة صور كاريكاتورية ليرسمها وطلب تسعين قرشًا ثمنًا لها، وطلب منى أن أعود فى اليوم التالى لأستلم الصور، فعدت واستلمتها. وبعد ساعتين ذهب أخى على أمين إلى رخا يطلب الصور. ودهش رخا وقال له: ماذا جرى لك؟ إننى أعطيتك الصور من ساعتين! وقال على أمين إنه لم يستلم الصور.

وكادت تحدث مشادة إلى أن اكتشف رخا أن على أمين هو أخى التوءم، وكنا فى تلك الأيام نشبه بعضنا شبهًا عجيبًا!

وصادرت الحكومة مجلة التلميذ وقفلتها، وصادرت مجلة الأقلام التى أصدرناها بدلاً منها، وانقطعت صلتى بالرسام رخا! ولكن صلتى بصوره الكاريكاتورية لم تنقطع. وكان يدهشنى أنه يرسم صوره فى كل مجلة تصدر! لا نكاد نسمع عن مجلة جديدة ظهرت حتى نجد صور عبد المنعم رخا فيها! وكان يتقاضى خمسين قرشًا عن رسم الغلاف الملون وثلاثين قرشًا عن كل صورة فى داخل المجلة! وكثيرًا ما كان يرسم الصور ويمتنع أصحاب المجلات عن دفع ثمنها!

وحدث أن استدعاه الأستاذ مصطفى القشاش صاحب مجلة الصباح ومجلة أبو الهول وطلب منه أن يرسم للمجلتين، على أن يتقاضى عشرين قرشًا عن الرسم الواحد! ولاحظ صاحب المجلتين أن رخا يرسم مائة صورة فى الأسبوع ويستحق عشرة جنيهات فاستكثر المبلغ وعرض عليه أن يدفع له مرتبًا ثابتًا قدره ستة عشر جنيهًا فى الشهر وقبل رخا. وفى الشهر الأول أنقصه إلى ١٥ جنيهًا! وفى الشهر الثانى أنقصه إلى ١٤ جنيهًا! وفى الشهر الخامس أنقصه إلى ١١ جنيهًا وفى الشهر السابع أصبح سبعة جنيهات وفى الشهر الثامن أرسل صاحب المجلتين خطاب فصل إلى الرسام رخا!

وفى يناير سنة ١٩٣٠ فوجئت بأن الشاب رخا أصدر مجلة

كاريكاتورية اسمها «اشمعنى» وكان يكتب فيها سيد قطب مقالاً ساخرًا، وكان يشترك فى تحريرها شاب كان من أنبغ الكتاب الساخرين وهو حنفى مرسى الذى كان يوقع بإمضاء الأحنف، وكان بين كتّاب المجلة كاتب موهوب اسمه على أحمد عامر وأعجبت بالمجلة الضاحكة وصدر منها ثلاثة أعداد خفيفة الدم إلى الفهلوى الذى قدم له القهوة والشيشة ثم قال له إنه يأسف بالفاجعة الكبرى فقد أغلقت مجلة «اشمعنى» أبوابها!

وكان متعهد الصحف فى تلك الأيام اسمه المعلم على الفهلوى وذهب إليه رخا وسأله كم يطبع من المجلة الجديدة؟ فقال الفهلوى: اطبع أربعة آلاف. أو اطبع أحسن ستة آلاف لأنها ستصدر يوم افتتاح البرلمان وسيقبل القراء على شرائها فى ذلك اليوم، وفى الأسبوع الثانى ذهب رخا إلى الفهلوى وسأله كم يطبع؟ قال الفهلوى: ضاعف كمية المطبوع! وخشى رخا أن يطبع هذا العدد واكتفى بطبع ستة آلاف مرة أخرى! وطبع من العدد الثالث ستة آلاف نسخة. كل ذلك ولم يقبض رخا الطيب القلب مليمًا من ثمن بيع المجلة الناجحة! وبعد ذلك ذهب رخا إلى الفهلوى الذى قدم له القهوة والشيشة ثم قال له إنه يأسف لأن المجلة لم توزع شيئًا ولكنه سيعطيه جنيهًا واحدًا ثمن الثمانية عشر ألف نسخة التى استلمها! وعندئذ أغلق الرسام رخا مجلته الأولى والأخيرة بالضبة والمفتاح! وعاد ينشر صوره الكاريكاتورية فى جميع مجلات مصر!

وحدث أن رسم رخا صورة كاريكاتورية لاسماعيل صدقى

باشا رئيس الوزراء وفى يده ورقة طويلة تصل إلى الأرض تعبر عن خطابه الذى ألقاه.. وإذا بسكرتير رئيس الوزراء يكتشف أنه مكتوب على الورقة بخط صغير جدًا «يسقط اسماعيل صدقى» وعبارات كلها إهانة وسب فى الحكام! وقبضت النيابة على رخا، وحكمت عليه محكمة الجنايات بالسجن أربع سنوات أمضاها فى سجن مصر وكان يسمى «قره ميدان». وأمضى رخا هذه السنوات الرهيبة يرسم أرقام الزنزانات والنمر التى تعلق على صدر المسجونين.

وخرج رخا من السجن فى يناير سنة ١٩٣٦. خرج مفلسًا لا يملك مليمًا واحدًا! وبعد أربعة أيام من الإفراج عنه استدعته إحدى الدور الصحفية وقيل له إنه سيعين رسامًا للدار بدل رسام يتقاضى خمسين جنيهًا فى الشهر ورسام آخر يتقاضى ثلاثين جنيهًا فى الشهر! وحسب رخا المبلغين فوجدهما ثمانين جنيهًا فى الشهر وشعر لأول مرة فى حياته أنه أصبح صاحب سعادة! واشتغل فى الشهر الأول ولم يقبض شيئًا، واشتغل فى الشهر الثانى فلم يقبض شيئًا، واشتغل فى الشهر الثالث وعرضوا عليه مرتبًا قدره ستة جنيهات فى الشهر، قبلها رخا صاغرًا! وفجأة انهالت عليه طلبات المجلات أن يرسم لها. اتصل به الأستاذ محمد على حماد صاحب مجلة الشعلة وعرض عليه أن يعمل رسامًا بستة جنيهات! واتصلت به السيدة روزاليوسف وعرضت عليه أن يعمل رسامًا بثمانية جنيهات. وعمل فى عشر مجلات أخرى وكان مجموع مرتباته مائة جنيه فى الشهر! كان يعمل أحيانًا ٢٤ ساعة كل

يوم! كان يضطر أن يأخذ حبوبًا اسمها «اكتدرون» تمنعه من النوم! وبعد شهور من الحياة بغير نوم أحس أن هذه الحبوب ستؤدى به إلى الجنون! وفى بعض الأحيان كان يعمل فى مجلات فى أحزاب مختلفة فكان يرسم فى جريدة صوت الأمة يدافع عن الوفد ويرسم فى جريدة البلاغ يهاجم الوفد! وكانت وجهة نظر رخا أن مهمته كرسام أن ينتقد جميع الأحزاب ولا يؤيد أىَّ حزب منها!

وفى سنة ١٩٣٩ اقترحت على الأستاذ محمود أبو الفتح صاحب جريدة المصرى أن يضع فى الصفحة الأولى صورة كاريكاتورية سياسية، واتفقت مع رخا أن يرسم الصورة وأن أتولى وضع الفكرة.

وفى سنة ١٩٤١ عينت رئيسًا لتحرير مجلة الاثنين التى تصدرها دار الهلال وكان شرطى الأول أن يكون رسام المجلة هو عبد المنعم رخا. ووافق الأستاذ إميل زيدان صاحب دار الهلال. وفوجئت بأن الرسام رخا يرفض أن يعمل فى دار الهلال لأنها أساءت معاملته بعد خروجه من السجن! واتفقت معه على أن يعتبرنى أنا صاحب مجلة الاثنين ولا يعترف بالأستاذ إميل زيدان! ومكث رخا يعمل معى أربع سنوات فى مجلة الهلال وهو يرفض أن يصافح صاحب الجريدة!

وفى مجلة الاثنين ابتكرنا شخصية ابن البلد وحمار أفندى وسكران باشا وغنى الحرب، ونجحت هذه الشخصيات نجاحًا

عظيمًا. وكانت مشكلتى مع الرسام صاروخان عندما كنت أعمل معه فى مجلة روزاليوسف ومجلة آخر ساعة، أننى كلما طلبت منه أن يرسم فتاة جميلة عجز عن رسمها فقد كان فنانًا فى إظهار العيوب، فإذا رسم فتاة جعل فمها واسعًا، أو أنفها كبيرًا، أو مفرطحة الجسم أو معوجة الساقين!

وعندما عملت مع رخا طلبت منه أن يرسم فتاة بنت بلد جميلة وابتكر شخصية بنت البلد، وهى فتاة رائعة الجمال ترتدى الملاءة السوداء والبرقع الأسود. ورسم تابلوهات لهذه الفتاة كانت تحتل الصفحات الأولى من مجلة آخر ساعة. وكان القراء فى البلاد العربية يقطعون هذه الصورة ويلصقونها على جدران بيوتهم أو فى محلاتهم التجارية.

وعندما استقلت من مجلة الاثنين كان الرسام رخا فى مقدمة المحررين الذين استقالوا معى، واشترك معى فى أخبار اليوم من العدد الأول، وبقى يعمل معى طوال أربعين سنة.

ومرة واحدة استقال من أخبار اليوم فى الساعة العاشرة صباحًا، وعاد إلى أخبار اليوم فى الساعة الحادية عشرة صباحًا من نفس اليوم؟

ورخا فنان كسول! لا يعمل كل يوم، ويجمع كل رسوماته ويرسمها فى يوم واحد، وهكذا يعمل ٢٤ ساعة بغير انقطاع، ثم ينام الستة الأيام الباقية!

وكان رخا عندما يرسم يكره أن يجلس وحده، بل لابد أن

يحيط نفسه بشلة من الأصدقاء يضحكون ويمرحون بينما هو يرسم ويغني! وكان لا يحب أن يسمع سوى ألحان سيد درويش وزكريا أحمد، ولا يطرب إلّا لصوت أم كلثوم.

وكانت هوايته تسجيل أصوات المطربين والمطربات.. وكان أول من اشترى جهاز تسجيل في مصر.. اشتراه «شكك» وكان ثمن الجهاز ٢٣٠ جنيهًا، كان يدفع كل شهر ١٥ جنيهًا استمر يدفعها ١٦ شهرًا! وهوى في وقت من الأوقات تسجيل الخطب السياسية، ثم ملّها، ومسح جميع الأشرطة وملأها بصوت أم كلثوم!

ورخا متزوج من ثلاثة وخمسين عامًا! فقد عقد قرانه في شهر يناير سنة ١٩٣١ وبعد عامين ونصف دخل السجن، وقد رزق سبعة أولاد، خمس بنات وولدان.

ومن الغريب أن زوجته لا تهتم بالصور الكاريكاتورية التي يرسمها والتي أصبحت حديث العالم كله، وكل ما تعرفه زوجته أنه يعمل صحفيًا في أخبار اليوم! وإذا رأته يرسم تركت الغرفة، وذهبت إلى فراشها لتنام! ولكن أولاده السبعة من أشد المعجبين برسوم أبيهم، وقد هوى ابنه الأكبر الرسم ودخل الفنون الجميلة وتخرج بعد أن حصل على البكالوريوس وأراد أن يعمل رسامًا ولكن الرسام رخا رفض أن يعمل ابنه رسامًا في الصحافة، فقد خاف على ابنه من مخاطر الصحافة ومن قيودها ومن سجونها ومن أيام الإفلاس والمصادرات والمحاكمات! ولهذا دفعه أن يحصل على

وظيفة فى وزارة الصناعة.. وأحبت ابنته الخامسة الرسم، وأرادت أن تدخل كلية الفنون الجميلة، ورفضت الكلية لأن ابنة أكبر رسام فى مصر لم تحصل على المجموع!

وأصغر أبناء رخا هو جمال الذى يعمل فى هيئة الاستثمار، وهو الولد الوحيد الذى يناقش والده فى كل صورة كاريكاتورية يرسمها! ورخا رجل عائلة! ويحدث أحياناً أن يمكث خمسة أشهر لا يخرج من باب بيته، ويرسم رسومه فى داره، ويرسلها إلى الجريدة مع ساعى الجريدة!

الرَّسَّام الضَّاحِك البَاكى

رأيته لأول مرة فى عام ١٩٢٧ فى ورشة الحفار الأرمنى بربريان. كنت أصنع فيها كليشهات مجلة «التلميذ» التى كنت أصدرها وأنا تلميذ عمرى ١٣ سنة!

ووجدته يبتسم فى وجهى دون أن يعرفنى! ثم أمسك ورقة وقلماً وراح يرسمنى بسرعة مدهشة. وبعد دقائق قدم لى صورتى الكاريكاتورية!

ولم يكن يعرف كلمة من اللغة العربية ولكن رسومه كانت تتكلم وتبتسم وتضحك وتتعارف. وعرفت منه أنه رسام مفلس! ضحية شاب مصرى من المنصورة كان قابله فى مدينة فيينا عاصمة النمسا، وأوهمه أنه صاحب جريدة كبيرة فى مصر، واتفق معه على أن يعمل رساماً فى جريدته بمرتب كبير، وصدق صاروخان الطيب هذا النصاب وركب باخرة إلى الإسكندرية. ونزل إلى الميناء ولم يجد أحداً فى استقباله وسأل عن «محمد» فضحك الناس وقالوا له: إن نصف سكان مصر اسمهم محمد! ومشى متسكعاً متشرداً مفلساً فى شوارع الإسكندرية إلى أن وجد مطعم فول مدمس يملكه أرمنى ودخله وأكل مجاناً!.. وبحث عن فندق يملكه أرمنى فلم يجد فنام على مقعد فى إحدى الحدائق!

واستطاع ببشاشته وخفة روحه أن يتعرف إلى بعض المصريين فى الإسكندرية واقترض منهم أجرة القطار فى الدرجة الثالثة إلى القاهرة، ووصل إلى هناك واستطاع أن يعثر على بعض الأرمن من مواطنيه الذين ساعدوه وأعطوه ثمن تذكرة إلى مدينة المنصورة ليقابل «محمد» صاحب الجريدة المعروف! وفى المنصورة اكتشف المصيبة الكبرى أن محمد هذا ليس صحفيًّا ولا صاحب جريدة، وإنما هو طالب فاشل يدرس فى إحدى مدارس القاهرة! وعاد صاروخان حزينًا إلى القاهرة. ومشى كالطفل التائه فى شوارع القاهرة إلى أن وجد عنوان صديق لعمه كان يعمل فى شركة بترول فى القاهرة. وتوسط العم لصاروخان فحصل على وظيفة مدرس رسم بالمعهد الفنى الأرمنى فى بولاق بمرتب جنيهين فى الشهر، واستأجر حجرة صغيرة فى شارع كلوت بك كان يدفع فيها أربعين قرشًا فى الشهر، ثم أقنع إدارة المدرسة الأرمنية بإصدار مجلة يرسمها، فارتفع مرتبه إلى خمسة جنيهات. وقابل فى ورشة بربريان الأستاذ محمد التابعى رئيس تحرير مجلة روزاليوسف وكانت تنشر صورًا كاريكاتورية على غلافها. فطلب منه عملاً، وقال التابعى: إنهم لا يعينون رسامين فى مجلة روزاليوسف بل يشترون منهم الصور بالقطعة. ورسم صاروخان عدة صور كاريكاتورية بالألوان قدمها للتابعى الذى أعجب بها ونشرها على غلاف مجلة روزاليوسف.

وكان الرسام الأسبانى سانتيس فى تلك الأيام أكبر رسام كاريكاتورى فى مصر، وكان يرسم صورة مجلة الكشكول التى

كانت أكبر مجلة سياسية فى ذلك الحين.

وكان سانتيس يرسم صورة واحدة فى الأسبوع لمجلة روزاليوسف. وفى أحيان كانت لا تعجبه فكرة التابعى فلا يرسمها. وضاق به التابعى وسأل صاروخان هل يستطيع أن يرسم صورًا سياسية؟ فقال صاروخان: إنه. لا يعرف شكل الزعماء المصريين السياسيين، فوعده التابعى أن يحضر له صورًا فوتوغرافية للزعماء لينقل منها. وكان التابعى يقف أمامه ويصور له الأوضاع التى يريد أن يظهر بها الزعماء، فكان صاروخان ينقل صورة الوضع كما يمثله التابعى ويضع فوقه صورة الزعيم المصرى. وما لبثت صور صاروخان أن نجحت نجاحًا ضخمًا واكتسحت صور سانتيس، لأنها كانت مليئة بالحيوية والحركة والروح المصرية والنكتة اللاذعة. بينما كان أشخاص سانتيس يقفون فى الصورة كالأصنام، كلهم يرتدون بذلة الرونجوت ويضعون فى أقدامهم «الجيتر» الأبيض. والرونجوت هو الثوب الرسمى الذى يرتديه الوزراء عندما يقابلون الملك. ولكن صاروخان ألبسهم ملابس عادية ليقابلوا بها الشعب المصرى!

وكانت مجلة روزاليوسف تعتمد على عشرة رسامين كاريكاتور، فاستغنت عنهم جميعًا، واكتفت بصاروخان وحده. ثم اكتسحت مجلة روزاليوسف مجلة الكشكول، وأصبحت أوسع المجلات انتشارًا فى مصر.

وانضممت فى سنة ١٩٣٠ إلى تحرير روزاليوسف وتوطدت

صداقتى بصاروخان، وفى العام التالى أصبحت نائبًا لرئيس تحرير مجلة روزاليوسف وكنت أشترك مع التابعى فى تقديم أفكار الصور الكاريكاتورية.

وفى سنة ١٩٣٤ خرجت مع التابعى من مجلة روزاليوسف، وخرج صاروخان معنا. ثم حدث أن علمت السيدة روزاليوسف بذلك فذهبت إلى بيت صاروخان وبكت، وتأثر صاروخان فتعاقد أن يعمل معها! وعلمنا بهذا العقد فذهبنا إلى صاروخان. واتفقنا على إلغاء عقده مع روزاليوسف والتعاقد معنا.. ووقع صاروخان العقد معنا.. وهكذا فازت به مجلة «آخر ساعة» منذ عددها الأول الذى صدر فى ١٤ يوليو سنة ١٩٣٤ ومن العدد الأول أصبحت آخر ساعة أوسع المجلات انتشارًا فى مصر. ولكن كان «أول القصيدة كفر» كما تقول الأمثال المصرية. ففى اليوم الأول قبضت النيابة على التابعى وصاروخان بسبب صورة كاريكاتورية نشرناها على غلاف العدد الأول، تمثل متهمًا يقف أمام القاضى ويقول له:

– حرامى؟ نعم صحيح! نصاب؟ نعم صحيح! لكن عضو فى حزب الشعب حرام لأنه موش صحيح؟

وكان رئيس الوزراء يومئذ هو رئيس حزب الشعب، وكان عنوان الصورة «التهمة الفظيعة».. وقالت النيابة لصاروخان: أنت تقصد أن الحرامى والنصاب أشرف من عضو حزب رئيس الوزراء!

واستمر التحقيق حتى منتصف الليل وأفرج النائب العام عنها بكفالة! وكانت صور صاروخان تهزأ بالحكام وتسخر منهم. تارة تصورهم بهلوانات، وتارة تصورهم قطع شطرنج يلعب بها الملك والإنجليز. وكانت صوره تهاجم القصر والإنجليز والاستعمار والديكتاتورية.

وفى سنة ١٩٤٦ انضم صاروخان إلى دار أخبار اليوم وأصبحت صوره تنقل فى مجلات أوربا وأمريكا. كانت صوره حديث العالم العربى كله. وكانت الصور تسخر من الزعماء والقادة، وتهزأ من الطغاة ورؤساء الحكومات وكانت صوره الكاريكاتورية فى بعض المقالات أشد قسوة من سلسلة من المقالات.

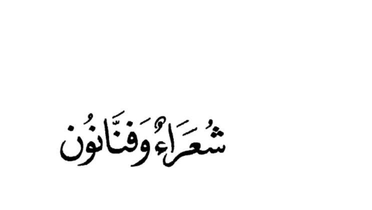
وكنت أجد فى سخرية صاروخان بعض المرارة التى يحاول أن يغطيها بابتساماته الدائمة، وسألته عن ذلك فقال لى: إنه ولد فى أواخر القرن الماضى فى القوقاز فى مدينة باطوم على البحر الأسود. وإن والده هاجر هو وأسرته إلى استانبول متوهمًا أنه سيجد فيها عملاً طيبًا. ولم يلبث الأب أن اكتشف أن الحياة فى استانبول أسوأ منها فى باطوم، فعاد مع زوجته وشقيقات صاروخان الأربع إلى موطنه تاركًا ألكسندر صاروخان وشقيقه فى استانبول. وكان هذا القرار مصيبة وقعت على رأس الأسرة. ومع أن الأب وزوجته وبناته نجوا من مذبحة الأرمن الفظيعة على أيدى الأتراك، ولكنها عاشت فى آلام وأحزان ودموع الأرمن

الذين ذبحوا وقتلوا وهتكت أعراضهم على أيدى الأتراك، فماتت الأم بعد ذلك بقليل وهى تصرخ «ولداى! ولداى» ومات بعد ذلك والده. ولم ير صاروخان أخوته بعد ذلك أبدًا. لقد نبغ صاروخان فى الرسم وهو تلميذ فى مدرسة باطوم، وكان أساتذته يعجبون برسومه ويتوقعون له مستقبلًا كبيرًا فى الرسم. وفى استانبول استطاع أن ينشر رسومه فى مجلة أرمنية كانت تصدر هناك ولم يكن يتقاضى مليمًا واحدًا ثمنًا لرسومه. وعاش سنوات من الضنك والجوع والرعب، ثم هرب من المذابح التى كانت تقع يوميًّا ضد الأرمن، وسافر إلى فيينا ودخل مدرسة الفنون بها لمدة عامين. وعرف هناك الجوع والتشرد والحذاء المثقوب الذى يدخل منه البرد القارس. هذا الفقر والتشرد والمعاملة الوحشية التى لقيها شعبه تركت فى قلبه مرارة لم يستطع أن يمحوها الزمن.

وعاش طول حياته يهتم بالأرمن فى كل مكان فى العالم ويحاول أن يساعدهم ويدافع عن قضيتهم، وينتهز كل فرصة ليلعن الأتراك الذين جعلوه يمضى شبابه فى الجحيم.

وهكذا كنت ترى بعض رسوم صاروخان تضحك وتبكى فى وقت واحد. تجمع بين السخرية والمرارة!

كان أحيانًا يُضحِك البلد كلها وقلبه يبكى!


شعراء وفنانون

الأمير الذى كان يحلم برتبة الباشوية!

كنت أركب سيارة أم كلثوم فى طريقنا إلى بساتين بركات بمدينة بلبيس بدعوة من الدكتور بهى الدين بركات لتناول طعام الغداء. وفى الطريق بقرب بلبيس تمهل السائق قليلاً ليعبر الطريق جماعة من الفلاحين والفلاحات ومعهم دوابهم. وصاحت أم كلثوم فى السائق: قف مكانك لا تتحرك! وأشارت أم كلثوم إلى فلاح يجر خلفه جاموسة ويغنى قصيدة سلوا قلبى. واستمعت أم كلثوم إلى الفلاح الشاب باهتمام. وكان صوته كئيبًا ولكنه أطرب أم كلثوم وقالت: كنت أتمنى أن يعيش شوقى ليسمع شعره يتغنى به الفلاحون المصريون فى حقولهم. وقد كان يقول لى إن شعره لا يفهمه إلا المثقفون والأدباء!

وكانت أم كلثوم تحفظ وصف الأديب الكبير مصطفى لطفى المنفلوطى عن شوقى الذى يقول فيه: «شوقى شاعر السماء والماء، والغابة الفيحاء، والروضة الغناء، يتلمس مكان الرغبات. يستنير كوامن الوجدانيات. ترى فى شعره لوح الصبى فى الكتاب، وسبحة الناسك فى صومعته، وزاد المسافر فى وحشته، وكأس الشارب فى حانته، ودمعة الباكى، ورجاء العاشق، ومأساة الحزين، كأن بين قلبه وبين جميع القلوب أسلاكًا كهربائية تخفق لخفوقه وتسكن لسكونه».

وأذكر أن الشاعر أحمد شوقى أمير الشعراء دعانى والدكتور سعيد عبده، وكنا محررين فى مجلة روزاليوسف لحضور حفلة ساهرة فى داره بالجيزة تغنى فيها أم كلثوم. وجلسنا فى مقاعد فى آخر الصالون نستمتع بصوت أم كلثوم فى كرمة ابن هانئ على شاطئ النيل. وغنت أم كلثوم أغنية «اللى حبك هناه يا نعيمه ياشقاه»، وهى من نظم الشاعر أحمد رامى وتلحين الموسيقار زكريا أحمد. وبعد انتهاء وصلة الطرب أخذ أمير الشعراء أم كلثوم من يدها وصحبها إلى مكتبه المجاور للمقعدين اللذين نجلس فوقهما وأدخل أم كلثوم فى المكتب. وسمعنا صوت أم كلثوم يصيح بغضب لا! مستحيل! لا يمكن أبدًا! وسمعنا شوقى يقول فى صوت متوسل: أرجوك لا يمكن أبدًا. وزاد غضب أم كلثوم حدة وقالت: إنك تهيننى فى بيتك! وفتحت الباب بعنف واندفعت إلى الصالة وهى تقول: هذا عيب! ورأينا شوقى يقول لها: سامحينى! سامحينى!..

وأسرعنا نسأل أم كلثوم ماذا جرى؟ ما هى الكلمة التى قالها أمير الشعراء وأغضبتها كل هذا الغضب! وقالت لنا أم كلثوم إن شوقى بك أراد أن يعطيها مظروفًا به نقود أجرًا على أنها غنت فى بيته، وأنها جاءت إلى هنا باعتبارها صديقة وليست مطربة، وأنه أهانها بهذا المبلغ الذى حاول أن يقدمه إليها.

وانضم شوقى إلينا وعاد يكرر أسفه، ويقول إنه قصد من إعطائها هذا المبلغ أن يدفع لها أجر الموسيقيين رجال التخت

وقالت أم كلثوم أنها ستدفع أجر التخت من جيبها. وبعد إلحاح عدلت أم كلثوم عن الخروج من السهرة وقبلت أن تغنى الوصلة الثانية وكانت أغنية «هو ده يخلص من الله.. القوى يذل الضعيف»؟

وبينما كانت تغنى أقبل شوقى بك وفى يده كأس من الويسكى وجلس إلى جوارنا يسمع الغناء، ثم أخرج من جيبه علبة سجائر وقلمًا صغيرًا وكتب بضعة كلمات على علبة السجائر ثم اندمج مع الغناء وعاد يكتب كلمات أخرى.

وروت لى أم كلثوم أنه فى اليوم التالى فوجئت بشوقى بك يزورها فى بيتها وكانت تسكن أيامها فى عمارة بهلر بالزمالك. وإذا به يقدم لها مظروفًا مغلقًا وثارت أم كلثوم وقالت له: ألم يكفك أنك حاولت أمس أن تهينى فى بيتك، وجئت اليوم تهينى فى بيتى. وابتسم شوقى وقال لها: قبل أن تغضبى افتحى المظروف، وشاهدى ما فيه. قالت له أم كلثوم: سأمزق المظروف دون أن أرى ما فيه. وقال شوقى: هذه ليست فلوس. هذا هو وصفى لك وأنت تغنين.

وقالت أم كلثوم لى: إنها فتحت المظروف فوجدت فيه أكبر أجر تلقته فى حياتها عن حفلة أقامتها وهى قصيدة شوقى التى يقول فيها:

سلوا كئوس الطلى هل لامست فاها
حمامة الأيك من بالشجو طارحها؟

ومن وراء الدجى بالشوق ناجاها؟
بانت على الروض تسقيني بصافية،
لا للسلاف ولا للورد رياها!

وأطلعت أم كلثوم بعض أصدقائها على هذه القصيدة فاقترحوا عليها أن تغنيها وكان أكثرهم إلحاحًا الشاعر أحمد رامى. ولكن أم كلثوم رفضت وقالت إنها رسالة خاصة من شوقى لها وإنه لم يطلب منها أن تغنيها.

ومات شوقى بعد ذلك بعامين، ثم مضت عشر سنوات، وبينما كانت أم كلثوم تراجع بعض أوراقها الخاصة وجدت هذه القصيدة وأعطتها للموسيقار رياض السنباطى لتلحينها. والعجيب أن أم كلثوم رفضت قبل ذلك أن تغنى أى قصيدة لشوقى لاعتقادها أن شوقى من حزب عبدالوهاب. وكان فى ذلك الوقت حزبان متنافسان، حزب أم كلثوم وحزب عبد الوهاب. وفى الأربعينيات بدأت أم كلثوم تقرأ دواوين أحمد شوقى وقرأت قصيدة سلوا قلبى واختارت بعض أبياتها. وقرأت قصيدة شوقى لمناسبة الاعتداء على حياة سعد زغلول بإطلاق الرصاص عليه واختارت بعض أبيات عن السودان، وقرأت قصيدة الهزيمة واختارت الأبيات التى تبدأ بِوُلِد الهدى. ونجحت قصائد شوقى نجاحًا هائلًا. وعندما توثقت العلاقات بين عبد الوهاب وأم كلثوم بمناسبة أغنية «أنت عمرى». وفكرت أن تغنى أم كلثوم مع عبد الوهاب مسرحية مجنون

ليلى ويقوم عبدالوهاب بدور المجنون وتقوم هى بدور ليلى. وحدث أن التقيت مع أم كلثوم وعبدالوهاب فى فندق مينا هاوس مع المطرب محمد أمين وزوجته فى ذلك الوقت السيدة مديحة يسرى، وغنت أم كلثوم مع عبد الوهاب المقطع الذى غناه مع أسمهان، ولسوء الحظ أن أجهزة التسجيل لم تكن اخترعت بعد ولهذا لم تسجل هذه الليلة الخالدة.

وسألت شوقى بك يومًا هل عرف الحب؟ فقال: إنه عرف الحب مرتين فى باريس.

حبه الأول...

وكان فى العشرين من عمره، مرة بائعة زهور فى الحى اللاتينى، وقد هجرته لتحب رجلاً ثريًا غنيا، ومرة أخرى كان يتردد على مسرح الكوميدى فرانسيز فى باريس وتعرف بممثلة صغيرة هجرته لتتزوج أحد المخرجين. وكره النساء ونظم قصيدة يقول فيها: لا تثق بالنساء ووعودهن هباء. وقد مزق كل القصائد التى نظمها فى الغانيتين الفرنسيتين. وفى أواخر حياته شاع أنه يحب الممثلة زينب صدقى لأنه كان يذهب كل ليلة إلى المسرح ليشهدها وهى تمثل دور ليلى فى مسرحية مجنون ليلى. ولكن العارفين يؤكدون أن سر تردده المستمر على مسرحية مجنون ليلى أنه كان معجبًا بتمثيل زينب صدقى،

وكان يقول لأصدقائه: إنها ليلى التى تصورتها وأنا أنظم هذا الشعر.

وكان الدكتور سعيد عبده من أقرب المقربين إليه وكان يقول: إن شاعر الحب لم يحب فى حياته حبًا حقيقيًا إلا فى شبابه، وإن كل قصائده عن الحب استقاها من شعر مجنون ليلى ومن شعراء الغزل ومما قرأه فى كتاب الأغانى.

وقال حافظ إبراهيم إن شوقى أحب اثنين فى حياته: أحمد شوقى والخديوى عباس، وإنه يعتقد أن شعره الذى تغزل فيه بالخديوى السابق لم يكن نفاقًا بل كان حبًا حقيقيًا. وكانت علاقته بعباس حلمى قبل ولايته العرش فى مصر، وكان فى طفولته يتردد على قصر عابدين وكانت أمه إحدى جاريات الخديوى اسماعيل جد الخديوى عباس واشتراها الخديوى بمائة جنيه ذهبًا وكانت يونانية تعلمت فى القصر اللغة العربية. ثم أعتقها وزوجها لمترجمه على أحمد بن حليم النجدة لى، وكانت جدته اليونانية مغرمة بحفيدها أحمد شوقى حتى أنها ذهبت تحمله على كتفيها إلى قصر عابدين. وقال شوقى فى مذكراته: «حدثتنى جدتى أنها دخلت بى على الخديوى اسماعيل وأنا فى الثالثة من عمرى. وكان بصرى متعلقًا بالسماء، لا ينزل عن العلا، من اختلال أعصاب نظرى، فطلب الخديوى اسماعيل حفنة من دنانير الذهب، وبذرها على بساط الأرض عند قدميه، فأنزلتنى جدتى بعد أن شغل أذنى

رنين الذهب، ورحت لأجمعه، وهنا ضحك الخديوى اسماعيل وقهقه قائلاً لها: افعلى معه مثل هذا فما أسرع أن يشفى نظره، وقالت جدتى: هذا الدواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاى. قال الخديوى اسماعيل أحضريه إلىّ متى شئت فأنا آخر من ينثر الذهب فى مصر».. وهذا سر بيت الشعر الذى يقول فيه:

«أأخون اسماعيل فى أولاده
وقد ولدت بباب اسماعيلا»

وكان الطفل شوقى يلعب مع الأمير الصغير عباس فى طفولته فى حديقة قصر القبة، وعندما حصل على ليسانس الحقوق من باريس عينه موظفًا فى قصر عابدين. ولم تنقطع صلة شوقى بالخديوى عباس يومًا واحدًا طوال حكمه. كان يقابله كل يوم تقريبًا. وكان يطرب لقصائده فى مدحه وفى الدفاع عنه. وقد وعده الخديوى بأن يطلب من السلطان منحه رتبة الباشوية، ولكن الإنجليز خلعوا الخديوى عباس من العرش قبل أن ينفذ وعده.

ونفى الإنجليز (شوقى) إلى إسبانيا بعد خلع الخديوى، وبقى بعيدًا عن وطنه خمس سنوات. ولم يحضر ثورة ١٩١٩ وعاد إلى مصر فى نهاية العام وبقى منزويًا باقى سنوات الثورة. فقد كان الإنجليز أعلنوا الأحكام العرفية وفرضوا الرقابة على الصحف. وفى سنة ١٩٢٣ مات سعيد زغلول ابن أخت

الزعيم سعد زغلول. ورثاه شوقى بقصيدة عصماء قال فيها: سيقولون إنه يرثيه زلفى لخاله وإنما هو يرثيه لشخصه ومزاياه. ثم حدث أن مات ابن الخديوى عباس فكتب قصيدة يعزى فيها أم المحسنين الأميرة إلهامى والدة الخديوى عباس. وغضب الملك فؤاد من هذا الرثاء وأمر بمصادرة جريدة الأهرام التى نشرت القصيدة. وأعلن الدستور وألغيت الأحكام العرفية وجرت انتخابات حرة نال فيها سعد زغلول أغلبية ساحقة، واجتمع البرلمان لأول مرة ونظم شوقى قصيدة قال فيها:

زمان الفرد يا فرعون ولَّى
ودالت دولة المتجبرينا

وكان شوقى يحلم برتبة الباشوية، وكان المقربون إليه وخدمه ينادونه «يا باشا» وذلك لأن الخديوى عباس وعده برتبة الباشوية. وعندما تولى سعد رياسة الوزارة طلب من الملك فؤاد رتبة الباشوية لشوقى ورفض الملك فؤاد.

واستقالت وزارة سعد زغلول. وحل البرلمان وعقد المؤتمر الوطنى للأحزاب الذى طالب بعودة الدستور، ونظم شوقى قصيدة لهذه المناسبة.

وعندما ألف عدلى يكن الوزارة اقترح عليه سعد أن يطلب من الملك فؤاد الإنعام على شوقى برتبة الباشوية ورفض الملك فؤاد. وعندئذٍ رشحه سعد زغلول عضوًا بمجلس

الشيوخ عن الصحراء الشرقية وانتخب بغير منافس، وانضم إلى الهيئة الوفدية. وأقسم يمين الولاء لسعد زغلول.

أمير الشــعراء

واتفق المعجبون بشوقى فى كل البلاد العربية على تنصيب شوقى أميرًا للشعراء بعد أن كان لقبه «شاعر الأمير».. ورأس الزعيم سعد زغلول اللجنة التى تألفت لتنصيب شوقى أميرًا للشعراء. ويومها كتب الأستاذ عباس محمود العقاد سلسلة مقالات فى جريدة البلاغ لسان حال سعد زغلول يهاجم فكرة تنصيب شوقى أميرًا للشعراء. وقابله سعد زغلول وقال للعقاد: كيف تهاجم فى جريدتى شوقى وأنا أرأس لجنة تكريمه؟

وقال له العقاد: أنت زعيمى فى السياسة والوطنية ولكنك لست زعيمى فى الشعر! وأضاف العقاد أن من رأيه أن الشعر ليس إمارة يعين أميرها بل هى جمهورية ينتخب رئيسها!

وبقى شوقى وفديًا مخلصًا إلى أن مات سعد زغلول فرثاه شوقى بقصيدة رائعة. ثم انتخب الوفد مصطفى النحاس باشا رئيسًا للوفد. وعندئذٍ ابتعد شوقى عن الوفد وامتنع عن حضور اجتماعات الهيئة الوفدية وقال يومها: «إن اسم النحاس لا يجيء مع الشعر...».

وكان النحاس وهـو وزير فى وزارة سعـد زغلول اعترض على أن يطلب سعد من الملك الإنعام على أحمد شـوقى برتبـة الباشوية مع أنه لم يكتب كلمة واحدة يؤيد بها ثورة ١٩١٩.

وقـال له سعـد: إن شوقى كـان معذورًا فقـد كـان أثنـاء الثـورة منفيًا فى إسبـانيا ولم يعـد إلى مصر إلا فى أوائـل سنة ١٩٢٠ ، وإن بيت الشعر وحده الذى جاء فيه:

«زمـان الـفـرد يـا فـرعـون
ولى ودالـت دولـة المتجـبريـنـا»

يستحق رتبة الباشوية.

وقال النحاس باشا: إن شوقى ذاق عذاب النفى ومرارة فراق الوطن ولم يكتب سطرًا واحدًا عنا عندما نفانا الإنجليز إلى جزيرة سيشيل.

وإذا قرأت مذكرات سعد زغلول وهو وزير تجده يهاجم الشاعر شوقى عندما كان أحد مراكز القوى فى قصر الخديوى، وكان يشترك فى تأليف الوزارات وتغيير الوزارات.

صورة الخالدين!

وفى سنة ١٩٢٦ زار بعض طلبة الجامعات الأمريكية القاهرة وطلبوا الاجتماع بشوقى. واتصل شوقى بسعد زغلول وقال له: الطلبة الأمريكيون طالبوا أن يقابلوا زعيم الشعر فى مصر، وأنا قلت لهم سأحاول أن تقابلوا زعيم مصر كلها.

وذهب سعد زغلول إلى بيت شوقى وحضر الحفلة. وجاء الأستاذ محمد عبدالرحمن الجديلى وهو أحد أبطال ثورة ١٩١٩ وقال لسعد: إن شوقى يتمنى أن يلتقط المصور له صورة بجانبك. ورحب سعد بذلك الاقتراح. وجاء شوقى وجلس إلى جانب سعد زغلول، والتقط المصور لهما صورة. وقال عبد الرحمن الجديلى: سنكتب على هذه الصورة صورة الخالدين سعد وشوقى.

قال سعد: شوقى هو الرجل الخالد. الناس سينسون سعد بعد ٥٠ سنة أو مائة سنة. ولكن شوقى سيبقى ما بقيت اللغة العربية. الذين يعملون بالوطنية والسياسة ينساهم الناس. ولكنهم لا ينسون الشعراء والأدباء والفنانين. الناس مثلا تعرف اسم شكسبير ولا تعرف أسماء رؤساء وزارات إنجلترا فى تلك الأيام. وتعرف اسم الشيخ سلامة حجازى ونسيت اسم جميع رؤساء مصر فى أيام سلامة حجازى. والناس تذكر المتنبى ولا تكاد تذكر اسم سيف الدولة!

ولكن نبوءة سعد زغلول لم تتحقق بدليل أن الأمة العربية تذكره بعد ٥٨ سنة من وفاته، وأن العالم يذكر غاندى أكثر مما يذكر طاغور، ويذكر تشرشل أكثر مما يذكر كل شعراء إنجلترا وفنانيها خلال الحرب العالمية الثانية.

وفرح شوقى بتحية سعد زغلول وكانت قصيدة شوقى فى رثاء سعد أعظم قصيدة قيلت فى رثائه.

وتولى محمد محمود باشا رياسة الوزارة وأعلن أنه سيحكم

مصر بيد من حديد، وكان معجبًا بشوقى ويحفظ كثيرًا من شعره ووعد محمد محمود، شوقى، بأن يطلب له من الملك فؤاد رتبة الباشوية.

ونظم قصيدة لمناسبة عودته من إنجلترا وحصوله على مقترحات بالجلاء عن مصر، مطلعها:

هات الأمانة يا محمد هاتها
راعى الأمانة أنت، وابن رعاتها
أنا لا أرى صدأ الحديد على يد
ردت إلى الأوطان حريتها

وقبل أن يكمل شوقى القصيدة سقطت وزارة محمد محمود، وطوى شوقى القصيدة ولم يتمها! وتولى إسماعيل صدقى رياسة الوزارة وألغى الدستور وحكم بالإرهاب. وطلب أصدقاء شوقى أن ينظم قصيدة يدافع فيها عن الحرية والاستقلال ويهاجم إسماعيل صدقى، ووعد شوقى بنظم هذه القصيدة لتلقى فى عيد الجهاد الوطنى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٢. ولكن حدث فى ذلك الوقت أن تقدم الدكتور أمين صدقى أكبر أبناء اسماعيل صدقى لخطبة الآنسة خديجة العلايلى حفيدة شوقى بك. وعدل شوقى عن نظم القصيدة. وتوقع أن يستطيع إسماعيل صدقى بنفوذه وسلطانه أن يقنع الملك فؤاد بالإنعام عليه برتبة الباشوية. ولكن الملك فؤاد رفض هذا ولام اسماعيل صدقى أن ابنه تزوج حفيدة شوقى شاعر الخديوى عباس وابنة حامد بك العلايلى الذى كان من رجال الخديوى.

وكان فؤاد يمقت الخديوى عباس الذى خلعه الإنجليز عن العرش، وكان يعتقد إلى آخر يوم فى حياته أن الخديوى سيتآمر مع أصدقائه للعودة إلى عرش مصر.

شخصية شوقى

كان شوقى رجلين فى رجل واحد. رجل عبقرى ورجل عادى. كان يخاف الطائرة ويرفض ركوبها، وكان يقول إنه يركب الأسد ولا يركب الطائرة. وكان يرفض أن يضع الكرافتة حول عنقه ويقول إنها تذكره بالمشنقة. وكان يضع حول عنقه الكرافتة البابيون أى الفراشة.

وكان يخاف عبور الشارع. ولهذا كان يقف طويلاً قبل أن يعبر الرصيف الأيمن إلى الرصيف الأيسر، وكان يقول إن قلبه يقول له إنه ستصدمه سيارة فى يوم من الأيام، وتحققت نبوءته وصدمته سيارة فى لبنان، ولم يكن يومها يعبر الشارع إنما كان يجلس فى سيارة وصدمته سيارة أخرى قادمة بسرعة ونجا من الموت بأعجوبة، وإن كان قد جرح فى عينه. وكان طول حياته يشكو من رمد فى عينيه، وكانت أمراضه التى يشكو منها الكبد وضغط الدم وتقلص الشرايين. وكان أكبر أعدائه عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى وعبد الرحمن شكرى لأنهم أول من تجرأ وهاجم شوقى فى مجده، وكانوا شباباً، وهزأوا من عبقريته وسخروا من شعره واتهموه بأنه يسرق قصائده من الشعراء

الأقدمين. وكان شوقى يضيق بالنقد ولا يطيقه، ويسارع إلى مقاطعة من يهاجم شعره فلا يصافحه إذا رآه فى مجلس. وإذا كان جالسًا فى مجتمع ودخل الرجل الذى نقده يسرع شوقى بالخروج ويغادر المكان.

وبعد ذلك يحاول أن يسترضى الناقد ويحاول أن يكسبه، ويوسط الأصدقاء ليحوله من معسكر الأعداء إلى معسكر المعجبين. وقد تعذر عليه أن يكسب العقاد. وقد رفض العقاد أن يذهب إليه أو يعتذر عن هجومه القاسى، أو يقبله أميرًا للشعراء. ولم يكن من طبيعة شوقى أن يهاجم علنًا الذين هاجموه. ولهذا انتظر حتى دخل عباس العقاد السجن للعيب فى الذات الملكية أيام الملك فؤاد، ثم حدث أن شنق الطليان الزعيم الوطنى عمر المختار، ونظم شوقى قصيدة رائعة فى تمجيد الزعيم الشهيد، وانتهز فرصة هذه القصيدة وهاجم عباس العقاد وقال فى أحد أبيات القصيدة إن عمر المختار كان شجاعًا وهو يقف على المشنقة، ولم يكن مسجونًا جبانًا يبكى وهو فى الزنزانة، وكان يقصد أن العقاد بكى وهو داخل السجن. وكان شوقى ظالمًا لأن العقاد لم يبكِ جبنًا، وإنما بكى من الألم لأنه أصيب بأزمة ربو قاسية.

وكان يحب الحيوانات، وفى أول الأمر كان يسكن فى ضاحية المطرية، وكان يحتفظ فى بيته بكلاب وقطط وقردة وطواويس وببغاوات وعصافير ملونة وتمساح صغير له حوض صغير يضعه فى حديقة. وعندما نفاه الإنجليز ماتت أغلب الحيوانات فلم تجد بعد

شوقى من يعنى بها ويرعاها. وعندما انتقل إلى بيته فى الجيزة احتفظ ببعض الكلاب والقطط والطواويس.

كيف كان ينظم الشعر

وكان عندما يتهيأ لنظم قصيدة يشرب خمس بيضات نيئة ثم يغمغم وينساب الشعر من شفتيه. وكان ينظم الشعر فى أى مكان، فى الشارع، وفى عربة حانطور، فى قطار السكة الحديد، فى عربة الترام. وكان لا يكتب أشعاره أبدًا. يظل يدير القصائد فى ذهنه، ثم يشرع بتدوينها على كراسة أو غلاف كتاب أو علبة سجائر. وكان الشعر يهبط عليه كالوحى. وكنا نراه أحيانًا فى مكتب الأستاذ محمد توفيق دياب صاحب جريدة الجهاد. وتكون الغرفة مليئة بالأدباء والسياسيين والكتّاب. ويجلس شوقى بيننا صامتًا ونتصور أنه يتتبع المناقشة، وفجأة يغيب عن الوعى نسمع منه غمغمة تشبه النغم القادم من غور بعيد ثم تبرق عيناه، ويرفع يده إلى جبينه، ويمررها على جبينه مرورًا خفيفًا عدة مرات. وعندئذ نشعر أن قصيدة تولد. ونسأله عن الأبيات التى نظمها ولا يجيبنا على سؤالنا، وإنما ينصرف عائدًا إلى بيته، ونعرف عندئذٍ أنه يكمل القصيدة فى طريقه إلى البيت. وفى اليوم التالى أو الذى بعده يعود إلى مكتب الأستاذ توفيق دياب وفى جيبه القصيدة كاملة. ويسلمها إلى توفيق دياب الذى يتلو القصيدة بصوته الضخم وكأنه يلقى خطابًا. ويجلس شوقى ويستمع للقصيدة، وكأنه

يسمعها لأول مرة فى حياته!

ولم يحدث أبدًا أن ألقى شوقى قصيدة بصوته فى الاجتماعات العامة.

وكان أحيانًا يدعو الصحفى المعروف فكرى أباظة أو السياسى الكبير حنفى محمود لإلقاء قصيدته.

وأول أغنية نظمها شوقى كانت:

توحشنى.. وأنت ويايا
واشتاق لك.. وعينيك فى عينيه
وأتذلل.. والحق معايا
وأعاتبك.. ما تهونش عليّه

وقد نظمها باللغة العامية ليغنيها الموسيقار عبد الوهاب.. ولم يكن يتصور أن قصائده باللغة العربية يمكن أن تغنى.

وكان معجبًا بشكسبير وكان يتمنى أن يؤلف مسرحيات مثله. وعندما بدأ بتأليف مسرحية «مصرع كليوبترا..» نظم عدة قصائد غير مترابطة على لسان كليوبترا ومارك أنطون.. وسلمها للدكتور سعيد عبده الكاتب والشاعر المعروف وجلس سعيد عبده وحول القصائد إلى حوار وإلى فصول وإلى قصة، وكذلك حال باقى شخصيات المسرحية. وبعد ذلك كتب سعيد عبده مقدمة القصة، وكلفه شوقى أن يحضر البروفات ليراقب نطق الممثلين، وفعل الدكتور سعيد عبده كل هذا وفوجئ بشوقى يعطيه خمسة عشر جنيهًا أجرًا على كل هذا وغضب سعيد عبده

من هذا الأجر الزهيد، وعاتب شوقى الذى قال له: إنك ستدخل التاريخ لأنك فعلت كل ذلك.

ولم يدخل سعيد عبده التاريخ، وإنما الذى دخل هو أحمد شوقى أمير الشعراء.

واشترك سعيد عبده فى مسرحة قصائده فى مجنون ليلى. ولم يشترك فى مسرحية قمبيز فجاءت أضعف مسرحيات شوقى.

وكان شوقى يروى دائمًا أن السلطان عبد الحميد أنعم عليه برتبة «بك أفندى» وأن هذه الرتبة تساوى رتبة الباشوية، وكان سعد زغلول يقول له دائمًا إن التاريخ لن يسميك شوقى بك ولا شوقى باشا وإنما سوف يسميك شوقى فقط. وكان شوقى يضحك ويقول إن سعد زغلول كان يحاول أن يخفف عنه ألمه لحرمانه من رتبة الباشوية، وكان يقول: غير معقول أن أجرد فى التاريخ من رتبتى التى أعطاها لى السلطان عبد الحميد. ونسى التاريخ السلطان عبد الحميد ونسى شوقى بك شاعر الأمير، ولم يذكر إلا أحمد شوقى بغير بكوية ولا باشوية!

ومات شوقى دون أن يحظى برتبة الباشوية التى كان يحلم بها.

كيف مات

خرج شوقى يوم ٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ فى الساعة الحادية عشرة صباحًا. قصد إلى مكتبه فى شارع جلال، الشارع الذى فيه

جريدة الجمهورية الآن، والمتفرع من شارع عماد الدين (محمد فريد) وبعد أن راجع حسابات دائرته مع سكرتيره الأستاذ أحمد عبد الوهاب عاد إلى داره فى الجيزة وتناول الغداء واستراح. ثم ذهب إلى محل صولت الحلوانى بشارع قصر النيل، وجلس مع صديقيه محمود فهمى النقراشى أفندى والدكتور محجوب ثابت. ثم ذهب إلى عيادة الدكتور محمد مختار عبد اللطيف، وقال للطبيب أشعر بألم فوق قلبى. وكشف عليه الطبيب وقال له: ستعيش مائة سنة!

قال له شوقى: إننى سأحتفل بعد ١٢ يومًا ببلوغ سن الثانية والستين.

قال له الدكتور مختار عبد اللطيف: معنى ذلك أن أمامك ٣٨ سنة أخرى لتعيشها!

ودخل بعد ذلك سينما مترو بول وراء محلات شيكوريل وجلس فى مقاعد الترسو أى الدرجة الثالثة وشاهد فيلمًا بوليسيًا، وخرج من السينما، ومشى على قدميه إلى جريدة الأهرام وكانت يومئذٍ فى شارع مظلوم، وأمضى بعض الوقت مع داود بركات رئيس التحرير، ثم استقل سيارة إلى دار جريدة الجهاد بشارع ناظر الجيش وراء ضريح سعد، وأمضى بعض الوقت يضحك مع توفيق دياب والمحررين، ثم عاد إلى بيته بعد منتصف الليل. خلع ملابسه وقرأ فى مجلة روز اليوسف والمصور والهلال ونام فى سريره وأغفى. ومات وهو نائم فى الساعة الرابعة صباحًا.

وكان شوقي يخشى الموت. يتمنى أن لا يرى شبح الموت أبدًا، وقد حقق الله له هذه الأمنية.

وكان قد نظم قبل وفاته وصية جاء فيها:

أقول لهم ساعة الدفن خففوا عليّ
ولا تلقوا الصخور على قبري
ألم يكف هما في الحياة حملته
فأحمله بعد الموت صخرًا على صخر!

نجيب الرّيحانى
الرجُل الذِى أضحَكَ الدّنيَا وَقَلبه يَبكى

ذات يوم دعوت نجيب الريحانى لتناول الغداء فى بيتى ظهر يوم الثلاثاء. وإذا بشارلى شابلن مصر يصرخ فى التليفون ويقول مستحيل مستحيل مستحيل. أنا مستعد أن أتغدى وأتعشى وأفطر عندك كل يوم إلا يوم الثلاثاء. هذا هو اليوم المحرم الذى لا أقبل فيه دعوة، ولا أعقد فيه صفقة، ولا أذهب إلى موعد غرام، ولا أسافر فيه ولا أركب طائرة ولا أستقل باخرة.. ولو كان الأمر بيدى لما خرجت من بيتى فى هذا اليوم!

وتصورت أن نجيب الريحانى يمزح. وعندما التقينا فى يوم آخر قال لى إنه يتشاءم من يوم الثلاثاء! ولو كان الأمر بيدى لألغيت يوم الثلاثاء من أيام الأسبوع.

وروى لى أن والده عراقى نزح من بغداد إلى القاهرة وتزوج فتاة مصرية اسمها لطيفة، وأقام معها فى حارة درب مصطفى فى حى باب الشعرية بالقاهرة، حيث ولد. وذكر أنه ورث خفة الدم من أمه والعصبية من أبيه، وورث عن أبيه كذلك الإسراف «والبعزقة» وأن الجنيه لا يدخل جيبه حتى يخرج، وكيف أن أمه شقيت من أن أباه كان لا يؤمن بالحكمة التى تقول: إن القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود. وهذا هو السبب فى أنه عاش أياماً

سوداء كثيرة فى طفولته وكان تلميذاً فى مدرسة الخرنفش. وهناك تعلم العربية والفرنسية، وطرد من المدرسة وعمره ١٦ سنة لأنه عجز عن دفع المصروفات! وكان يوم طرده من المدرسة أسوأ أيام حياته ولا ينسى هذا اليوم لأنه كان يوم ثلاثاء! وخرج إلى الشارع يبحث عن عمل. أى عمل! فكر فى أول الأمر أن يعمل كاتبًا فى محل تجارى. فكثيراً ما أثنى عليه مدرس الحساب فى مدرسة الخرنفش. ثم اكتشف بعد أيام أن أصحاب المحلات التجارية لا يريدون كاتب حسابات. وليس فى الحى أى تاجر يمسك دفتر حسابات! وعرض على صاحب محل فول مدمس أن يعمل موظفاً عنده. وكانت الوظيفة هى أن يكنس المحل ويمسح البلاط. وبعد أيام استغنى صاحب الفول المدمس عن نجيب لأنه غازل سيدة من الزبائن واشتكت الزبونة إلى زوجها الذى كان جزار الحى. وجاء الجزار يحمل ساطوره فى يده ويهدد بتكسير محل الفول المدمس على رأس صاحبه. وهرب نجيب من الحى وأقام عند خال له فى العباسية. واستطاع خاله أن يجد وظيفة له فى شركة السكر فى كوم امبو فى الصعيد. وسافر نجيب فى الدرجة الثالثة فى قطار الصعيد. ووصل إلى كوم امبو فى الصباح المبكر. وبقى يتسكع فى الشوارع حتى فتحت الشركة أبوابها، وكان يحمل خطاب توصية إلى الباشكاتب وقدمه له فعينه فى الحال كاتباً فى الشركة. وأظهر نجيب نشاطاً فى العمل وانضباطاً جعل الباشكاتب يقربه ويثق فيه ودعاه لتناول العشاء فى بيته. ورأى زوجة الباشكاتب وهى تصغره بثلاثين سنة. كان شعرها فى لون

الذهب وكان وجهها مثل القشطة كما يصفها نجيب. وكانت امرأة لعوباً غازلت نجيب منذ اللحظة التى جلس فيها على مائدة العشاء. ومدت ساقها تحت المائدة لتقرب من قدمه. وذعر نجيب فى أول الأمر وظن أنها قطة أو كلب ونزل برأسه تحت المائدة فرأى ساق زوجة الباشكاتب فاشتد ذعره. وأبعد قدميه ولكن المرأة اللعوب لاحقته. وقاوم نجيب هذا العشق. وفوجئ بأن الباشكاتب يغضب عليه إذا غضبت زوجة الباشكاتب ويرضى عنه إذا استجاب لدعواتها. ولم يكن الباشكاتب يعرف شيئاً عن هذا الغرام، وإنما كانت زوجته امرأة قوية تسيره وتحركه كما تشاء. وذات يوم ألحت عليه زوجة الباشكاتب أن يذهب إليها فى الصباح. واضطر نجيب أن يذهب إلى الباشكاتب ويطلب إجازة لإصابته بمغص كلوى. وذهب نجيب إلى موعد الغرام. ويظهر أن الباشكاتب أصيب هو الآخر بمغص كلوى، لأنه ترك مكتبه وذهب إلى بيته فوجد نجيب فى بيته. وتصور نجيب أن الباشكاتب سيغضب ويثور ويضربه إذا لم يطلق عليه الرصاص. فإذا بالباشكاتب يمد يده إليه ويقول له: «أهلاً وسهلاً يا نجيب.. شرفتنا وآنستنا!».

وخرج نجيب من بيت صديقه سعيدًا بهذا الزوج الطيب واسع الأفق، وحدث فى نفس اليوم أن وصل إلى كوم امبو قارئ كف مشهور وأقام حفلة وقرأ كف نجيب وقال له: سيكون لك مستقبل عظيم. وستهبط عليك ثروة مفاجئة. وسوف تتزوج المرأة التى تحبها!

وذهب فى اليوم التالى إلى مكتبه وإذا بالساعى يقول له: يوجد خطاب مسجل باسمك! واعتقد نجيب أنه الخطاب الذى ينبئه بالثروة المفاجئة، وفتح الخطاب وإذا به خطاب رفت من شركة السكر ابتداء من اليوم. وكان يوم ثلاثاء!

وعرف نجيب وقتئذ فقط معنى كلمة أهلاً وسهلاً وآنستنا وشرفتنا التى سمعها من فم الزوج الغيور!

وعاد إلى القاهرة يجر أذيال الخيبة واستطاع أن يحصل على وظيفة فى البنك الزراعى فى القاهرة كاتب من الدرجة العاشرة المخفضة! ولم يكن وصوله إلى هذا المنصب التافه سهلاً. حفيت قدماه. طاف القاهرة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب. دخل كل متجر وكل شركة وكل مصنع وسمع فى كل مكان جملة «لا وظائف خالية». دخل كل بنك فى مصر بنكاً واحد لم يدخله هو البنك الزراعى. وذات يوم التقى بصديقه الفنان عزيز عيد وسأله إلى أين هو ذاهب؟ قال عزيز: إلى البنك الزراعى. ذهل نجيب، وقال: إننى لم أسمع فى مصر عن بنك اسمه البنك الزراعى! لقد طفت كل بنوك مصر إلا هذا البنك. وقال عزيز عيد: إننى موظف فى هذا البنك وهم يبحثون عن موظف بمرتب أربعة جنيهات.. وشعر نجيب بأن أبواب السماء قد فتحت له وأخذ يرقص فى الشارع ويقول:

– أربعة جنيه.. يعنى أربعمائة قرش.. يعنى أربعين ألف مليم...

قال له عزيز: بل أربعة آلاف مليم!

قال نجيب: معليش... أربعة آلاف مليم ستجعلنى أعيش ملكاً!

جلس نجيب الريحانى فى غرفة واحدة مع عزيز عيد فى البنك الزراعى. لم يوقعا ورقة واحدة. لم يراجعا حسابًا واحدًا. لم يفتحا ملفا. كان حديثهما همسًا عن التمثيل والفن. عن الروايات والممثلات. عن حلمهما بأن يقفا فوق مسرح ويمثلان، وتسلط عليهما الأنوار وتصفق الجماهير وتهتف لهما! وكانا يقرآن معًا بعض الروايات الفرنسية ويختاران دورين فى كل رواية ويتقمص كل واحد منهما الدور ويقوم بتمثيله. وذات يوم دخل باشكاتب البنك الغرفة ووجد نجيب الريحانى يمسك بزمارة رقبة عزيز ويقول له: أيها المجرم السفاح! سأقتلك! سأسفك دمك! سأحطم رأسك! لا.. بل سأشنقك! لا.. بل سأقطع جسمك إرباً إربًا.. سأجعلك عبرة للعابرين.

وكان عزيز عيد يرتعش ويتوسل.

وما كاد الباشكاتب يرى هذا المنظر حتى جرى وجاء برجل البوليس الواقف أمام البنك لينقذ حياة عزيز عيد من المجنون نجيب الريحانى.

وعندما قال نجيب وعزيز أن ليس فى الأمر جريمة وأنهما يمثلان رواية فرنسية شهيرة، طردهما الباشكاتب من البنك!

وكان الرجل طيبًا فأمر بصرف مكافأتهما. وأخذا المكافأة وقررا أن ينشئا بالمبلغ فرقة مسرحية. كانت تتكون منهما ومن

روز اليوسف وحسن فائق واستفان روستى وأمين صدقى.
واختلفت السيدة روز اليوسف مع عزيز عيد وخرجت من الفرقة. وجاءت مكانها المطربة منيرة المهدية. ثم أفلست الفرقة وانضم نجيب الريحانى إلى فرقة إخوان عكاشة ثم طرد منها لأنه لا يعرف التمثيل ولا يصلح ممثلاً! وذهب إلى فرقة جورج أبيض وقام بدور ملك النمسا عندما قامت الحرب العالمية الأولى. وكان دورًا دراميًا ولكن الجمهور لا يكاد يرى نجيب بملابسه المزركشة المذهبة حتى يضج بالضحك. فقد كان ملكًا مبهدلاً أقرب إلى موظف فى الأرشيف منه إلى ملك وأرسل له جورج أبيض خطابًا يقول له إنه شديد الأسف لأنه لا يصلح للتمثيل على الإطلاق!

وتشرد فى الشوارع وجلس فى قهوة شارع عماد الدين يبكى حظه. لا يصدر قرار بتعيينه حتى يصدر قرار بفصله، ولا يقف على المسرح يومًا حتى يلقى به خارج المسرح فى اليوم التالى. وبينما هو يبكى حظه أقبل الممثل استفان روستى وعرض عليه أن يعملا معًا فى كباريه بشارع عماد الدين فيقفا خلف ستار ويقومان بحركات هزلية وترقص معهما راقصة عارية. وقبل نجيب هذا العرض العجيب وازدحم الكباريه لأن صاحب الكباريه استحضر من باريس ملكة جمال لترقص عارية! واشتد الإقبال على المسرح، وكان الريحانى يتقاضى أربعين قرشًا فى الليلة الواحدة واشترى بدلة جديدة بالتقسيط. ثم اكتشف الجمهور أن ملكة الجمال الفرنسية ما هى إلا راقصة درجة ثالثة من لبنان فهجم الجمهور على الكباريه وحطموه، وضربوا صاحب الكباريه

واستفان روستى، وجرى نجيب الريحانى فى شارع عماد الدين والجماهير تجرى وراءه وتضربه بالطوب!

وطردهما صاحب الكباريه لأنهما لم يدافعا عن الكباريه ولم يصمدا أمام الجماهير الغاضبة الساخطة..

وفى تلك الأيام رأى نجيب الريحانى الممثلة صالحة قاصين كانت شابة فاتنة ساحرة. وهام بها، واستطاع نجيب أن يسحرها بجاذبيته وخفة دمه، وأقنعها بالسفر معه إلى الإسكندرية لتمضية أسبوع عسل! وفى أول أيام أسبوع العسل وكان يوم الثلاثاء وصل إلى الإسكندرية خطيب صالحة قاصين، وكان شاعراً شابا قوى العضلات. وذهب حيث يجلس نجيب وضربه علقة بقى نجيب يذكرها إلى أن مات، واسترد صالحة قاصين بعد أن أفهم نجيب الريحانى أنه سيحطم رقبته إذا مشى فى الشارع الذى تسكن فيه صالحة قاصين.

وعاشت صالحة بعد ذلك سنوات طويلة وذبل جمالها الفتّان، وبدت عجوزًا شمطاء، وأصبحت المجلات الفنية تضرب بها المثل على القبح، ناسية أنها كانت فى يوم من الأيام ملكة جمال شارع عماد الدين. وانتهى أمرها بأن دخلت مستشفى الأمراض العقلية وماتت هناك.

وكان نجيب يتنقل من حب إلى حب ومن غرام إلى غرام! كان الحب بالنسبة له كالطعام وكان أحيانًا يتناول الإفطار والغداء والعشاء!

وأكبر حب فى حياته هو حبه لراقصة فرنسية اسمها لوسى، وكان يقول إن هذا الحب هو أكبر حب فى حياته إلى أن مات. ثم اكتشفت لوسى أن لنجيب علاقة بممثلة صغيرة. وبهدوء غريب جمعت ملابسها وسافرت إلى باريس. وسافر خلفها إلى الإسكندرية ليمنعها من ركوب الباخرة، وأمسك بها وتوسل إليها وبكى فرفضت أن تعدل عن قرارها، ولحق بها نجيب فى باريس وردته خائباً!

وكان نجيب يقول إنه كان يتفاءل بها، وإنها ذهبت وأخذت الحظ معها، ومنذ اليوم الذى تركته توالت عليه المصائب والنكبات! ومما يذكره نجيب أن الباخرة غادرت ميناء الإسكندرية يوم الثلاثاء!

ثم التحق بمسرح «الإجيبسيانا» ونجح فى عمله وشعر أن الدنيا أقبلت عليه وأن الشمس أشرقت بعد الظلام الطويل. ثم وقع فى حب زوجة صاحب المسرح وهى سيدة فرنسية، ولم يلبث أن اكتشف الزوج المسرحية الغرامية التى تجرى وراء الكواليس وذهب وهدد نجيب بالقتل.. ولم يذهب نجيب بعد ذلك إلى مسرح الإجيبسيانا!

ثم أحب الممثلة اليونانية كيكى. ولكن هذا الحب مات بالسكتة القلبية وتركت له رسالة تقول: «أنت تحتاج إلى عشر نساء لا إلى امرأة واحدة!»

وكان نجيب يقول إن كيكى هذه كانت عشر نساء فى امرأة

واحدة! ولكنها كانت امرأة غيور إذا صافح نجيب سيدة تصورت أنه يعانقها، وإذا تحدث مع فتاة اعتقدت أنه يقبلها. وإذا رأته يتحدث فى التليفون مع امرأة اعتبرت هذا عملاً فاضحًا فى الطريق العام!

كل مكان ذهب إليه نجيب الريحانى عثر فيه على حب جديد. وكثيرًا ما كان يقول لى: إن الله خلق النساء لنحبهن! قلت له: كنت أتصور أنه خلق حواء ليتزوجها آدم! قال: الله جميل يحب الجمال. وأنا أعبد الجمال. امرأة ساحرة عندى أجمل من أى منظر طبيعى فى سويسرا. ولهذا فأنا أمضى الصيف أنظر إلى امرأة معينة وأشعر بنفس المتعة التى يشعر بها السائح الذى سافر إلى سويسرا ليمضى إجازة الصيف. وكما أن السائح لا يستطيع أن يمضى عمره كله فى مدينة واحدة، فأنا لا أستطيع أن أمضى عمرى مع امرأة واحدة! سنة فى باريس سنة فى أمريكا، سنة فى كان ومونت كارلو . سنة فى الكونغو!

انتقل مرة بفرقته إلى مسرح ريتز بشارع عماد الدين ، وكالعادة وجد نفسه واقعًا فى غرام زوجة صاحب المسرح. وقرر الزوج الغيور أن يقتل نجيب. وانتظره حتى رآه مع زوجته يخرجان من البيت وأطلق عليهما الرصاص. وفر الرجل بعد أن اعتقد أنه قتل زوجته الخائنة وحبيبها نجيب الريحانى، وذهب الزوج إلى قسم عابدين واعترف بأنه قتل نجيب الريحانى وزوجته الخائنة. وانتقل ضابط الشرطة معه إلى بيته لمعاينة

الجثتين. وفوجئ بأن رأى زوجته لاتزال على قيد الحياة، وما كاد يراها حتى أصيب الزوج بانفجار فى المخ ومات فى نفس اليوم. واضطرت الزوجة أن تعود إلى بيروت عندما أبلغها نجيب أنه لا يفكر فى الزواج. وقال نجيب إنه منذ ذلك اليوم أقسم أن لا يحب النساء المتزوجات!

ويروى نجيب الريحانى أن هذا الحادث المرعب وقع يوم الثلاثاء أيضًا، وبقى إلى آخر يوم فى حياته يتشاءم من يوم الثلاثاء.

وفى يوم الثلاثاء ٨ يونيو سنة ١٩٤٩ قال لخادمه حسن:

– حسن! أنا واثق أننى سأموت اليوم.. اليوم يوم الثلاثاء!

وبقى نجيب ينظر إلى ساعته طول اليوم!

ولكنه لم يمت طول يوم الثلاثاء.. مات يوم الأربعاء!

وقد سألت نجيب مرة عن سبب تغييره وتبديله فى النساء اللاتى أحبهن.

وقال لى: أنا لا أغير النساء.. المرأة هى التى تغيرنى!

قلت: ولكن ألاحظ أنك تحب كل أصناف النساء لا صنفًا واحدًا فقط. أنت أحببت نساء طويلات وقصيرات، سمراوات وشقراوات، مصريات وأجنبيات، مثقفات وجاهلات، نحيفات وسمينات.

قال نجيب: إننى فى إحدى مسرحياتى كتبت مشاعرى نحو المرأة وقلت: «إننى أموت فى الهواء الذى يهف من ناحية

طراطيف ذيل فساتينهن. طول عمرى محتار مين من الستات، السمينة أو الرفيعة؟ الطويلة أم القصيرة؟ السمراء أم البيضاء؟ كلهن حلوين كلهن جمالات. كل امرأة لها طابع وفيها سحر ولها طعم. أحبهن كلهن. أحب النوع من أوله لآخره. تمامًا كما تحب الفاكهة وتحتار تختار أى نوع منها. المشمش أم الخوخ. الفراولة أو المانجو. وعلى كل حال أنا عينى موش فارغة ما اتبطرش على اللى يصادفنى.. خوخة!.. مشمشة! خيارة..! بلحة.. مفيش مانع!»

وقد وصف مرة لقاءه ببديعة مصابنى وهى تغنى فى أحد مسارح بيروت: «لمحتها تمشى أمام المسرح. تسمرت قدماى فى الأرض. عيناى تركزتا عليها. شعرت أن صفيحة من الماء البارد وقعت فوق رأسى. شعرها طويل يكاد يصل إلى الأرض. عيناها فيهما صواريخ تضرب على بعد ٢٠ مترًا. شفتاها لو عصرتهما يخروا عناب. تتكلم وكأنها تغنى. وتغنى وكأنها تتكلم. خفيفة الدم. حاضرة النكتة. جريئة وكأنها تعرف أسلحة الجمال التى تحملها فى جسدها. وقفت أتأمل محاسنها. ترى هل هى لحم ودم وعظم مثلنا؟ هل تأكل وتشرب مثلنا؟ هل فى جسمها فشة وكرشة وقوانص وطحال وكبد ومرارة وبنكرياس مثلنا؟ شعرت فى تلك اللحظة أن غداءها من حبات القلوب وعشاءها من فرط رمان الأرواح، وريقها من عصير التفاح، ودموعها من ماء الورد وعرقها من شربات اللوز. وغسيل قدميها من العرقسوس!»

وعرض نجيب عليها أن تعمل فى فرقته ممثلة أولى!

وتصور أنها ستقبل على الفور، وسترتمى بين ذراعيه شاكرة له هذا الشرف العظيم، فإذا بها تقول له: دعنى أفكر!

ولكن هذا الدوش البارد لم يطفئ لهيب الحب الذى اشتعل من أول نظرة، بل زاد من اشتعال هذا الحب، ومن تصميمه على ضمها إلى فرقته! وطاردها نجيب وقال لها: أنا لا أطلب أن أضمك إلى صدرى وإنما طلبت منك أن أضمك إلى فرقتى!

قالت له بديعة ضاحكة: لو طلبت أن تضمنى إلى صدرك لقبلت على الفور! وأسرع نجيب نحو بديعة وضمها إلى صدره وبعدئذٍ قالت بديعة:

– الآن أنا مستعدة أن انضم إلى فرقتك!

وصحبته بديعة إلى القاهرة، ومثلت معه بعض المسرحيات ونالت نجاحًا كبيرًا.

وقرر نجيب أن يصحب فرقته إلى رحلة فى أمريكا الجنوبية، وعرض على بديعة أن تصحبه فى هذه الرحلة فقالت له إن لديها شروط للسفر معه. وقال لها إنه مستعد أن يقبل أى شروط. وفوجئ بها تقول إن شرطها الوحيد أن يتزوجها. وذهل نجيب من هذا الطلب. طوال عمره لم يفكر فى الزواج ولعل السبب فى ذلك أن كل النساء اللاتى أحبهن قبل ذلك كن متزوجات! وتلعثم نجيب وقال إنه يريد أن يفكر وطلب أن تعطيه فرصة للتفكير!

وصاحت فيه بديعة: خمس دقائق فقط!

واعترض نجيب: أنا عندما عرضت عليك فى بيروت أن تنضمى إلى فرقتى طلبت مهلة للتفكير!

قالت بديعة: ولكن عندما طلبت أن تعانقنى لم أطلب مهلة!

قال نجيب: لكن يجب أن تغيرى دينك الأرثوذكسى إلى دينى السريان الكاثوليك!

قالت بديعة: إننى مستعدة أن أخرج من دينى لأتزوجك.

وتم الزواج فى كنيسة السريان الكاثوليك بالقاهرة وسافرت بديعة مع نجيب إلى أمريكا الجنوبية.

ولم يكن الزواج سعيدًا رغم أن فترة الحب كانت قمة السعادة، كان الخلاف واضحاً بين شخصية الزوجين. بديعة اقتصادية ونجيب متلاف. بديعة امرأة أعمال ونجيب فيلسوف. بديعة تحب حياة الأسر ونجيب يعشق الانطلاق. بديعة تريد الزواج سجن للزوج ونجيب يريد الزواج حرية وانطلاق.

وكانت قد تبنت طفلة يتيمة فى بيروت قبل أن تتزوج من نجيب. ولما سافرت مع نجيب إلى أمريكا الجنوبية أثبت نجيب اسم جولييت فى جواز السفر المشترك باعتبارها ابنته. وعندما عاد إلى مصر احتفل بتنصيرها وتبناها رسميًا، وألحقها بالمدارس بهذه الصفة.

كانت بديعة تعتقد عندما عادت مع زوجها وابنتها إلى القاهرة أنها ستعيش فى أسرة سعيدة مترابطة. الزوج يبقى فى البيت إلى أن تجىء ساعة الذهاب إلى المسرح، ويخرجان معًا، ويؤديان

دورهما، ثم يعودان إلى البيت ويجلسان يلاعبان طفلتهما إلى اليوم التالى! وكان نجيب يتسلل من البيت ليلعب البلياردو مع أصدقائه، وكانت بديعة لا تفهم البلياردو وتكرهه. ولم تكن بديعة تتصور أن لعبة البلياردو هى مسألة هامة فى حياة نجيب، حتى أنه بعد ذلك عندما بنى لنفسه بيتاً خصص غرفة للبلياردو. وكانت بديعة تعتبر البلياردو قماراً. أليست مائدة البلياردو خضراء.. إذن هذه هى المائدة الخضراء...

وحاول نجيب أن يقنعها أن المائدة الخضراء شىء وأن مائدة البلياردو الخضراء شىء آخر. ولكن بديعة رفضت أن تقتنع، وراحت تشكو أن زوجها كسول، وأنه لا يعرف شيئاً إلا إنفاق الفلوس، وأنه لا يهتم إذا أنفق أرباحه فى ٢٤ ساعة، وعاش مفلساً كل أيام الشهر!

وطلبت بديعة مصابنى الطلاق. وعبثاً حاول نجيب أن يقنعها بأن لا تهدم العش السعيد. وقالت بديعة إن الزوج المفلس لا يصنع عشا سعيداً، وإن نجيب رجل بوهيمى لا يصلح للحب. وإنه عاشق ممتاز وزوج خائب.

وذهب الزوجان إلى كنيسة الكاثوليك السريان فى القاهرة يطلبان الطلاق. ورفضت سلطات الكنيسة منحهما الطلاق لأن المذهب الكاثوليكى لا يسمح بالطلاق. واتفق الزوجان على الانفصال. وخرجت بديعة من بيت الزوجية وأنشأت صالة بديعة

بشارع عماد الدين ونجحت نجاحًا كبيرًا لأنها كانت مديرة حازمة واقتصادية بارعة.

أما نجيب فقد عاش أيامًا فى تعاسة وعذاب وشقاء. وفكر فى أن يستأنف حياته بإنشاء فرقة هزلية كبيرة. ولكنه شعر أنه غير قادر على الضحك! بديعة استطاعت أن تضمد جرحها فى ساعات، وبقى طول حياته عاجزًا عن أن يضمد جروحه. كان يحب بديعة إلى آخر يوم فى حياته. وفى تلك الأيام أحس نجيب برغبة شديدة فى البكاء. يريد أن يبكى ويبكى الناس. ولهذا فكر أن يؤلف فرقة مسرحية تمثل روايات الدرام والمأساة واختار أعظم ممثلات مصر وممثلاتها فى ذلك الحين. ضم إلى فرقته روز اليوسف وعزيزة أمير وزينب صدقى وحسين صدقى وأحمد علام وغيرهم من كبار الممثلين الذين اشتهروا فى أدوار التراجيدى والدرام. وأنفق ألوف الجنيهات على الدعاية والإعلانات، وقرر أن ينافس فرقة يوسف وهبى وقد كانت أكبر فرقة مسرحية فى تلك الأيام.

وبدأت الفرقة بتمثيل مسرحية مترجمة اسمها «المتمردة». وفى الليلة الأولى امتلأت المقاعد والألواج والبنادير عن آخرها. وفتحت الستار وظهر نجيب الريحانى فى دور محزن أمام روزاليوسف سلطانة الدرام فى تلك الأيام..

وما كاد نجيب يفتح فمه ويقول إحدى ا لعبارات المحزنة حتى ضجت الجماهير بالضحك! وكلما اختلج صوته بالشجن وامتلأت عيناه بالدموع ارتفع الضحك وتضاعفت القهقهة!

لم يتعود الجمهور على نجيب فى أدوار البكاء والدموع، عرفوه ساخرًا ضاحكًا عابثًا فأغرقوا فى الضحك وهو يريدهم أن يغرقوا فى البكاء!

وبدأت قاعة المسرح تخلو من المتفرجين، وقدم رواية أخرى وثالثة ورابعة.. وتسلل الممثلون والممثلات عائدين إلى مسرح رمسيس. أما السيدة روزاليوسف فإنها اعتزلت التمثيل وخاصة أن شريكها الأستاذ محمد التابعى كان يعارض فى عودتها إلى المسرح، ويقول إنه لا يصح ولايجوز أن تعود ممثلة بعد أن أصبحت صاحبة مجلة كبيرة.. وأن ظهورها على المسرح سيؤثر على توزيع المجلة فى السوق.

واضطر نجيب الريحانى إلى إقفال مسرحه بعد أن أفلس تمامًا، وغرق فى الديون بينما كانت زوجته بديعة مصابنى تحقق أرباحاً هائلة لم يحققها أى كباريه فى تاريخ مصر!

وقرر نجيب أن يحترم إرادة الجماهير ويعود إلى صورته الأصلية فألف فرقة جديدة ضم إليها الممثلات والممثلين المشهورين بأدوار الضحك.. وما لبثت الجماهير أن عوضت خسائره الفادحة فى مغامرة الدرام!

ورأيت نجيب وهو يؤلف رواياته. كان يجلس مع بديع خيرى وأمامهما رواية فرنسية وبجوارها ترجمتها. وكانا يبدلان ويغيران فى الرواية الأصلية لتلائم ممثلى وممثلات الفرقة. بمعنى أنه يتوقف عند شخصية فى الرواية الأصلية ويقول هذا الدور يصلح لمارى

منيب. ويجلس المؤلفان ويضعان الكلمات التى تصلح لمارى منيب ويخرجان على أصل المسرحية، ويتذكر نجيب فى أثناء ذلك مواقف حدثت له فى حياته ومصائب وقعت له فى حبه فيضمها إلى المسرحية. وفى كل رواية من روايات الريحانى تجد جزءًا من حياته، ومن سوء حظه، ومن الإفلاس الذى صادفه، ومن الخيانات التى وقعت له، فأنت تجد قصة حياة نجيب الريحانى كاملة إذا جمعت مسرحياته إلى بعضها! بل إنك تجد فى مسرحياته بعض الأشخاص الذين عاشوا معه مثل حسن كشكش السفرجى والأسطى مدبولى والعربجى الذى كان يحب أن يركب عربته الحانطور ويفضلها على سيارته الأنيقة ماركة ماش. وتجده فى بعض المسرحيات يهزأ من بديعة مصابنى دون أن يذكر اسمها وكان يشير دائمًا إلى أزمات إفلاسه وأيام فقره. وفى إحدى مسرحياته يقول: «أنا مدين بمكانتى وفنى ونجاحى لأستاذ عظيم جدا.. هو الفقر! لا يوجد معلم فيلسوف مثله فى الدنيا.. الذى نتعلمه فى المدارس مدة ١٥ سنة يعلمه لنا الفقر فى ١٥ يومًا! ياسلام على العبقرية التى يخلفها الفقر على عباده المفلسين ذوى الجيوب الخالية والبطون الخاوية.. عبقرية تدفع صاحبها إلى المجد! ولكن بعد إيه؟ بعد أن يتبهدل ويتخرشم ويشرب قرف الدنيا كلها!»

وفى آخر سنوات حياته أحب سيدة. وكانت تدير بيته وترعى شئونه وتعنى بصحته.

وحرص نجيب أن لا يعلن عن هذه العلاقة. وفكر قبل ذلك

فى أن يعتنق الإسلام، وكان يتردد على الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر، الذى سهل له قراءة القرآن، وكان يحب أن يستمع لتلاوة الشيخ رفعت القارئ المشهور. وأخفى كل هـذا عن أقرب المقربين. وكان يؤجل هذه الخطوة من عام إلى عام.

وحاول عدة مرات أن يقنع بديعة أن تعود إليه ويستأنفان معًا حياتهما الزوجية ولكن بديعة رفضت. وبكى أمامها نجيب فى المرة الأخيرة فضحكت وهى تقول له: ما هو أنت بتمثل الدرام كويس أهوه! ومنذ ذلك اليوم انقطع عن محاولاته إلى أن مات.

وقد كان يقول للسيدة التى عاشت فى بيته أنه سوف يشهر إسلامه وتشهر هى إسلامها، ويتزوجها.

وعندما اشتد عليه المرض قرر أن يعطيها ثلث ثروته ويتنازل لها عن ملكية قصره. وأرسل يستدعى مندوب الشهر العقارى.

وحدد يوم الأربعاء ٨ يوليو سنة ١٩٤٩ ليحضر مندوب الشهر العقارى ليسجل هذا التنازل.

وجاء مندوب الشهر العقارى فى الموعد المقرر فوجد أن نجيب الريحانى أسلم الروح.

وأسرع يوسف شقيق الريحانى إلى بيته ومعه أفراد أسرته وطردوا السيدة التى كان نجيب الريحانى قرر أن يهبها القصر الذى يقيم فيه وثلث ثروته. وخرجت السيدة بفستانها فقط، ورفض الورثة أن تأخذ معها بقية ملابسها!

وما كادت تشيع جنازة نجيب الريحانى حتى تقدمت السيدة بديعة مصابنى وابنتها بالتبنى جولييت إلى المحكمة تطالبان بإقامة حسن نجيب مدير ستوديو مصر حارسًا على التركة حتى يفصل فى حقهما فى الميراث الذى كان يبلغ فى تلك الأيام مائة ألف جنيه والذى يساوى الآن أكثر من مليون جنيه.

وقضت المحكمة لبديعة مصابنى بما تريد.

واستأنف الشقيق يوسف الريحانى الحكم الابتدائى، لأن بديعة مصابنى ليست زوجته وإنما مطلقته. ولكن الحكم صدر لمصلحة بديعة لأنها انفصلت عن زوجها ولم يتم الطلاق واستمر النزاع بين الطرفين طويلاً.

وأبرزت بديعة للمحكمة بيانًا من البطريركية السريانية هذا نصه: «نحن النائب البطريركى على السريان الكاثوليك فى القطر المصرى نعلن أنه قد تم زواج السيد نجيب الريحانى ابن المرحوم إلياس ريحانى على الآنسة بديعة ابنة المرحوم حبيب مصابنى فى ١١ سبتمبر ١٩٢٤ كما هو مقيد فى سجل الزواجات صفحة ٣٣ تحت رقم ٢٩. وتلبية للطلب قد حررنا هذه الشهادة للعمل بموجبها عند الاقتضاء. إمضاء المطران إقليميس ميخائيل نحاس النائب البطريركى على السريان».

وقدم شقيق نجيب إقرارًا بخط بديعة كتبته بعد فراقها لنجيب تعهدت فيه بعدم الاشتراك فى الميراث إذا توفى قبلها، مقابل تنازله هو كذلك عن حقه.

واستمر النزاع ومات يوسف الريحانى وأصبح ابن شقيق نجيب واسمه بديع الريحانى هو الوارث الوحيد. ولم تأخذ بديعة مليمًا!

أما فيكتورين ناعوم السيدة التى عاشت مع نجيب إلى أن مات فقد سافرت إلى باريس وافتتحت محلا للأزياء فى شارع مسيو فوبرنس.

وعلقت على الجدار صورة نجيب الريحانى!

* * *

ووصف نجيب الريحانى الموت فى إحدى مسرحياته بقوله: «لا تخف من الموت! ثق أنك لن تزعل حين تموت.. لأنك مش حتلحق تزعل.. الموت كوميديا والحياة دراما! أنا أرى عزرائيل الذى يتخيله الناس بشعًا رهيبًا ممثلاً كوميديا مدهشًا، بدليل أنه يضحك الميت فتبتسم أساريره، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، بينما يبكى المولود حين يرى الدنيا لأول وهلة..!!»

وفعلاً مات نجيب الريحانى وهو يبتسم!

وقد عاش يضحك الدنيا وقلبه يبكى!

الرجل الذى عاش ألف عام!

كنا نتناول العشاء فى بيتى. يوسف وهبى ومحمد عبد الوهاب وأنا. وجلس يوسف وعبد الوهاب يتبادلان ذكريات الشباب. وسألت يوسف وهبى : كم عمرك؟ قال يوسف: عمرى ألف سنة. الأحداث التى وقعت فى حياتى تحتاج لعشرة رجال، كل واحد منهم يعيش مائة سنة. عشت حياتى بالطول والعرض. عاشرت الملوك والصعاليك وعشقت الأميرات والراقصات، وأحبتنى صاحبات الملايين والفنانات المفلسات. وأقمت فى القصور وفى غرفة فوق السطوح! عرفت الجوع، وتشردت فى شوارع إيطاليا وعشت حياة اللوردات والباشوات! ولعنت على صفحات الجرائد والمجلات كما لم يلعن أحد، ونظمت فىَّ قصائد غزل، وحملتنى الجماهير على الأعناق، ولا أظن أن زعيمًا فى العالم سمع التصفيق الداوى كما سمعته ولا استقبل استقبال الملوك الفاتحين كما حدث لى فى كل بلد عربى زرته!

وقاطعه الموسيقار محمد عبد الوهاب قائلًا: كنت مبهورًا بيوسف وهبى وأنا شاب. أذكر أننى ذهبت أنتظره فى شارع عماد الدين أمام مسرح رمسيس. ووقفت أمام باب الممثلين لألقى عليه نظرة من بعيد. وما كدت أراه حتى فقدت قدرتى على التحكم فى مشاعرى، وعدوت نحو السيارة، وأمسكت يد يوسف

وهبي وقلت له: «دعني أقبل يدك»! فسحب يوسف بك يده بسرعة وضربني بالشلوت وقال: «إمش يا ولد»!

قال يوسف وهبي وهو يضحك: أنا قلت لك إمش يا ولد لأنه سيكون لك أكبر مستقبل في الفن.. وسيحاول كثيرون أن يقبِّلوا يدك أنت!

الحب يموت من الرعب!

وامتلأت حياة العملاق يوسف وهبي بقصص الحب ومغامرات الغرام. وعرف الحب لأول مرة وعمره ١٣ سنة، وأحب فتاة صعيدية في مدينة سوهاج! كان والده يعمل مفتش ري هناك، وكانت الفتاة تتردد مع أمها على والدته. وما كاد يراها يوسف حتى جن غرامًا بها وأحبته الفتاة الصغيرة. فقد كان ولدًا جميلاً في صوته رجولة مبكرة. واتفق العاشقان على كتمان هذا الحب الصغير. وقالت له الفتاة الصغيرة: لو عرف أبي بما بيننا لقطع رقبتي! وقال لها يوسف: لو علم أبي لقتلني رميًا بالرصاص! وحرص العاشقان على أن لا يراهما أحد. ولم يشعر أحد في الأسرتين بهذا الغرام الملتهب. ثم حدث أن جاء رجل من أولياء الله اسمه الشيخ سليم الطهطاوي وأقام ضيفًا على والد يوسف وهبي. وجاءت العاشقة الصغيرة كعادتها مع أمها لتزور أم يوسف. وما كاد الشيخ سليم يرى الفتاة حتى أطبق عليها وأمسكها من كتفها وقال لها:

– أنت تعشقين يوسف ويوسف يعشقك.. وهذا حرام! وإذا لم يتوقف هذا العشق سأخبر أباك وأباه!..

وصعق العاشقان! ومات الحب من الرعب! وأصبح يوسف وهبى يؤمن إيمانًا عجيبًا بقوة الشيخ سليم الروحية وقدرته الخارقة أن يخترق القلوب ليعرف ما فى داخلها من أسرار! والعجيب أن يوسف وهبى بقى طول حياته يؤمن بأن الشيخ سليم الطهطاوى قادر على أن يصنع المعجزات.

وتوطدت العلاقة بين عبدالله باشا وهبى والد يوسف وبين الشيخ سليم، وعاش الشيخ معهم فى القاهرة عدة سنوات، ويقول يوسف: إن الشيخ سليم كان يملك قفطانًا واحدًا، وإذا دخل الحمام خرج منه بقفطان جديد!

معجزات الشيخ سليم!

وروى يوسف أنه ركب مع الشيخ سليم قطار الصعيد وجاء الكمسارى وطلب منه التذكرة فقال الشيخ: ليس معى تذكرة! وهدده الكمسارى بإلقائه من القطار إذا لم يدفع ثمن التذكرة والغرامة، ووضع الشيخ سليم يده فى جيبه وأخرجها وفيها تذكرة، وهو يقول للكمسارى: أنا الوحيد فى هذا القطار الذى معه تذكرة، ولن تجد فى القطار راكبًا آخر معه تذكرة! ويؤكد يوسف وهبى أن الكمسارى مر على جميع ركاب القطار الذين بحثوا فى

جيوبهم عن تذاكرهم فلم يجدوها! وكانت كل التذاكر فى جيوب الشيخ سليم!

وتوقف يوسف عن الحب إلى أن غادر الشيخ سليم القاهرة عائدًا إلى سوهاج. وهنا تجرأ يوسف وبدأ ينظر من النافذة ويتطلع إلى بيوت الجيران، ووجد فى نافذة بيت الجيران فتاة يونانية وصف يوسف جمالها بأنه لو وزع على كل بنات مصر واليونان لأصبحت كل واحدة منهن ملكة جمال! وبدأ يعاكسها فلم ترد عليه، ثم راح يطاردها فلم تلتفت إليه أو تحس بوجوده. ولاحظ زملاء يوسف فى المدرسة شحوبه واصفرار وجهه، وسألوه هل هو مريض؟ فأجاب إنه يحب حبًا بلا أمل! وقال له زميل منهم: أنا أعرف ساحرًا يمكنه أن يجعل هذه الفتاة اليونانية تحبك! كل ما هو مطلوب منك أن تجىء لنا بأثر منها. واستطاع يوسف أن يسرق منديل بنت الجيران وأعطاه للساحر ويقول يوسف إنه بعد بضعة أيام فوجئ بوالده يخبره أن فتاة أجنبية سألت عنه فى التليفون ثلاث مرات! وفى المرة الرابعة أمسك يوسف بسماعة التليفون فإذا هى الفتاة اليونانية التى حفيت قدماه وهو يجرى وراءها!

وسألها يوسف كيف قررت أن تحادثه؟ فقالت له: إنها فوجئت بشىء غريب فى أعماقها يدفعها أن تتصل بيوسف وأحست أنها تحبه قبل أن تتكلم معه، وقبل أن تعرف أنه يحبها.

ولا يستطيع العقل أن يقبل رواية يوسف وهبى بسهولة، ولكن

العجيب أن قصة الشيخ سليم الطهطاوى رسبت فى أعماقه، وجعلته يؤمن بوجود قوة سحرية خارقة لها قدرة أن تسيطر على الإنسان وتسيره وتغير مجرى حياته. والعجيب أن هذا اليقين لم يتزعزع طول حياته، وبرغم أسفاره واطلاعه الواسع وحياته الصاخبة، فقد كان يؤمن بالسحرة والدجالين والذين يدَّعون قراءة الغيب... وكلما وقع فى هوى جديد ذهب إلى ساحر أو ساحرة يطلب أن يعرف مستقبل هذا الغرام! ولقد قال له الساحر الذى جمع بينه وبين ابنة الجيران اليونانية إنه سيتزوجها ويرزق منها بثلاثة أولاد!

وسافر إلى إيطاليا ليدرس التمثيل وطلب من اليونانية الحسناء أن تنتظره حتى يعود، فيتزوجان، ويعيشان فى التبات والنبات، ويخلفان الصبيان والبنات.

البقية فى حياتكم!

ولم تمضِ بضعة شهور على وجوده فى إيطاليا حتى تلقى خطاباً من حبيبته اليونانية واسمها كاليوبى، وكان المظروف مجللاً بالسواد، وكان الخطاب نفسه مجللاً بخطوط سوداء سميكة، وهى نوع الخطابات التى كان يتبادلها الناس فى تلك الأيام فى المآتم والأحزان.

وقرأ الخطاب..

عزيزى يوسف.

لا تنزعج! لم يمت أحد من أسرتنا. الذى مات هو حبنا الكبير. اضطررت أن أعود إلى خطيبى السابق ميتشو الذى قطعت علاقتى به من أجل حبنا. مرض أمى الذى يكاد يفتك بها وعجزى عن أن أجد نفقات العلاج وثمن الدواء اضطرنى أن أذبح حبنا الوليد لتعيش أمى. أرجو أن تسامحنى. حبى لأمى هزم كل حب آخر فى الدنيا.

حبيبتك السابقة كاليوبى..

كان هذا الخطاب أشبه بصاعقة انقضت على الشاب العاشق! لقد خاصم أباه وأمه من أجلها. سرق ساعة والده الذهبية لينفق عليها. ترك بيت الأسرة ليقيم معها فى غرفة فوق السطوح. هاجر إلى إيطاليا ليتعلم التمثيل ويعود إلى مصر ليتزوجها. لم يقتنع أن مرض أمها هو الذى جعلها تذبح الحب! كان من الممكن أن تكتب له فيعود فورًا إلى مصر ليساعدها فى علاج أمها! هذه الخائنة لابد أن يقتلها! لابد أن ينتقم منها! سيركب أول باخرة ويذهب إليها ويغمس سكينة فى قلبها!

وفوجئ ببابه يدق عند الفجر. واقتحم البوليس الإيطالى الباب، وقال إنه متهم بجريمة قتل! وصعق فقد كان يفكر فى تلك اللحظة فى قتل حبيبته الخائنة. ثم عرف أن الممثلة التى تقيم فى الغرفة المجاورة وجدت مذبوحة فى غرفتها، وبقى يوسف فى السجن يومين، ثم أفرجت الشرطة عنه بعد أن ثبت أن القاتل هو كومبارس زميل لها يعمل فى نفس الفرقة.

البرنس رمسيس!

ثم التقى بعصابات المافيا وكانوا يسيطرون على أندية القمار فى روما، واحترف اللعب بالنيشان والتصويب بالسهام، وذات ليلة صادفه الحظ وربح أربعين ألف لير. وتحول فى لحظة من صعلوك إلى مليونير. وقرر أن يعيش كأصحاب الملايين لمدة شهر فى مصيف فى مدينة ميلانو. ووضع على رأسه طربوشاً، ووضع فوق عينه «مونوكل»، ودخل إلى أكبر فندق فى المصيف مدعيًا أنه البرنس رمسيس أحد أغنياء الأمراء فى الشرق!

وأقبلت عليه الغانيات والفاتنات، وكانت بينهن ممثلة الإغراء الإيطالية فيرا، التى وقعت فى غرامه، وأقنعته بأن يترك جناحه فى الفندق والإقامة معها فى شقتها، وتظاهر يوسف بالتردد والتمنع، ولم يكن بقى فى جيبه إلّا ما يكفى للإقامة فى الفندق بضعة أيام، ولهذا انتقل الأمير رمسيس إلى شقة ملكة الإغراء.. وكان المنتجون والمخرجون الإيطاليون يتهافتون فى تلك الأيام على عرض الدور الأول فى أفلامهم على فيرا. وكانت ملكة الإغراء تشترط دائمًا أن يمثل أمامها الشاب المصرى.. وظهر يوسف فعلاً فى ثلاثة أفلام إيطالية!

ولاحظ يوسف أن ملكة الإغراء بدأت تتصرف فى حياتها تصرفات لا يستطيع أن يقبلها كرجل شرقى، وطلب منها أن تمتنع

عن استقبال أحد فى شقتها. وقالت ملكة الإغراء أنها فنانة وإنها حرة تستقبل ما تريد من الرجال!

غرام وانتقام!

وترك يوسف حياة البذخ واستأنف حياته المتواضعة من جديد.. وتعرف بفتاة اسمها لويز لاند. وهى فتاة أمريكية شقراء طويلة القامة، كانت تدرس الأوبرا فى ميلانو، وأصبحت مطربة فى الأوبرا الإيطالية. وهامت مطربة الأوبرا بالشاب المصرى وفوجئ يوسف بأن صديقة لها اسمها ميريل باكستون وقعت فى نفس الوقت فى غرامه. وحار يوسف بين العاشقة الشقراء والعاشقة السمراء، ثم قرر أن يهرب من السمراء فعقد قرانه سرا على مطربة الأوبرا الشقراء. وما كادت الأمريكية السمراء تعلم بأن يوسف تزوج صديقتها حتى جن جنونها، وقدمت بلاغا للبوليس تتهم يوسف بأنه اغتصبها!

وقبض البوليس على يوسف، وفوجئ بوالد ميريل باكستون الأمريكى يحضر من أمريكا ومعه واحد من كبار المحامين الأمريكيين ليباشر الادعاء ضد يوسف. وعرض المحامى على يوسف أن يتنازل عن القضية إذا تزوج ميريل! وقال يوسف إنه مستعد أن يتزوج ميريل لأن الشرع الإسلامى يسمح له بزوجة ثانية وثالثة ورابعة.. ولم تقبل الأمريكية السمراء شريكا، وتنازلت عن الادعاء وحفظ التحقيق.

وعاد يوسف وهبى إلى القاهرة ومعه زوجته الأمريكية لويز، وشاركته فى كفاحه لبناء مسرح رمسيس. ولكنها كانت امرأة غيورة. عندما تراه يمثل دور الحب أمام السيدة روز اليوسف، فى غادة الكاميليا تتهمه بأنه يحب السيدة روزاليوسف وأن الذى تراه على المسرح بين أرمان دوفال ومرجريت جوتيه هو حب حقيقى وليس تمثيلاً مسرحيًا! وإذا رأته يقوم بدور العاشق أمام زينب صدقى نكدت عليه الحياة وقالت له: إن كل شىء فيه كان يصرخ ويؤكد أنه عشيق زينب صدقى، وعندما رأته يمثل مع عزيزة أمير دخلت إلى غرفتها وأشهرت على عزيزة مسدسها وهددتها بأنها ستقتلها رميًا بالرصاص إذا وضعت قدمها مرة أخرى فى مسرح رمسيس. وفعلاً خرجت عزيزة أمير فى تلك الليلة من المسرح ولم تعد أبدًا!

وملأتها نفس الشكوك ضد فاطمة رشدى وأمينة رزق. وفى كل ليلة كانت تخرج مسدسها وتوجهه إلى يوسف وهبى وتقول له إنها لا تطيق أن تعيش وهى ترى زوجها فى كل يوم فى أحضان ممثلة.. وإنها إما تقتله أو تقتل الممثلات أو تقتل نفسها!

وعبثًا حاول يوسف وهبى أن يقنع لويز أن صناعته التمثيل. ولكى ينجح يجب أن يندمج فى الدور، ويجب أن يشعر المتفرج أنه يعشق حقيقة. ولكن الزوجة الفنانة لم تطق أن ترى زوجها ينطق بكلمات الهوى والعشق والغرام أمامها.. والعجيب أن لويز لم تكن تعرف العربية، ولكنها كانت تسمع الكلمات فى عيون يوسف وهبى والممثلات اللاتى يقفن أمامه على المسرح.

ثلاث نساء فى يوم واحد!

وسافرت زوجة يوسف الأمريكية إلى لندن، لتقوم بدور فى أوبرا فاجنر «لوهينجرين» على مسرح الأوبرا الملكية فى لندن، ونجحت نجاحًا كبيرًا، وتصور يوسف أن هذا النجاح سوف يخفف من غيرتها الجنونية، وأن الأوبرا سوف تشغلها عنه، ولكن الذى حدث أن لويز لاند عادت إلى القاهرة وهى أشد إصرارًا أن يكون يوسف وهبى لها وحدها!

وفى ذلك الوقت التهبت قصة الحب بين يوسف وهبى وعزيزة أمير، واستمر الحب برغم طردها من مسرح رمسيس، وقد شعر الحبيبان بأن الحب تضاعف نتيجة الحرمان، ولم تتحمل لويز هذا الحب العاصف الذى نكد عليها الحياة فسافرت إلى إيطاليا وأرسات إليه محاميًا إيطاليا يطالبه بأن يدفع نفقة لها، لأنها قررت الإقامة فى إيطاليا، ولن تعود إلى القاهرة مرة أخرى! وأرسل يوسف وهبى لها فى الحال ورقة الطلاق وتنفس الصعداء!

واستمر قلب يوسف وهبى يخفق، تدخل امرأة لتخرج امرأة، وتنتهى قصة حب لتبدأ قصة حب. عاش حياته فى مغامرات مثيرة، وكان قلبه لا يشبع، وساعده على ذلك أنه كان الفتى الأول على المسرح، وكانت تنهال عليه خطابات الحب من كل مكان! وكان فى بعض الأيام يلتقى بثلاث نساء فى يوم واحد! واحدة

يفطر معها فى فندق ميناهاوس، وواحدة يتناول الشاى معها فى شبرد، وواحدة يلتقى بها بعد انتهائه من التمثيل!

وروى لى أن سيدة اتصلت به تليفونيًا وعرف أنها من أسرة كبيرة، ودعته إلى الحضور إلى قصرها فى مصر الجديدة بعد انتهائه من تمثيل السواريه بشرط أن يجيء مرتديًا ملابس الكردينال فى مسرحية كرسى الاعتراف.. وحددت له الموعد والعنوان.. وبعد انتهاء السواريه ارتدى يوسف وهبى ملابس الكردينال وقاد سيارته إلى قصر السيدة، ورأى فى استقباله خدمًا وحشمًا، وقابلته سيدة رائعة الجمال، وأمضى معها ثلاث ساعات اعترفت له بحبها، وأنها تعيش تحلم به، وتتمنى أن تضحى بكل شيء من أجل أن تبقى معه إلى آخر يوم فى الحياة!

وكان يوسف سعيدًا بهذا العشق الجديد إلى أن قالت له إنها زوجة رجل من أصحاب النفوذ والسلطان. وما كاد يوسف وهبى يسمع هذا حتى أصيب بالرعب، وأفاق من الحب، وأسرع يركب سيارته ويعود بها منطلقًا إلى مسرح رمسيس ليغير ملابس الكردينال ويرتدى ملابسه العادية، وفى أثناء انطلاقه بالسيارة صدم رجلًا يركب دراجة وألقاه على الرصيف، واشتد رعبه، وتصور ماذا سيحدث إذا قبض عليه البوليس وهو بملابس الكردينال، وماذا سيقول إذا سأله البوليس أين كان؟!.. وحمد الله أن أحدًا لم يره.. ورفض بعد ذلك أن يرد على تليفونات السيدة صاحبة النفوذ والسلطان!

قالت له حبيبى يوسف، فضربها قلمًا على وجهها !

وروى لى أنه كان يستعد لتمثيل دوره فى إحدى المسرحيات، وفوجئ بوجيه فى الخمسين من عمره يقتحم غرفته فى المسرح ويقول له إنه قرر أن يقتله لأنه اكتشف أن بينه وبين زوجته علاقة غرامية !

وأنكر يوسف أنه يعرف هذه السيدة، ولكن الزوج أخرج من جيبه حزمة من الخطابات وقال له : هذه الخطابات وهى بخط يدك وتوقيع يوسف وهبى ! وأمسك يوسف أحد هذه الخطابات وقال للزوج: هذا ليس خط يدى وهذا ليس إمضائى !

وقال الزوج: ولكن زوجتى اعترفت أن هذه الخطابات منك وأنها تحبك وأنت تحبها !

قال يوسف: إن زوجتك كاذبة..

وصحب الزوج يوسف وهبى فى سيارته إلى قصره، وما كادت الزوجة ترى يوسف وهبى حتى ارتمت بين ذراعيه وهى تقول:

– حبيبى يوسف! أنقذنى من هذا الوحش!

وبهت يوسف من هذا الادعاء الغريب، ولطمها على وجهها فسقطت على الأرض.. ثم اعترفت بأن كاتب هذه الخطابات هو ابن عمها، وأنها أرادت أن تحميه من بطش زوجها فاتهمت يوسف وهبى بأنه العاشق المفتون!

ويروى يوسف وهبى هذه القصة ويقول: هذه هى المرة الأولى فى حياتى التى كنت فيها بريئًا مائة فى المائة!

العاشقة المليونيرة

وفى تلك الأثناء عشقته السيدة عائشة فهمى، وكانت أغنى سيدة فى مصر وكانت متزوجة من طبيب، ثم رأت يوسف على المسرح وأحست أن كل كلمة حب ينطق بها على المسرح موجهة إليها! ومنذ ذلك اليوم كانت تحضر إلى المسرح كل ليلة! وتحجز أحد الألواج وتجلس فيه من أول فصل إلى أن تسدل الستار على الفصل الأخير. وأحيانًا كانت تحضر حفلات الماتينيه والسواريه! وإذا سافرت الفرقة لتمثل على مسرح فى الاسكندرية سافرت وراءها إلى الاسكندرية! وإذا سافرت الفرقة إلى سوريا ولبنان وفلسطين وليبيا وتونس والسودان والبرازيل والأرجنتين كانت عائشة فهمى هى ظل يوسف وهبى الذى لا يفترق عنه!

ودفعت المليونيرة، مائة ألف جنيه لزوجها حتى يطلقها! وتم الطلاق وتزوجت أغنى امرأة فى مصر بالممثل الكبير. وعقد الزواج فى مسجد باريس. وكانت عائشة فهمى أكبر من يوسف وهبى بستة عشر سنة ولم تكن جميلة، ولكنها كانت مستعدة أن تفرش الأرض بالذهب ليمشىَ فوقها يوسف وهبى. وضعت كل أموالها تحت تصرفه. جاء وقت كانت تستأذنه إذا أرادت أن تشترى فستانًا أو تقتنى قطعة من الماس الثمين! كان المال هو مالها وحدها، ولكنها كانت تجد متعة أن يشعر الرجل الذي تحبه

أنه هو صاحب المال يتصرف فيه كما يشاء.

ووضعت السيدة عائشة فهمى مئات الألوف من الجنيهات تحت تصرف يوسف وهبى، فاشترى سبعة عشر فدانًا من الأرض التى أصبحت الآن حى العجوزة والدقى والمهندسين، وبنى فوقها مدينة رمسيس، وقد سبقت فى فكرتها مدينة والت ديزنى فى أمريكا بعدة سنوات. وكانت المدينة تحوى دارين للمسرح وقاعة للسينما وسينما فى الهواء الطلق واستوديو للسينما ومحطة إذاعة ومدينة ملاهى. ودعت عائشة يوسف وهبى للإقامة فى قصرها الضخم المطل على شاطئ النيل وكوبرى أبو العلا وشارع أبو العلا.. وقد بنى هذا القصر شقيقها الوحيد على فهمى أغنى شاب فى مصر، وقد تزوج من سيدة إنجليزية أطلقت عليه الرصاص وقتلته فى شهور الزواج الأولى، وحكمت محكمة جنايات لندن ببراءة الزوجة القاتلة، وسافرت يومها عائشة فهمى لتدافع عن سمعة شقيقها القتيل، ولكن الرأى العام البريطانى انتصر للقاتلة الإنجليزية وأدان القتيل المصرى! وفوجئت عائشة بالزوجة مرجريت فهمى تحضر إلى مصر تطالب بحقها فى الميراث، ورفضت المحاكم المصرية دعواها لأن الشريعة تحرم أن يرث القاتل القتيل!

جهنم فى قصر

ولم يسكن على فهمى يومًا واحدًا فى البيت الذى بناه، وبقى خاليًا، إلى أن فتح أبوابه ليقيم فيه يوسف وهبى. كان القصر

رائعًا بأثاثه المستورد من أكبر محلات الأثاث فى أوربا. كان فى القصر خادمات فرنسيات، وخدم إيطاليون، وطباخ سويسرى وثلاثة من الجناينة وسائقان وسايسان وبواب سودانى وكمريرة يونانية. كان قصر دوق أو كونت أو لورد أكثر مما كان قصر يسكنه فنان الشعب. وكان جدار القصر مليئًا بالصور الفنية التى لا تقدر بثمن رسمها أكبر المصورين العالميين تتوسطها صورة كبيرة ليوسف وهبى فى ملابس الكردينال!

وكان يوسف وهبى يقول لنا إن حياته فى هذا القصر كانت جحيمًا لا يطاق! خناقات كل يوم وكل ليلة. أنت تأخرت على الغداء لأنك كنت فى موعد غرام. امرأة فاجرة طلبتك فى التليفون وكان صوتها يفيض وقاحة وقلة أدب. خطاب غرام وصل باسمك وفتحته وإذا به من سيدة توقع اسمها باسم س... من هى سين هذه ياسعادة البيه؟ المسرحية انتهت الساعة الثانية عشرة عند منتصف الليل، والساعة الآن الواحدة والربع. والمسافة بين مسرح رمسيس وبين البيت عشر دقائق فأين كنت طوال الخمس والستين دقيقة التى غبتها من البيت؟ وفوجئ يوسف أن زوجته حولت القصر إلى إدارة مخابرات وبوليس حربى ومباحث عامة! السائق يجيء بأخبار يوسف بك. السفرجى يتجسس على محادثات يوسف بك. الخادمة تتسمع مكالمات يوسف بك التليفونية! ممثلون وممثلات قاموا بدور كتابة تقارير يومية عما حدث بين كواليس فلانة، وكيف أن يوسف ابتسم لفلانة، وضغط على يد علانة، وهمس فى أذن ترتانة. وشعر يوسف أن زوجته تعد

عليه أنفاسه وأنه يختنق فى بحر من الذهب. وانتهز فرصة خناقة قالت فيها عائشة فهمى: أنا لا أحتملك تعمل ممثلاً وتسهر كل ليلة! أنا أريدك أن تجلس بجانبى كملك على العرش! كل شىء فى القصر طوع أمرك وتحت خدمتك.. وبهدوء قام يوسف وهبى وأمسك بشعر عائشة فهمى وضربها علقة تركت آثارًا وكدمًا على جسم أغنى امرأة فى مصر، ورمى فى وجهها كل ما فى جيبه من أوراق البنكنوت وألقى فى وجهها الدبوس المرصع بالماس والياقوت الذى أهدته له، ورمى فى وجهها علبة السجائر الذهبية المرصعة، وداس بقدميه على زراير القميص المرصعة، وترك العدد الهائل من ملابسه، ولم يأخذ معه قميصًا واحدًا ولا جوربًا واحدًا ولا بيجامة واحدة.

ووصل إلى الباب الحديدى وصرخ بأعلى صوته: لن أدخل هذا القصر حتى لو أصبحت شحاذًا!

المفلس عندما يحب!

ومشى على قدميه على كوبرى أبو العلا حتى وصل إلى شارع عماد الدين ودخل أحد البنسيونات الصغيرة واستأجر غرفة فيها باسم مستعار!

وعاش يوسف أيامًا وشهورًا من الإفلاس والحرمان... وفى تلك الأيام العصيبة أحب السيدة سعيدة منصور وهى زوجة أحد كبار الأثرياء فى الوجه البحرى، وكان لها ثلاث بنات. وطلبت

السيدة الطلاق لتتزوج يوسف وهبى؛ وعارضت الأسرة، وأرسلت من يحاول خطف سعيدة من القاهرة، وهددوها بالقتل. ولكن سعيدة أصرّت أن تضحى بكل شيء وتنازلت عن كل فدان تملكه من أجل أن تتزوج من يوسف وهبى. وكانت المحكمة أعلنت إفلاس يوسف وهبى، بعد أن أصبحت ثروته غارقة فى الديون. وقال يوسف لسعيدة: هل تتزوجينى وأنا مفلس؟ قالت: إننى قررت أن أتزوجك عندما تأكدت أنك أفلست، ولو كنت مليونيرًا لما تزوجتك!

وكان زواجًا سعيدًا دام أربعين سنة.

وقال لى يوسف وهبى: إن سر هذا النجاح أن سعيدة صبرت سنوات على مغامراتى وعلى نزواتى وعلى طيشى وعلى إدمانى على القمار وعلى إفلاسى. وتحملت فقرى وبؤسى ولم تندم أنها تركت الثروة والجاه والمجوهرات، وتحملت مقاطعة أسرتها لها وكانت تقول لى أنت زوجى وأخى وابنى وصديقى وكل شيء فى حياتى. وأشعرتنى وأنا مريض أننى أقوى رجل فى العالم. وجعلتنى أحس وأنا فى الثمانين من عمرى أننى لازلت فى الثلاثين. وكانت تحاول إقناعى أننى ابنها الصغير وأنها أمى الكبيرة. وبعد سنوات غير قليلة شعرت أننى شبعت من كل نساء العالم، وأننى جائع لسعيدة وحدها. ورأيت فيها كل امرأة أريدها وكل جمال يهرنى. كانت تفهمنى دون أن أفتح فمى، وكانت تسمعنى دون أن أنطق بكلمة، وكانت إذا نامت فى غرفة مجاورة تحس بأننى استيقظت دون أن أنادى باسمها!

وقال يوسف وهبى إنه بعد زواجه بسنة جاء محام من طرف السيدة عائشة فهمى إلى زوجته السيدة سعيدة يعرض عليها ستين ألف جنيه ذهبًا فى مقابل أن تترك لها يوسف وهبى! وكانت الستون ألف جنيه ذهبًا يومئذ تساوى ستة ملايين جنيه هذه الأيام، وقالت سعيدة: لو عرضوا علىّ ملايين الأرض كلها من أجل ظفر يوسف وهبى لرفضت!

وفى الوقت نفسه عرضت عائشة فهمى على يوسف وهبى أن تهبه خمسمائة فدان فى مغاغة، فى أحسن أرض فى مصر، وتسجل العقد فى المحكمة المختلطة، ورفض يوسف وهبى قائلاً: إن الملايين التى كانت معى أفقرتنى، والملاليم التى فى جيبى أسعدتنى. وأنا لا يمكن أن أعود إلى الجحيم. ما قيمة ثروة قارون وأنت تقيم فى الجحيم.

وتكررت المحاولات ولم تيأس عائشة فهمى إلى أن ماتت دون أن تعود إلى الحياة مع صاحب الملايين!

وكانت تقول إن الأيام التى أمضتها مع يوسف وهبى كانت أيامًا فى الجنة، حتى وهو يضربها «علقة» كل يوم.

من الجحيم إلى الجنة!

وفشلت كل المحاولات لاستعادة يوسف وهبى إلى صاحبة الملايين وتفريقه عن زوجته سعيدة. وهكذا انتقل يوسف من جحيم المليونيرة إلى جنة سعيدة منصور!

وكان يوسف وهبى يؤكد إلى آخر يوم فى حياته أن الشيخ سليم الطهطاوى العالم الروحانى قال له وهو شاب صغير: اسمع يا ابنى يايوسف عبدالله وهبى. فى حياتك سوف تحب ألف امرأة وسوف تحبك ألف امرأة. ثم تجىء امرأة وتحبك أكثر مما تستطيع أن تحبك ألف ألف امرأة وسوف تجد فيها ما لا تجده فى ألف امرأة!

وكان يوسف يقول لنا: وهذا ما ضاعف إيمانى بقدرة الشيخ سليم الخارقة فقد وجدت فعلاً زوجتى سعيدة وكانت رقم الألف.. والواحد فى قلبى! وطردت الألف امرأة، وبقيت وحدها فى قلبى!

* * *

وعندما مات يوسف وهبى كانت آخر كلمة نطق بها على فراش الموت:

— سعيدة!

أنـــور وجـــدى

النجم الذى جاع ونام على الرصيف
ثم أصبح يملك نصف مليون جنيه

كنت أحرر صفحة المسرح والسينما. وذات يوم زارنى شاب أنيق واسع العينين أسود الشعر وقال إنه من هواة التمثيل، وطلب منى أن أستعمل نفوذى لدى يوسف وهبى لكى يلتحق بمسرح رمسيس. ولم يكن لى أى نفوذ عند يوسف وهبى، ولكنى خجلت أن أظهر أمام هذا الشاب المبتدئ أننى صحفى صغير لا حول لى ولا قوة، فجلست وكتبت خطابًا إلى صديقى يوسف وهبى أقدم له صديقى.. وهنا توقفت وسألته: ما اسمك؟

قال: محمد أنور يحيى وجدى!

قلت له: هذا الاسم ليس فيه موسيقى ولا يصلح للسينما أو المسرح وإنما يصلح لموظف فى الأرشيف فى مصلحة الأموال المقررة.

قال: هل ينفع أنور وجدى؟

قلت: نعم على وزن يوسف وهبى!

ومضيت أكتب الخطاب أوصى فيه بالفنان الشاب.

ولكن يوسف وهبى ألقى الخطاب فى سلة المهملات وألقى بصديقى أنور وجدى خارج المسرح.

ومضى أنور يتسكع على أبواب المسرح ويحاول عبثًا الدخول، وبقى يقطع شارع عماد الدين ذهابًا وإيابًا، ينظر إلى الممثلين والممثلات يدخلون من الباب الخلفى فى مسرح رمسيس، ويرفع يده بالتحية، وقليل منهم كان يرد عليه أو يلتفت إليه.

وذات مساء رأى ازدحامًا أمام مسرح رمسيس، وسيارة المطافئ تحاول إطفاء حريق داخل المسرح، واندفع أنور إلى المسرح مع رجال المطافئ، وراح يطفئ معهم الحريق، ويقاوم النيران بشجاعة وجرأة استلفتت نظر الأستاذ قاسم وجدى مدير مسرح رمسيس فى تلك الأيام. وسأله عن اسمه. ودهش أن اسمه «وجدى» مثله، واقترح عليه أن يشترك مع الكومبارس فى مسرحية يوليوس قيصر فى مقابل قرشين صاغ كل ليلة! وقبل أنور المبلغ التافه بدون مناقشة، وكان هذا المبلغ يكفيه للإفطار والغداء والعشاء. وكان يفطر بطبق فول مدمس ورغيف فى الصباح، ويتغدى بطبق فول فى الظهر ويتعشى بطبق فول فى المساء! وكان سعيدًا بهذه الثروة الطائلة التى نزلت عليه من السماء بعد أن طرده أبوه من البيت بعد أن طردته المدرسة العبيدية، لأنه أغرى زميليه معه بالهروب والسفر إلى أمريكا ليعملوا فى السينما فى هوليوود. واندس الفرسان الثلاثة فى باخرة فى بورسعيد واختفوا بين الركاب، ولكن أحد ضباط الباخرة ضبطهم، واكتشف أن ليس

معهم تذاكر السفر، وليس فى جيوبهم إلاّ بضعة ملاليم، وسلمهم إلى البوليس، وأبلغ البوليس الأمر إلى المدرسة العبيدية فقررت فصل أنور وجدى بصفته زعيم العصابة.

وبعد أكثر من عام اتصل بى أنور وجدى وقابلته، وقال: إنه التحق بمسرح رمسيس وإنه يمثل دورًا هامًا فى رواية يوليوس قيصر، ودعانى إلى مشاهدة الرواية، والكتابة عنها فى المجلة.. وذهبت إلى مسرح رمسيس فرأيت أنور يظهر فى المسرحية من الفصل الأول إلى الفصل الأخير. واكتشفت أنه لم يفتح فمه طوال الرواية. لم يقل كلمة واحدة. كان دوره أن يدخل خلف يوليوس قيصر، ويخرج خلف يوليوس قيصر، وقد وضع يده على قبضة سيف، لم يستعمله طوال الرواية!

وحِرت ماذا أفعل؟ إن دور أنور وجدى هو «كومبارس» فى الرواية، وقد جئت وأنا أظن أنه يقوم بدور يوليوس قيصر أو أنطونيو، أو بروتس على أقل تقدير. وبعد الرواية وجدت أنور ينتظرنى أمام الباب، ومعه صورة بروفيل له، وقد كتب تحتها بخطه «نجم جديد فى سماء مسرح رمسيس»!

وقلت له إنه من غير المعقول أن أكتب عنه وهو لم يفتح فمه طوال المسرحية، وإذا بأنور يبكى بدموع حقيقية، ويقول لى إنه لو نشرت صورته فى المجلة فسيرتفع أجره من قرشين صاغ فى الليلة إلى خمسة قروش. وأعترف أن دموع أنور هزتنى، وقد تكلم بصراحة غريبة عن جوعه، وجلست وكتبت نقدًا لمسرحية

يوليوس قيصر، وحرصت أن أكتب ثلاثة أسطر عن يوسف وهبى، وثلاثين سطرًا عن أنور وجدى، ولم ينشر الأستاذ التابعى المقال، ولم يقتنع أن المسألة مسألة حياة أو موت لفنان شاب.

وقاطعنى أنور، وكان المسكين يظن أن نشر صورته وكتابة بضعة سطور عنه ستجعله يصبح حديث المدينة، وأن فتيات مصر سيفرحن به عندما يشاهدن صورته، وقد كانت صورته جميلة فعلاً !

ومضت الأيام ، ثم أصبح أنور كومبارس ثابتًا فى مسرح رمسيس، وارتفع أجره من قرشين صاغ فى الليلة إلى خمسة قروش، ثم إلى عشرة قروش ثم إلى خمسة عشر قرشًا وبعد خمس سنوات جاء أنور إلى مكتبى بالمجلة يحمل نسخة من مجلة الصباح، وكانت مجلة مشهورة تهتم بأخبار الفنانين وقال لى فخورًا: هل رأيت صورتى؟ ورأيت صورة أنور فى فيلم الدفاع وسألته عن المبلغ الذى تقاضاه. فقال أنور إنه تقاضى أكبر أجر تقاضاه ممثل سينمائى فى مصر؟ فسألته عن المبلغ فقال: ستة جنيهات! وسألته ماذا فعل بالمبلغ فقال: اشتريت به ثلاث بدل! وكانت البدلة التفصيل فى تلك الأيام تساوى جنيهين اثنين.

وجلس أنور يروى لى ما يعانيه من جوع وحرمان وهو يضحك!

وقد عاش أنور قصة كفاح رهيبة مريرة. أمضى أكثر أيامه الأولى دون أن يذوق طعامًا، وكان يتناول الإفطار على حساب

محمود المليجى، ويتناول طعام الغداء على حساب الممثل سعيد أبو بكر، ويتناول طعام العشاء على حساب النجم استفان روستى. وأحيانا كان لا يجدهم فيمضى أيامًا دون أن يذوق طعامًا. وذات مساء أغمى عليه فى شارع عماد الدين ، وأسرع المارة يلتفون حوله لإسعافه، واقترح واحد منهم نقله إلى الإسعاف فى تاكسى. وهنا فتح أنور عينيه وقال: ياناس بدل ما تودونى الإسعاف أحسن تودونى مطعم الحاتى آكل لحمًا أو احملونى إلى مطعم أبو ظريفة آكل طعمية!

عرف حياة التشرد والبؤس والفاقة، وذاق مرارة الجوع والحرمان، وكثيرًا ما كان لا يجد أجر غرفة يبيت فيها، فكان يذهب إلى مقهى الفيشاوى ويجلس عليه وينام فوق الكرسى إلى أن يطرده الجرسون. ثم عرف عاملة مانيكير اسمها نيللى، وعشقته عشقًا مجنونًا، وكان يذهب إلى بيتها فى غمرة ويتناول الإفطار، ثم يذهب إليها فى وقت الغداء ويتناول الغداء، وكانت كثيرة المشاجرة معه وتغار عليه من إعجاب بنات الحى، وتطرده من بيتها فيعود إلى حياة الجوع والتشرد من جديد.

وكان والده يعطف عليه أحيانًا، ويدعوه إلى بيته. وينصحه أن يترك الفن الذى جعله.. يشحذ.. كما كان يقول، ويصبح مثله تاجر قماش، وكان أنور يرفض أن يترك الفن الذى يهواه، فيضطر والده أن يطرده من جديد.

وكان أنور يقص علىّ هذه القصة ويقول إنه كان يتظاهر بأنه

سوف يطيع أمر والده حتى ينتهى من تناول الغداء، وعندئذ يعلن العصيان، فيعود أبوه إلى حرمانه من دخول البيت!

وكانت أمنيته فى تلك الأيام أن يصل مرتبه الشهرى إلى ١٥ جنيهًا، ينفق منها عشرة جنيهات على الملابس، وجنيهين على التاكسيات، وثلاثة جنيهات على الطعام والمسكن! وكان حريصًا أن يبدو دائمًا أنيقًا، وكان يتصور أن أناقته هى التى ستدفعه إلى المجد أو كما قال لى مرة: إنه سوف يصعد جبل المجد عن طريق الترزى!

ثم أصبح يبذل جهدًا مضاعفًا فى عمله، وكان يحفظ جميع أدوار الممثلين والممثلات، وكان يفرح إذا مرض واحد منهم حتى يمثل دوره. وذات ليلة غابت ممثلة صغيرة، وبحث يوسف وهبى عن ممثلات فلم يجد، وإذا بأنور وجدى يتنكر فى ثوب امرأة ويقوم بدور الممثلة الصغيرة ولم يكتشف أحد من الجمهور أن هذه الممثلة الفاتنة هى رجل اسمه أنور وجدى!

وحدث أن قرر يوسف وهبى أن يسافر إلى أمريكا مع فرقته المسرحية. وهرول أنور إلى يوسف وهبى يتوسل إليه أن يكون أحد أعضاء الفرقة فى هذه الرحلة. ورفض يوسف وقال إنه سيأخذ فقط كبار الممثلين وذلك اختصارًا للمصاريف!

وألحَّ أنور وبكى وتوسل، ورق قلب يوسف، وقبل أن يصحبه إلى أمريكا بشرط أن لا يأخذ مليمًا واحدًا كأجر طوال هذه الرحلة، وأن يمثل، ويعمل فى إدارة المسرح، ويعمل عاملاً

للملابس ونجارًا وفرّاشًا فى نفس الوقت. وقبل أنور هذه الشروط القاسية وقال إن كل ما يطلبه أن يأكل وينام، ووافق يوسف وهبى.

وكان السبب فى قبول أنور لهذه الشروط القاسية المهينة، أنه تصور أن هذه هى الطريقة ليحقق حلمه بالسفر إلى أمريكا، ليصبح نجمًا سينمائيًا فى هوليوود، وكان يعتقد أنه يشبه الممثـل روبرت تيلور فاتن النساء فى تلك الأيام. وسافر إلى أمريكـا ولم يهتم به أحـد، ولم يلفت نظر فتيات ونساء العم سام، وعاد بعد انتهاء الرحلة مقهورًا محسورًا يائسًا.

وعاد أنور يعيش على الطعمية والفول المدمس، وكان ينام على دكة خشبية فى كواليس المسرح، بعد أن عقد صداقة حميمة مع بواب المسرح، فإذا انصرف الممثلون والممثلات فى آخر الليل، فتح له البواب ودخل أنور وكانت بعض الليالى قارصة البرد، ولم يكن يملك معطفًا، ولا يجد بطانية فى المسرح، وكان يسحب بعض مناظر الروايات القديمة ويغطى بها جسمه وينام.

وأصيب أنور بسبب هذا الحرمان المرير بعقدة اسمها «الفلوس». توهم أن الفلوس هى كل شىء فى الحياة. أصبح يريد أن يجيد فى فنه ليشتهر، ويريد أن يشتهر ليكسب الفلوس. وأذكر فى تلك الأيام أن السيدة زينب صدقى كانت نجمة فى المسرح القومى، واعتادت أن تقيم مآدب فى شقتها تدعو إليها زملاءها وزميلاتها فى المسرح وكبار الكتاب والصحفيين، ودعت

أنور وجدى الممثل الصغير بالفرقة للحضور، وفرح أنور بهذه الدعوة لأنه سوف يتعشى مجانًا. وتطرق حديث الموجودين عن الحب والمجد والصحة والمال، أيهم أهم للإنسان.

وقالت زينب صدقى: المهم الصحة أولا.

وهنا قفز أنور من مقعده، وشب واقفًا على قدميه وصاح:

– صحة إيه ياست زينب!

ثم رفع أنور يديه إلى السماء وقال: يارب أعطنى نصف مليون جنيه وسرطان!

وصرخت زينب فى وجهه قائلة: اسكت يامجنون!

وانفجر الحاضرون يوبخونه ويلعنونه وهو يصر على أن الفلوس أهم من الصحة وأهم من الحب وأهم من المجد، وأنه بالفلوس يستطيع أن يحصل على الحب وعلى الشهرة والمجد والنعيم!

وقام فى أول الأمر بتمثيل الأدوار الشريرة، ونجح بسرعة فى هذه الأدوار وأصبح أى مخرج يجد رواية فيها لص أو نصاب أو محتال يسرع للاتفاق مع أنور وجدى الذى يقتل والابتسامة على شفتيه. وتألق أنور ثم انتقل من دور الشرير والقاتل وسفاك الدماء إلى أدوار الفتى الأول، وإذا به يستولى على إعجاب رواد السينما بسرعة غير عادية، وينطلق كالصاروخ من فيلم إلى فيلم. وانهالت عليه الأموال بالألوف. وأصبح متعهدو الأفلام فى البلاد العربية يتعاقدون فورًا على أى فيلم فيه أنور وجدى. فى يوم

وليلة أصبح نجماً، وأصبح يستطيع أن يدعو عشرة أشخاص ليتناولوا العشاء على حسابه فى فندق شبرد، وتزوج الممثلة الجميلة إلهام حسين، ثم اكتشف أنها لا تصلح لأن تكون زوجة مليونير وطلقها. ثم أحب النجمة ليلى مراد حبا مجنوناً، وعرض عليها الزواج فرفضت، وألح عليها، وطاردها فى كل مكان، واشترطت أن تعمل فى أى شركة أخرى غير شركة زوجها، فقبل أنور. واشترطت أن تدفع شركة أنور أجر كل دور تمثله فى أفلامه مقدماً، وقبل أنور. واشترطت أن يبقى حسابها فى البنوك مستقلا عن حساباته ووافق أنور. وتزوجا. وكتبت الصحف والمجلات عن أسعد زوجين فى العالم، وعن الحب الذى اشتعل بعد الزواج.

وفى سنة ١٩٤٧ ألفت قصة فاطمة بناء على طلب أم كلثوم، واشترطت أن أختار المخرج والممثلين والممثلات، ووافقت أم كلثوم ومحمد رشدى بك رئيس مجلس إدارة شركة مصر للسينما، واخترت أنور وجدى ليمثل الدور الأول أمام أم كلثوم. وعلم أنور أننى رشحته فجاء إلى مكتبى يشكرنى وقال إن أمنيته كانت دائماً أن يمثل الدور الأول أمام أم كلثوم. قلت له: إننى لم أنسَ المحاولة التى قمت بها عندما رشحتك لتمثل مع يوسف وهبى منذ ١٥ سنة! قال وهو يضحك: يبقى خازوق لو كان ستوديو مصر صديقك مثل يوسف وهبى! ولكن الله سلم ورحب ستوديو مصر بأنور وأعطاه نصف أجر أم كلثوم.

وبعد أسابيع جاء أنور يحتج على هذه الرواية، ويقول إنه

يفضل أن يموت من الجوع ولا يمثل هذا الدور. كيف تجعلنى أموت قبل انتهاء الفيلم بربع ساعة وتبقى أم كلثوم على قيد الحياة إلى نهاية الفيلم. وقلت له إن هذا هو سياق القصة، وإن المخرج أحمد بدرخان وافق عليها ووضع السيناريو. قال أنور إن أم كلثوم أكبر منه بعشر سنوات على الأقل، فكيف تعيش وأموت أنا؟ أنا لا أريد أن أموت. أريد أن أعيش حتى ينتهى الفيلم. قلت: إننى آسف لأننى لا أستطيع أن أغير أو أبدل نهاية الفيلم.

وأرسل لى أنور زوجته فى ذلك الوقت ليلى مراد لإقناعى بأن أبقى أنور حيًّا، وقلت لها: إن القصة لا تستقيم إلا إذا مات أنور لأنه غرر بممرضة فقيرة واستولدها ولدًا وكتب عقد زواج عرفى وهرب منها بعد أن سرق العقد، تحت ضغط أسرته الكبيرة!

وفى هذه اللحظة دخل أنور وقال: إنه يفضل ألّا يمثل إطلاقًا على أن يقتله المؤلف فى موعد غير مناسب! وقال: إننى بصراحة متشائم أن أموت فى هذا الفيلم. إننى أتصور أننى سأموت حقيقة إذا مت فى الفيلم. إننى شاب صغير وحرام أن تقتلنى وأنا فى ريعان الشباب، وتترك أم كلثوم العجوز على قيد الحياة. وبكى أنور، وأعترف أننى ضعفت أمام دموعه، وجلست أعدل خاتمة الرواية، وجعلته يعيش إلى نهايتها!

ولكن عزرائيل لم يقتنع بما اقتنع به مؤلف فيلم «فاطمة».. فإن خاتمة روايات الحياة تختلف كثيرًا عن خاتمة روايات الأفلام!

ومات أنور فعلًا قبل وفاة أم كلثوم بعشر سنوات، ولم تغير

نهاية الفيلم الجديدة قرار القدر!

وكان أنور قد مثل الدور، ودعانى إلى شقته الفاخرة فى عمارة إيموبيليا ودعا معى على أمين وكامل الشناوى وعددًا من الأدباء والكتاب.

ولاحظنا أنه يعيش كما يعيش أصحاب الملايين. أثاث فاخر أنيق، وبذخ وإسراف، وخدم وحشم، وكان أنور يبدو أشبه باللورد، فقد كان المسكين يصلح ليقوم بدور لورد أو مليونير أكثر كثيرًا من دور الفتى المفلس المتشرد.

وانتحى بى أنور جانبًا، وسألته هل هو سعيد بهذا الزواج؟ فقال: جدا جدا جدا! ولكن أنور لم يكن سعيدًا. كان يبدو كرجل خائف. خائف من شىء مجهول. كان أشبه برجل يقف فى قمة الهرم، ويتصور أن شيئًا مجهولاً سوف يدفعه إلى الأرض! وكان يريد أن يكون غنيا جدا ليستطيع تكوين «الاحتياطى» اللازم ليقيه جوع الشيخوخة. وكان يتصور أن كل شىء فى حياته مؤقت. زواجه مؤقت، ثروته مؤقتة، نجاحه مؤقت. كان أشبه براكب قطار اقترب من محطة الوصول، فراح يتطلع من النافذة، ثم يرتب حقائبه، ثم يجمع صحفه استعدادًا للنزول! كان يضحك وهو يحاول أن يخفى النظرة الحزينة فى عينيه، ودعوته أن يجىء إلى مكتبى فى الصباح لنتحدث فى مشكلته على انفراد لأنه كان يخفض صوته، ويتلفت حوله فى جزع، خشية أن تسمع ليلى مراد ما يقول!

وجاء إلى مكتبى. وفاجأنى بأنه أتعس زوج فى العالم! وأن أكبر غلطة ارتكبها فى حياته أنه تزوج من ليلى مراد. إن غلطتى أننى تزوجت من نجمة مشهورة، تعتقد أنها أشهر منى. تزوجت امرأة غنية تعتقد أنها ليست فى حاجة إلى أموالى. وقد قامت بيننا خلافات. إن ليلى تعمل مع شركات سينمائية وأنا صاحب شركة سينمائية، وبينى وبين هذه الشركات منافسات، وأى فيلم تظهر فيه ليلى يضرب أفلامى وأنا أخشى أن تنجح وتقضى على أفلامى، وأخشى أن تفشل وبذلك أفقد النجمة التى أعتمد عليها!

قلت: إن هذا كلام جديد! أنت قلت لى إنها اشترطت عليك أن تمثل مع شركات أفلام منافسة لشركتك وأنك قبلت هذا الشرط.

قال: نعم قبلت لأننى كنت أحبها جدا.

وسألته: والآن؟

قال: أحبها.. إنما أحب نفسى أيضًا. أحب مصلحتى. أحب شركتى!

وعندما ضيقت عليه الخناق اعترف أنه كان يحلم أن يرزق بولد من ليلى، يحمل اسمه ويرث ثروته. ولكن ليلى لم تنجب له ولى العهد الذى تمناه!

وشعرت أنه يحبها ويغار منها! ويتمنى أن تكرس حياتها وفنها له ولشركته بغير شريك! واستطرد وذكر أنها كلما وقع بينهما خلاف جمعت ملابسها وغادرت البيت.

وكان أنور يتمنى أن زواجه سيجعل ليلى مراد زوجة مطيعة تعامله معاملة السيد الحاكم الآمر الناهى. وكانت شخصية ليلى القوية تقف فى مواجهته مواجهة الند للند، وكان يتهم أهلها بأنهم هم الذين يحرضونها على العصيان! وطلقها بعد ذلك. ثم ندم على طلاقها، لأنه تصور أن طلاقها سوف «يؤدبها»! ولكن ليلى رفضت أن تتأدب وتركع أمام الرجل الذى تحبه، واضطر أنور أن يركع. ولم يطق أنور الركوع طويلاً، فعاد وطلقها من جديد. وعاد يندم من جديد ويبكى. فقد كان يظن أنها عاقر لا تنجب، وإذا بليلى مراد تتزوج من جديد وتنجب ولدًا. وجن جنون أنور. وكان دائمًا يقول: مصيبتى أننى لا أستطيع أن أعيش معها ولا أستطيع أن أعيش بدونها!

واشترى أنور قطعة أرض وبدأ يبنى عليها العمارة التى كان يحلم بها، فى شارع مظلوم أمام جريدة الأهرام الجديدة، وكانت بالقرب من شقته بعمارة إيمو بيليا، وكان فى كل يوم ينزل من شقته ويقف أمام العمارة ليشهدها وهى تعلو وتعلو، وفى أثناء بناء العمارة شعر بآلام المرض الخبيث. وحار الأطباء فى أول الأمر، ورفضوا أن يخبروه بالحقيقة المفجعة. واشتدت الآلام المبرحة، واضطر الأطباء أن يخبروه بنصف الحقيقة، وأنه مريض بالكلى، وفرضوا عليه أن يأكل الطعام المسلوق، وكان يصرخ ويقول: معقول بعد أن ذقت الفراخ وتمتعت بالديوك الرومى أعود إلى أكل الفول النابت!

وقال له الأطباء إنه فى حالة إلى كلية جديدة، وكان أنور

يتعذب من آلامه ويقول إنه مستعد أن يدفع نصف مليون جنيه لمن يعطيه كلوة!

وظهر أن السرطان أصاب الكليتين!

واستمر يذهب إلى عمارته صباح كل يوم. وكان يقف أمامها ويقول:

بقى ده كلام يارب! عندما كنت فقيرًا لا أجد ثمن الرغيف كانت صحتى كالحديد. وعندما انهالت علىّ الفلوس أصبحت لا أستطيع أن أذوق لقمة العيش.. هل معقول يارب أن تحملنى إلى سطح عمارة إيموبيليا، ثم ترمينى من السطوح!

وكان يتحدث عن الماضى أكثر مما يتحدث عن المستقبل! كان يضحك من سخرية القدر به، لأنه كان فى الماضى يمر أمام المطاعم وليس معه ثمن الطعام الفاخر. واليوم يدخل المطاعم الكبرى وليس معه معدة تتحمل الطعام الفاخر. وكان يقول لى: أضعت شبابى بحثًا عن الحب، فلما التقيت بالحب لم أجد الشباب. وحرقت دمى وأعصابى بحثًا عن الفلوس، فلما جاءت الفلوس ذهبت الحياة! إننى مستعد الآن أن أعود فقيرًا وأجوع من جديد وتعود لى صحتى! خذوا العمارة واعطونى صحتى وشبابى!

كان فى بعض الأحيان يتصور أنه لن يعيش. فيقرر أن ينفق كل شىء: ماله وصحته وأعصابه. ثم فجأة فى غمرة هذه السعادة الصناعية يتوهم أنه أصبح قويا وسيتغلب على الموت، فيبدأ يحسب حساب ماله وصحته وأعصابه. وهو لا يدرى ماذا يفعل.

إنه يتصرف كرجل محكوم عليه بالإعدام، يأمل فى إيقاف التنفيذ. ثم يأمل فى تأجيل التنفيذ، ثم يأمل أن يكون قلب عشماوى رقيقًا، وهو ينفذ فيه حكم الإعدام! كان فى أيامه الأخيرة يعيش مع اليأس والأمل، كان يمزج حديث الحياة مع حديث الموت، وينتقل من وصف عمارته الجديدة إلى وصف مقبرته الجديدة! وكان أصدقاؤه يتصورون فى بعض الأحيان أنه يمثل الموت، ولكنه فى الواقع كان يموت حقيقة.. يموت تدريجيا. وكان فى أيامه الأخيرة يتحدث بسخرية عن المال الذى جمعه والشباب الذى أنفقه.. عن محاولاته للوصول إلى سماء الفن ويقول:

– كنت أدعو الله فى شبابى أن يأخذنى الله إلى سماء الفن، أن أصبح نجمًا من النجوم. ويظهر أن دعائى لم يسمع جيدًا. إن كل شيء يدل على أننى صاعد إلى السماء بحق وحقيق!

وكان يضحك.. وأصدقاؤه يبكون!

كان شخصية عجيبة. يثور ثم يغضب، يبكى ثم يضحك، يقرر أن يقتل فى الصباح ناقدًا لأنه هاجم أحد أفلامه، وفى المساء يدعو نفس الناقد لتناول العشاء.

وكان خفيف الروح يملأ الجلسة ضحكا ومرحًا، ثم ينقلب إلى وحش مفترس، على استعداد أن يضرب كل الحاضرين. وبعد أن يضربهم يعتذر لهم ويأخذهم بالأحضان!

كان قلبه طيبًا، وكانت الفلوس هى نفطة ضعفه الوحيد. وعندما جاءت الفلوس ذهب أنور وجدى!

مُؤسّسَة صناعَة السّينما فى مصر
طُرِدَت مِنَ المسرَح!..
أحبَّت أربَع مَرّات وَفشلَت ثَلاث مَرّات

كانت مفيدة محمد غنيم فى التاسعة من عمرها، هوايتها المجنونة أفلام السينما. حلمها الوحيد أن تصبح ممثلة سينما. كل قرش يدخل جيبها تشترى به تذكرة لمشاهدة فيلم. أحيانًا تشهد الفيلم الواحد ثلاث أو أربع مرات. وكانت لسذاجتها تتوهم أن أصحاب دور السينما هم الذين يصنعون الأفلام. وذهبت إلى مسيو راينسى صاحب سينما إيديال الشعبية بحى عابدين وطلبت منه أن يظهرها فى أحد الأفلام، وضحك صاحب السينما وقال لها: إن الأفلام تصنع فى هوليوود لا فى مدينة القاهرة!!

وكبرت مفيدة وأصبحت فى سن مبكرة ممشوقة القد رائعة الجمال. ورآها أحد رجال السياسة وهام بها، وتزوجها، وطلب إخفاء أمر الزواج حتى لا تعلم زوجته الأولى، وقبلت مفيدة أن تدخل إلى حياة الرجل الكبير من الباب الخلفى، ثم لم تلبث أن ضاقت بالزواج السرى، ووعدته أن تخفى سر هذه العلاقة إلى الأبد. وبرَّت مفيدة بوعدها، وصعد السياسى إلى المناصب الكبرى، وفعلاً لم تفتح مفيدة فمها وتقول اسمه الكبير إلى أن

ماتت ومشى الرجل الكبير فى جنازتها!

ورآها بعد ذلك أكبر تاجر قطن فى مصر، وهام بها، ووضع كل نقوده تحت أقدامها، وطاف بها عواصم العالم، وكان يصحبها إلى عزبته فى السنبلاوين، وترتدى ملابس الرجال، وتركب حصاناً أشهب تطوف به مزارعه الشاسعة. ولم يكن حلم مفيدة أن تكون فارسة ولا صاحبة ملايين، كان حلمها الأكبر أن تكون ممثلة سينما!

وذات يوم ذهبت مع تاجر القطن الكبير إلى مسرح رمسيس، ورأت يوسف وهبى وروز اليوسف على خشبة المسرح، وبهرتها الأضواء، وسحرها التمثيل وتصورت نفسها واقفة مكان روزاليوسف، ويوسف وهبى يركع أمامها يغازلها بأحلى عبارات الحب والغرام.. وخرجت من مسرح رمسيس وقد عدلت أن تكون ممثلة سينما فى هوليوود وقررت أن تكون ممثلة فى شارع عماد الدين الذى يبعد عنها بضع دقائق!

وفوجىء تاجر القطن الكبير بمفيدة تقول له إنها تريد مسرحًا كمسرح يوسف وهبى، وإذا لم يكن فى إمكانه أن ينشىء المسرح، فعليه أن يشترى يوسف وهبى نفسه! وظن المليونير أن مفيدة أصيبت بلوثة من الجنون، وحاول أن يهدئها بالرحلات، ويشفى جنونها بالمجوهرات... ولكن مفيدة أصرت على أن تكون خليفة روزاليوسف.

وذات يوم جلست مفيدة وكتبت الخطاب التالى ليوسف وهبى.

عزيزى يوسف بيه.

قرأت فى الصحف أنك ترحب بأن تدخل بنات العائلات المسرح. ولقد رأيتك تمثل أمام السيدة روزاليوسف فى رواية غادة الكاميليا. كنت رائعًا فى تمثيلك. وتمنيت أن أكون أنا الواقفة أمامك أسمع كلماتك عن الحب التى هى أشبه بشدو البلابل. إننى أهوى التمثيل، ولكننى لا أستطيع أن أحضر إلى مسرح رمسيس للقائك. ولهذا أرجوك إذا سمح وقتك أن تحضر إلى منزلى فى الساعة الثانية عشرة ظهر يوم الجمعة لترانى، ولتحكم بنفسك إذا كنت أصلح للتمثيل أم لا..

المخلصة مفيدة محمد غنيم

وصل هذا الخطاب الأزرق المعطر إلى يوسف وهبى فى مسرح رمسيس. كان يختلف عن كل خطابات الإعجاب التى يتلقاها «مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ التمثيل فى مصر». ورأى فى الخطاب ترفعًا، وثقة بالنفس، وأحس أنه خطاب غرام أكثر مما هو خطاب طلب استخدام.

وفى الموعد المحدد كان يوسف وهبى بكل أناقته يدق جرس باب شقة مفيدة، وفتحت مفيدة الباب، وشهق يوسف فقد كانت أجمل كثيرًا مما تخيلها، وكان فى صوتها سخونة ونعومة ورقة، وأحس وهو يلمس يدها أن أصابعها الطويلة تعانقه. ودعته إلى الصالون، وقال يوسف وهو يجلس على المقعد: أظن أننى حضرت فى الموعد؟ قالت باسمة: تأخرت دقيقة! ونظر إليها فوجدها

ترتدى فستانًا أنيقًا وتتحلى بمجوهرات ثمينة فقال لها: هل تصورت أنى سأحضر فى الموعد الذى حددته بنفسك! قالت مفيدة: كنت واثقة أنك سوف تحضر.. الآن أريد أن أسألك هل أصلح للتمثيل على المسرح؟ قال يوسف: تصلحين لكل شىء!

وفعلا استطاعت مفيدة أن توقع فى شباكها يوسف وهبى الذى دوخ النساء من الجلسة الأولى ووافق أن يضمها إلى مسرحه، واشترطت عليه أن تقوم بدور البطولة فوافق فى الحال. وأصبح يتردد عليها صباح كل يوم، وألف لها خصيصًا رواية «الجاه المزيف» وقال لها إن اسم مفيدة محمد غنيم لا يصلح للنجوم، وأطلق عليها اسم «عزيزة أمير».. وجعل اسم بطلة الجاه المزيف عزيزة وهى عروس خجول!

ثم انقطع يوسف وهبى عن زيارة عزيزة والاتصال بها فقد انشغل بالاستعداد لمسرحية جديدة.

وهنا أترك يوسف وهبى يروى ما حدث.

«ذات ليلة بعد انتهاء عرض مسرح رمسيس وتناولى العشاء فى مطعم الكورسال، ذهبت إلى منزلى، وقبل أن يتسرب النوم إلى جفونى سمعت طرقات شديدة على الباب وقمت مذعورًا لأجد أمامى السيدة مفيدة التى اندفعت إلى داخل المنزل، وأخرجت من صدرها رزمة كبيرة من الأوراق المالية، وقالت لى:

– خذ دول!..

وسألتها: «إيه دول»! قالت: خمسة آلاف جنيه. خذهم.

أخرج بهم مسرحيتى الجاه المزيف! وسألتها: هل هذه نقودك؟ قالت: لا إنها نقود المليونير تاجر القطن أخذتهم من جيب جاكتته وهو نائم! قلت لها: إنه سيبلغ البوليس ويقبض علينا نحن الاثنين! قالت: لن يجرؤ!

وخشيت من الفضيحة وانتابنى القلق، وبسرعة ارتديت ملابسى وطلبت من مفيدة أن تنتظرنى عشر دقائق. وخرجت واتجهت إلى بيت مفيدة فى هدوء الفجر، وما وصلت إلى الشارع حتى اصطدمت برجل يجرى كالمجنون ويصرخ بدون وعى:

– مفيدة..! مفيدة..! مفيدة!

وناديته باسمه. فتوقف مذهولاً وصاح: مين؟ آه يوسف! يوسف بيه. الحقنى مفيدة هربت من البيت وأنا نائم.

قلت له: اطمئن.. مفيدة عندى.

قال المليونير فى ذهول: بتقول عندك؟ وراحت تعمل إيه عندك!

قلت: فى الحفظ والصون!

وارتمى الرجل بين يدى باكيا وهو يقول: أنا كنت صديق المرحوم والدك. حرام عليك يا مفيدة! وبعد دقائق قليلة كنا فى منزلى، وأول ما فعلته أن سلمته مبلغ الخمسة آلاف جنيه فلم يهتم به واندفع إلى الحجرات يبحث عن مفيدة. ولكن مفيدة اختفت ولم يعثر عليها، واسترد الرجل الخمسة آلاف جنيه ولكنه فقد مفيدة..

وظهرت عزيزة أمير فى مسرحية الجاه المزيف وتألقت، وذهل النقاد من أن تبدأ ممثلة ناشئة هذه البداية الكبيرة، ولم يعرفوا أن يوسف وهبى يقوم بتدريبها يوميًّا فى بيتها وأنه قرر أن يصنع منها روزاليوسف جديدة!

واغتاظت فاطمة رشدى فقد كانت تعتقد أنها خليفة روزاليوسف الوحيدة. وحدث فى إحدى الروايات أن كانت تمثل أمام عزيزة أمير، وكان دور فاطمة يقتضى أن تضرب عزيزة أمير ضربًا خفيفًا، وإذا بفاطمة تنتهز الفرصة وتنهال ضربًا وصفعًا على عزيزة أمير أمام الجمهور، ودهش يوسف وسأل فاطمة كيف تفعل هذا، فردت فاطمة رشدى أنها اندمجت فى دورها ونسيت نفسها! ولم تنس عزيزة أمير هذه العلقة طول حياتها!

وأحست زوجة يوسف وهبى الأجنبية بقصة الغرام العنيف بين زوجها وعزيزة أمير. فدخلت إلى غرفة عزيزة فى المسرح، وأخرجت مسدسها من حقيبة يدها وصوبته إلى رأس عزيزة أمير وقالت لها: اخرجى من هنا فورًا.

وقامت عزيزة أمير وخرجت ومشت وراءها زوجة يوسف وهبى والمسدس ملتصق بظهر عزيزة إلى أن خرجت من مسرح رمسيس!

ولم تعد عزيزة أمير إلى مسرح رمسيس إلا بعد أن طلق يوسف وهبى زوجته الإنجليزية.

والتحقت بفرقة عكاشة التى كانت تمثل على مسرح حديقة

الأزبكية ثم استقالت منها.

وعاد جنون السينما من جديد، وسافرت إلى باريس، والتقت بقليني فهمى باشا وكان يكبرها بأربعين عامًا.. وما كاد يقول لها إنه صديق مدير شركة باتيه السينمائية الفرنسية حتى شعرت أنها أمام رودولف فالنتينو معبود النساء فى تلك الأيام!

وصحبها قليني فهمى باشا إلى شركة باتيه، ورحب بها مدير الشركة ثم قامت بعدة تجارب أمام الكاميرا، وهنأها مدير الشركة وقال لها إنها ستكون نجمة سينمائية مشهورة! وحدد لها اليوم التالى لإمضاء العقد. وذهبت عزيزة فى اليوم التالى فاعتذر مدير الشركة عن عدم مقابلتها، وفى اليوم الثالث قالوا لها إنه غير موجود، وفى اليوم الرابع قالوا إنه سافر إلى أمريكا. وذهبت إلى الفندق الذى يقيم فيه قليني فهمى باشا تستنجد به فعلمت أنه عاد إلى القاهرة!

وظهر أن مدير شركة باتيه تصور أن قليني فهمى باشا سيشترك فى تمويل الفيلم، فلما أخبره قليني باشا أنه يشجع الفن شفويًّا عدل عن التعاقد مع عزيزة أمير.

وعادت عزيزة إلى مصر حزينة ولكنها لم تيأس. إنها مصممة أن تنتج فيلمًا سينمائيًّا تكون هى بطلته ولا ينقصها إلا النقود...

العمدة يحب!!

وإذا بأحد أصدقائها يقول لها إن عمدة من أعيان الصعيد شاهدها عندما كانت تمثل فى مسرح رمسيس ويريد أن يتزوجها!

قالت عزيزة: ولكنى لا أعرفه ولم أره طول حياتى.

وعاد الصديق ومعه شاب طويل أسمر باسم وقدمه لها:

– أحمد بك الشريعى عمدة سمالوط!

ودهشت عزيزة. كانت تتصور العمدة رجلا يرتدى العمامة والجبة والقفطان فى الخمسين من عمره.

وقالت له عزيزة: هل حضرتك ابن العمدة!

قال أحمد الشريعى بك: أنا العمدة نفسه!

وبحلقت عزيزة فى الشاب مذهولة. وتضاعفت دهشتها عندما وجدته يتكلم الفرنسية ويتصرف كما يتصرف شاب عاش طول حياته فى أوربا مع لكنة صعيدية!

وفاجأها الشاب بقوله: أريد أن أتزوجك!

قالت ضاحكة: أول القصيدة كفر!

قال لها: بل أول القصيدة... إيمان!

وطلبت عزيزة مهلة للتفكير. وحدد لها أحمد الشريعى ٢٤ ساعة لترد الرد النهائى. واستنجدت عزيزة بأصدقائها

العديدين وخرجوا يستقصون ويجمعون المعلومات عن أحمد الشريعى، وعادوا يقولون لها إنه أكبر أولاد الشريعى باشا الذى كان يملك ألوف الأفدنة، وأنه من أعيان الصعيد، وأن فيه كل ما تحلم به فتاة فى مصر من جاه وحسب ونسب ومال وقصر فى الزيتون! وإذا بعزيزة تفاجئهم وتقول لهم: سأتزوجه حتى ولو كان لا يملك مليماً واحداً! وجاء أحمد الشريعى فى الموعد المحدد فقالت له عزيزة: وافقت على الزواج.. متى تريد أن نتزوج؟

قال عمدة سمالوط: الآن!

واستدعى المأذون وعقد القران!

وفوجئت عزيزة بثورة أسرة زوجها على هذا الزواج.. الأسرة العريقة رأت أن زواج ابنها الشاب من ممثلة هى إهانة لا تغتفر.. ولم يقتصر الغضب على أسرة العريس، بل امتدت إلى كل أسرة فى الصعيد. أسرة شعراوى وسلطان، وأبو رحاب. وقيل لعزيزة أمير إن أسرة الشريعى ستتقدم بطلب الحجر على الشاب أحمد الشريعى بحجة أنه «سفيه» والدليل على سفاهته أنه تزوج من ممثلة! وقالت عزيزة لأحمد الشريعى أنه لا يهمها إذا جردوه من أمواله كلها وعاشت معه فى غرفة على السطوح!

وقيل لعزيزة أمير إن بعض شباب الصعيد أقسموا أن يقتلوها دفاعًا عن شرف الصعيد الذى لوثه هذا الزواج!

ولزمت عزيزة بيتها، وأصيبت بالمرض وبقيت أيامًا فى فراشها، وأراد زوجها أن يسليها فاشترى لها آلة عرض ١٦

ملليمترًا لتشاهد الأفلام التى ترغب فى رؤيتها. ثم اشترى لها آلة لتصوير أفلام السينما. وألفت عزيزة أمير رواية عن قصتها مع أحمد الشريعى ودعت صديقتيها أمينة رزق وأمينة محمد وبعض أصدقائها للتمثيل فى هذا الفيلم العجيب. وحمضته فى شركة كوداك بالقاهرة، وأقامت سهرة فى بيتها ودعت أصدقاءها لمشاهدة الفيلم الذى لم يستغرق سوى خمس دقائق. وكان فيلمًا صامتًا، ومليئًا بالصور المهزوزة، لا تعرف أوله من آخره، ولا تفهم معناه ولا مغزاه! وكان المفروض فى الفيلم أنه فيلم درام، ولكن الذين شاهدوه أغرقوا فى الضحك واعتبروه فيلمًا كوميديًا!

وأرادت أن تعود إلى المسرح، وعارض زوجها أن تظهر زوجة عمدة سمالوط على المسرح ويغازلها الممثلون، وأصرت عزيزة على الظهور على المسرح، وقال لها زوجها إنه يخشى أن يقتلها المعارضون فى زواجها، ولا توجد وسيلة لحماية حياتها وهى واقفة على المسرح، والأضواء مسلطة عليها من كل مكان. وقال لها إنه مستعد أن يساعدها ماليًا فى إخراج فيلم كبير.

مخرج... باللقمة!

واستعانت بالفنان استفان روستى الذى أخرج لها عدة مشاهد ولكنها لم تكوّن فيلمًا سينمائيًا. ثم سمعت عن وجود مخرج تركى فى القاهرة اسمه «وداد عرفى» واتفقت معه على أن يخرج لها فيلمًا

باسم «يد الله». وكان المخرج عصبيًا إذا غضب أثناء التصوير رمى القبعة على الأرض وداسها بقدمه عدة مرات، أو يجذب شعر رأسه ويلطم خديه بشدة، أو يشتم عزيزة والممثلين والممثلات باللغة التركية. وكانت هذه التصرفات الجنونية تثير ضحك الممثلين والممثلات، فكان يتضاعف غضب المخرج وداد عرفى ويترك العمل عدة أيام، وتذهب عزيزة أمير تسترضيه وتتوسل إليه وتعطيه نقودًا حتى يتفضل ويقبل العودة إلى الإخراج.

وكان فى العقد شرط غريب وهو أن تتعهد عزيزة أمير بأن تقدم يوميًا للمخرج طوال إخراج الفيلم وجبات الطعام الثلاث، وثلاث علب سجائر ماركة ديمترينو، وست زجاجات بيرة الأهرام، بخلاف الأجر المتفق عليه!

ولاحظت عزيزة أن المخرج يطيل ويعيد ويسوف ويؤجل فى إخراج الفيلم، حتى اكتشفت أنه لا يريد أن ينتهى الفيلم ما دام يأكل ويشرب ويدخن مجانًا! وهددته بإلغاء التعاقد فأسرع فى إتمام الفيلم بعد عشرة شهور، وتم عرضه فى حفلة خاصة فكان فضيحة أثبتت أن المخرج التركى يجهل ألف باء السينما والتصوير، وأن عزيزة أمير هى القروية التى اشترت الترام!

ولم تيأس عزيزة وقررت أن تحاول من جديد، وتبدأ فيلمًا جديدًا. وسمع طلعت حرب باشا بإصرارها على هذه المغامرة التى ستلتهم أموالها وأموال زوجها، وذهب إلى عزيزة ينصحها بالعدول عن جنونها والعودة إلى التمثيل فى فرقة عكاشة التى يرعاها.

ورفضت عزيزة نصيحة الاقتصادى الكبير، وقالت له إنها مستعدة أن تخسر كل مليم تملكه ويملكه زوجها من أجل إخراج أول فيلم مصرى!

قال لها طلعت حرب: ذنبك على جنبك! أنا نصحتك أن لا تلقى نفسك فى البحر حتى لا تغرقى، وأنت مصممة على الغرق!

قالت له: تأكد يا طلعت بك أننى سأعوم!

وعامت عزيزة، واستعانت بالفنان استفان روستى من جديد وبذلت محاولات جبارة لتخرج من الفسيخ شربات، ولتحول الفيلم الذى لا معنى له ولا مغزى إلى فيلم حقيقى. وبعد كفاح مرير أتمت عزيزة الفيلم وأطلقت عليه اسم ليلى. واستأجرت سينما متروبول وراء محلات شيكوريل وعرضت الفيلم. ودعت فى حفلة الافتتاح طلعت حرب باشا. وبعد انتهاء الفيلم دوت القاعة بالتصفيق كالرعد، وتقدم طلعت حرب وقال لها: مبروك.. ألف مبروك!

وكان هذا أول فيلم مصرى، ونال نجاحًا كبيرًا شجع كثيرات من الفنانات على تأليف شركات سينمائية لإخراج أفلام.. فظهرت آسيا وبهيجة حافظ وراقصة اسمها إفرانز وسيدة اسمها شريفة وهبى ومارى كوين واحتكرت النساء السينما فترة من الوقت!

وعاشت عزيزة قصة كفاح رهيبة لا تنتهى من فيلم حتى تبدأ

فيلمًا جديدًا. كانت المنافسة شديدة. وبعد أن كانت وحدها فى سوق السينما ازدحمت السوق بالمنافسين والمغامرين والهواة. وهمدت عزيزة.. وفى وقت من الأوقات تراكمت عليها الديون حتى كادت تسقط تحتها، ولكنها قاومت وغامرت حتى استطاعت أن ترفع رأسها من جديد!

وفى سنة ١٩٣٨ اشتد ضغط أسرة الشريعى على زوجها، واضطر أحمد أن يرضخ بعد أن قاوم ١١ عامًا متواصلة. وذات يوم فوجئت عزيزة بورقة الطلاق. وشعرت أن أسرة زوجها هزمتها وسحقتها وداست عليها بالأقدام، وقررت أن ترد على هذه الصفعة القاتلة وإذا بها تتزوج من مصطفى الشريعى شقيق أحمد الشريعى!

وأحدث هذا الزواج دويًا كالقنبلة!!

الشرط العجيب!

وكان مصطفى الشريعى شابا هادئًا وديعًا يهوى الموسيقى ويجيد العزف على الكمان، وفى يوم زواجهما اشترط العريس شرطًا غريبًا: احذرى أن تفتشى جيوبى.. أنا لا أطيق أن يضع أحد يده فى جيوبى!

وعجبت عزيزة لهذا الشرط العجيب، واستمر الزوجان فى حياة سعيدة دامت سبع سنوات. لم تفكر فيها عزيزة مرة واحدة

فى مخالفة الشرط العجيب الغريب، وهو أن لا تفتش جيوب مصطفي. وذات ليلة استيقظت من نومها ووجدت زوجها مستغرقاً فى نوم عميق، وسمعت صوتاً فى داخلها يقول لها:

– يا عزيزة! فتشى جيوب زوجك!

وقامت على أطراف أصابعها واتجهت إلى حيث علقت جاكتة زوجها، ووضعت يدها فى الجيب الداخلى فوجدت ورقة، وفتحت الورقة وقرأتها وارتعشت الورقة بين أصابعها كانت عقد زواج! اسم الزوج زوجها مصطفى الشريعى واسم الزوجة امرأة أخرى!

وكادت تسقط على الأرض ثم تساندت إلى الحائط، وخرجت إلى غرفة ثانية وجلست تقرأ الورقة من جديد مرة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة لتتأكد أنها لا تحلم، وأن الذى فى يدها هو ورقة عقد زواج لا كابوس.

وانتظرت حتى استيقظ زوجها فى الصباح وذهبت إليه وقالت له فى هدوء: هل صحيح أنك تزوجت؟

قال فى صراحة مذهلة: نعم!

– ومتى تزوجت!

– هذا الأسبوع!

– ولماذا تزوجت؟

– أسرتى أرغمتنى على الزواج.

وقالت له عزيزة: أنا لا أقبل على كرامتى أن أعيش مع

ضرة! طلقنى فورًا! ورفض أن يطلقها، وأصرت على الطلاق. وتم الطلاق!

وعاشت عزيزة فى محنة قاتلة! كيف حدث هذا؟ كيف يتزوج الرجل الذى يحبها كل هذا الحب. وكيف لم تشعر أنه تزوج؟ وكيف أنه عقد قرانه وفى نفس اليوم ذهب وأمضى الليل يعانقها ويقبلها ويقول لها إنه أسعد زوج فى العالم!

لم تنم الليل! بقيت عدة أيام ساهرة لا تصدق ماذا حدث؟ أحست أنها تواجه أكبر هزيمة فى حياتها! إنها أكبر من هزيمتها يوم طردتها زوجة يوسف وهبى من المسرح. وأكبر من هزيمتها يوم فشلت فى السينما فى فرنسا وأكبر من هزيمتها يوم طلقها أحمد الشريعى! لن تصدق رجلاً بعد الآن! لن تتزوج إلى الأبد. ستعيش راهبة للفن وحده.

وبعد وقت قليل دق باب قلب عزيزة أمير.. وفتحت الباب ودخل محمود ذو الفقار وبقى فى القلب إلى يومها الأخير.

وكان محمود أصغر كثيرًا من عزيزة، ولكن حبها النيف له أنساه الفرق الكبير فى السن، وقد أحبها هو الآخر حبا صادقًا. وكان أحيانًا يعاملها كأنها الشابة الصغيرة وكأنه هو الرجل الكبير!

ولم تكن حياة عزيزة أمير سهلة. مشت حافية على الشوك والمسامير، أكثر مما مشت بحذائها فوق السجاجيد!

مرت عليها أيام كانت عاجزة عن تسديد فاتورة التليفون أو

كانت تتفادى المرور أمام محل الجزار الذى لم تدفع له ثمن اللحم منذ ثلاثة شهور. وكانت قادرة أن تمثل دور المليونيرة وليس فى حقيبة يدها أكثر من سبعة قروش! وفى وقت من الأوقات توالت عليها الحجوزات والديون فاضطرت أن تعتزل السينما وتعود إلى المسرح فانضمت إلى مسرح رمسيس، ثم انضمت إلى فرقة نجيب الريحانى، ومثلت فى ذلك الوقت مع الريحانى فيلم «بسلامته عاوز يتجوز» ثم انضمت إلى الفرقة القومية ومثلت دور البطولة فى مسرحية أهل الكهف التى ألفها توفيق الحكيم.

وتصورت عزيزة أن الدنيا ابتسمت لها، بعد نجاحها فى هذا الدور وإشادة النقاد بها.

ثم فوجئت بخطاب من مدير الفرقة يستغنى عن خدماتها بسبب التوفير. ونزل عليها هذا الخطاب كصاعقة من السماء!

ورفضت الهزيمة، وقررت أن تبدأ من جديد، وتخلصت من كثير من ديونها وعادت إلى السينما من جديد!

وأنتجت فيلم «بائعة التفاح»، وإذا بالحظ يبتسم لها، وينجح الفيلم، والأفلام التالية، وتسترد كل الثروة التى فقدتها!

الخطاب القاتل!

وفى حياة عزيزة قصص عجيبة ومغامرات مثيرة! أذكر أنها روت لعلى أمين مرة أن شابا رآها على المسرح، وهى تمثل دور

غانية، تدير ظهرها للمليونير الذى عشقها، وترتمى فى أحضان الشاب المفلس الذى أحبته. وصدق الشاب تمثيلها، وتصور أنها كانت تكشف فعلا عن أسرار قلبها فأحبها، وراح يقف على باب المسرح كل ليلة يراها وهى خارجة من الباب بعد انتهاء تمثيل دورها. وكانت تبتسم للجماهير، وكان يتصور أنها تبتسم له. وكانت تشير بيدها إلى المعجبين، وكان يتصور أنها تشير له وحده.

وكان تلميذًا فقيرًا فى كلية الطب، لا يستطيع أن يقدم لعزيزة سوارًا من الماس أو حتى باقة من الورد كما يفعل عشاق ذلك الزمان. وتصور الشاب أن الطريقة الوحيدة كى يصل إلى قلب عزيزة أمير هو طريق الصحافة، فقد كان يسمع عن النقاد المسرحيين الذى يزورون الكواكب والنجوم فى بيوتهم، ويسهرون معهم، فقرر أن يكون ناقدًا مسرحيا. وترك كتب الطب وراح يلتهم كتب النقد المسرحى حتى أصبح كاتبًا ممتازًا.

وكتب مقالاً ترقص كلماته وتمتلئ سطوره بالحركة والحياة عن الممثلة الأولى فى دورها الجديد، وتحس وأنت تقرأ المقال أن عزيزة أمير أبرع من سارة برنار وأعمق من جريتا جاربو وأجمل من مارلين ديترتش نجوم تلك الأيام.

ورابط الشاب فى إدارة المجلة المسرحية ينتظر محادثة تليفونية من عزيزة أمير تشكره على مقاله العظيم..

وفعلاً دق جرس التليفون ودعته عزيزة إلى مقابلتها.

وعندما دق جرس بابها وجد عزيزة فى انتظاره عند الباب.

وقالت له: إنها كانت تود أن تجلس معه طويلا لتعبر له عن إعجابها وتقديرها، ولكنها على موعد مع طبيبها.

ووضعت فى يده مظروفًا، وأسرعت بالخروج.

وأمسك الشاب المظروف دون أن يفتحه. لابد أنه خطاب غرام، تقول فيه عزيزة إنها أحبته، وأحست من سطوره أنه أحبها. لابد أنها حددت له موعد اللقاء القادم!

وفتح الشاب الخطاب فوجد به ورقة بنكنوت من ذات الخمسين قرشًا!

وانتحر الشاب!

وتقول عزيزة إنها لم تعرف نبأ انتحار الشاب إلا بعد وقوعه بشهور عندما أخبرها أحد زملائه فى المجلة بالقصة من أولها لآخرها.

وكانت عزيزة أمير تروى القصة وهى تبكى وتقول إنه.. آخر شاب أحببته!

الشَّاعِرُ الذى أَحَبَّ مِئة مرَّة!

هل سمعت أم كلثوم وهى تشدو: أحب تانى ليه؟ واقول لقلبى إيه؟ هل سمعتها وهى تقول: كان لك معاى أجمل حكاية. فى العمر كله! سنين بحالها. مفيش جمالها. فى حب قبله!

هل سمعت فريد الأطرش يغنى: حبيب العمر حبيتك وأخلصت فى هواك عمرى!؟

هل سمعت الموسيقار عبد الوهاب وهو يغرد: أنت وعذولى وزمانى. حرام عليك..!

هل سمعت عبد الحليم حافظ وهو يطربك ويغنى أغنية: فى يوم من الأيام كان لى قلب، ويا المحبة هامٍ، ويا ريت ما حب، قسوة حبايبى ماغلبانى. أوعَ يا قلبى تحبِّ تانى. فى يوم من الأيام..!

إن صاحب هذه الكلمات الرقيقة هو الشاعر مأمون الشناوى. وهو لم ينظم هذه الأغانى ليغنيها ملوك الطرب، وإنما نظمها ليعبر عن هواه وغرامه وعشقه وحبه لنساء كثيرات. كل أغنية منها هى قصته مع واحدة من هؤلاء الحبيبات المجهولات؟ يبكى مع واحدة، ويضحك مع أخرى. يسعد مع الأولى ويشقى مع الثانية. امرأة تهجره وامرأة يهجرها. وسألته يومًا كم مرة أحب فى حياته؟

فقال إنه أحب مائة مرة وتزوج مرتين!

والحب هو الذى حوله من تلميذ خائب إلى شاعر عظيم. حدث أن أحب ابنة الجيران، وكانت تسكن أمام بيته فى حى السيدة زينب، وحاول أن يحدثها فى التليفون ليبثها غرامه واكتشف أن ليس فى بيتها تليفون. وحاول أن يكتب لها خطاباً يعبر فيه عن حبه الملتهب وعن شقائه بأنها تتحدث مع غيره من أولاد الحارة، وإذا به يعلم أن حبيبته لا تقرأ ولا تكتب! وحار ماذا يفعل! وعلم أن أحد الجيران سيقيم فرحًا، وأن الحبيبة مدعوة إلى هذا الفرح، وأن صديقه الملحن الموسيقار محمد صادق هو الذى سيحيى هذا الفرح. وذهب مأمون إلى الملحن وطلب منه أن يغنى أغنية مطلعها: «دبلانة بين الإيدين يا وردتى»!

وذهب الولد الصغير إلى الحفلة، وركز عينيه واهتمامه فى ابنة الجيران ليرى انفعالها وهى تسمع محمد صادق يحمل لها رسالة حب مأمون. وأخذ محمد صادق يكرر ويعيد فى يا وردتى، وابنة الجيران لا تتحرك، ولا تنفعل.. ويظهر أنها لم تفهم أبدًا أنها هى الوردة الذابلة! ولكن باقى الموجودين فى الفرح اهتزوا من الطرب وأخذوا يصيحون «كمان يا وردتى.. كمان يا وردتى» فيما عدا الوردة المقصودة بالذات! ومنذ ذلك اليوم مات الحب وولد شاعر الحب!

ثم بعد ذلك أحب حبه الكبير فاطمة. كانت أجمل فتيات الحى، طويلة القامة سمراء فى عينيها جاذبية، وفى حديثها سحر.

وكانت أهم صفة فيها أنها خفيفة الدم ومأمون الشناوى رجل خفيف الدم يجد متعة فى أن يسخر من كل الناس، فإذا لم يجد من يسخر منه سخر من نفسه.. وجاءت فاطمة لترد على النكتة بالنكتة، وعلى القفشة بالقفشة. كانا يتحدثان وكأنهما يتبارزان، وكانت مناقشتهما معًا أشبه بلعبة التنس. الكرة تنتقل من مضرب إلى مضرب. ومهما طال اللعب لا يفوز واحد من اللاعبين!

واستمر هذا الحب العنيف سبع سنوات، يعنف كالإعصار، ثم يرق كالنسيم العليل، ويشتد كالعاصفة ثم يهدأ كالهمسات. كان يغضب فيشتمها فى أغنيته، ويسعد فيعانقها فى أغنية أخرى. كان يكلمها بالأغانى، وذات يوم تركته الحبيبة وأقفلت فى وجهه نافذة بيتها، فنظم أغنية «تكره تحب. مفيش فايدة. ما راحت النار القايدة» وأصبحت هذه الأغنية على كل لسان وفهمت فاطمة أنها المقصودة بالأغنية، فاشتعلت النار التى انطفأت وعاد الحب كالإعصار من جديد.

وباع مأمون هذه الأغنية بجنيهين اثنين، ولم يهتم بضآلة المبلغ، وإنما اهتم بأن قصة حبه أصبحت على كل لسان. يسمعها فى الحارة ويسمعها فى الشارع وهو يركب الترام!

وفى كل يوم يخاصم مأمون فاطمة ويبدأ حبًا جديدًا، ويصف هذا الحب فى أغنية، وتنتشر الأغنية. ثم يعود إلى فاطمة من جديد ويصف عذابه وهواه ويصبح هذا الهوى على لسان الملايين.

وسمع الموسيقار محمد عبد الوهاب الكلمات التى يغنيها

المطرب محمد صادق فأعجبته الكلمات وسأل عن مؤلف هذه الأغانى، فقيل له: إنه مأمون الشناوى. فأرسل إليه الأستاذ أحمد حسن الذى كان محررًا فنيًا فى مجلة روزاليوسف يستدعيه لمقابلته. وذهب مأمون إلى عبد الوهاب الذى قال له إنه معجب بأغانى المطرب محمد صادق، وقال: فى رأسى لحن أريد أن تضع كلمات له. وجلس عبد الوهاب يغنى: يا ملوخيا.. يا بدنجان! يا ملوخيا.. يا بدنجان! وجلس مأمون وكتب أغنية «أنت وعذولى وزمانى؟ حرام عليك» وذهب يحمل الكلمات إلى عبد الوهاب الذى أعجب بها كثيرًا وكان يعد أيامها فيلم «يوم سعيد»... وقال عبد الوهاب إنه لا يريد أن يفترق عن مأمون أبدًا، وإنه سوف ينتهى من مونتاج مجنون ليلى الذى سيغنيه مع أسمهان، ثم يسافران معًا إلى الإسكندرية حيث يضعان معًا أفكار أغانى جديدة. وسافر الشاعر مع الموسيقار، وفى محطة سيدى جابر ركبا عربة إلى منزل أمير الشعراء شوقى بك. ووقفت العربة ونزل منها عبد الوهاب والتفت إلى السائق وقال له: أنت توصل مأمون بك! وانطلق السائق. ودهش مأمون «بك» فهو لا يعرف أحدًا فى الإسكندرية. لا فندقًا ولا بنسيونًا ولا بيت صديق؟ وأشار مأمون بك إلى أحد الشوارع وقال للسائق: «قف هنا». ووقف السائق ونزل مأمون بك وهو يقول للسائق: ارجع لعبد الوهاب بك! ورجع السائق وبقى مأمون بك يقطع الشوارع ذهابًا وإيابًا إلى الساعة الثالثة صباحًا، ثم رأى محل فول مدمس مفتوحًا فطلب إفطارًا، وبينما يتناول الإفطار استغرق فى النوم، ثم

صحا ونظر فى الساعة فوجدها الرابعة فأكمل الإفطار ونام من جديد واستمرت هذه العملية حتى الساعة الثانية عشرة ظهرًا.

واعتقد مأمون بك أن البهوات لابد أن يناموا إلى الظهر، فغسل وجهه وذهب إلى بيت أمير الشعراء شوقى بك وطلب مقابلة عبد الوهاب بك!

وقال مأمون: إنه يريد أن يعود إلى القاهرة، فقد مشى على قدميه فى كل شوارع الإسكندرية ولم يبق شارع أو حارة لم يدوسها بقدمه!

وأعطاه عبد الوهاب ورقة، وطلب منه أن يذهب بها إلى شركة بيضافون فى ميدان العتبة الخضراء، وأوصاه أن يقابل الخواجة إلياس الذى سيقوم بعمل اللازم.

وسافر مأمون من الإسكندرية إلى القاهرة وذهب مباشرة إلى شركة بيضافون وطلب مقابلة الخواجة إلياس، ففتح الخواجة إلياس ذراعيه مستقبلاً الشاعر العظيم وأخذه بالأحضان!

وقال الخواجة الياس إنه يسعده أن يكتب عقدًا مع الأستاذ العبقرى النابغة أمير شعراء الأغانى!

وانتفخ مأمون واعتقد أن الخواجة الياس سيملأ فمه ذهبًا كما كان يفعل هارون الرشيد مع شعراء تلك الأيام، وكان قبل ذلك أعطى خمس أغنيات فيلم اسمه «عصافير الجنة» وقبض من المنتج خمسين جنيهًا عن الأغانى الخمس. أى عشرة جنيهات للأغنية الواحدة. طبعًا هذا مبلغ متواضع يليق بالفيلم المتواضع

والممثلين المجهولين. ولكنه الآن يتعاقد مع محمد عبد الوهاب مطرب الملوك والأمراء والذى يكسب فى الفيلم الواحد مليون جنيه. وسرح مأمون فى الألوف التى ستدخل جيبه، وأسف أن الترزى الحمار لم يحسب حساب هذا اليوم الموعود ويضع جيوبًا كافية فى الجاكتة والبنطلون حتى يملأها بالذهب الرنان!

وقدم له الخواجة الياس العقد وطلب من مأمون أن يوقع عليه وبعد أن وقع نظر مأمون إلى الرقم فوجده أربعة جنيهات فقط لا غير. وصرخ مأمون: أربعة جنيهات بس؟! أربعة جنيهات إزاى!

وقال الخواجة إلياس: إحنا أكرمناك علشان خاطر الأستاذ عبد الوهاب.. ثم التفت إلى موظف عنده وقال: يا يوسف هات ملف الأستاذ أحمد رامى. وجاء يوسف بالملف المطلوب وفتحه مأمون فوجىء بأن أحمد رامى شاعر الشباب يتقاضى جنيهين اثنين عن الأغنية التى ينظمها لعبد الوهاب أو أم كلثوم!

وعندئذٍ فقط شعر مأمون بالفرحة ما دام يتقاضى ضعف ما يتقاضاه شاعر الشباب.

وذهب مأمون يسأل الشاعر أحمد رامى كيف يقبل أن يبيع أغانيه العظيمة بجنيهين اثنين. وقال رامى: إن ثمن صندوق الويسكى ثلاثة جنيهات.. ومعنى ذلك أن ثلاث أغنيات تساوى صندوقين ويسكى.. وهكذا يكفى وزيادة!

كان أحمد رامى يقدم أغانيه مجانًا لأم كلثوم، وبقى يفعل ذلك

عشرات السنين، وكانت أم كلثوم تلح عليه أن يتقاضى ثمن الأغانى فيرفض ويقول: أنا لا أتقاضى ثمن حبى. وألحت عليه أم كلثوم حتى رضى أن يتقاضى جنيهين اثنين عن الأغنية.. ولو كان أحمد رامى ومأمون طالبا فى ذلك الوقت بحق الأداء العلنى لكان كل واحد منهما صاحب ملايين!

ولكن مأمون الشناوى عاش عمره غارقًا فى الديون، يكسب وينفق أكثر مما يكسب الألف جنيه التى يقبضها فى الصباح لا تبقى منها إلا بضعة مليمات فى المساء.

وسئل الشاعر الخفيف الروح مرة: كيف تهرب من الديون وكيف تعامل دائنيك؟ قال مأمون على الفور: عندما أكون مدينًا أصاب بفقدان الذاكرة. أنسى الديون، وأنسى أسماء الدائنين وعندما يطالبنى أحدهم أتجاهل حديثه، وأفقد حاسة السمع واعتاد مأمون أن يقتنى فى بيته ثلاثة كلاب كبيرة متوحشة فإذا جاء محضر يحجز على البيت لاستيفاء طلبات الدائنين، أطلق عليه الكلاب الثلاثة، فلا يعود المحضر إلى الشارع أبدًا!

ويقول مأمون إنه يرتاح من زيارة المحضرين بالليل وفى الإجازات الرسمية، ولهذا لا ينظم أغانيه إلا فى الليل، لأن المحضرين يقضون على ملكة الشعر والإبداع!

ونجحت أغنية «أنت وعذولى وزمانى» نجاحًا عظيمًا، وذات يوم رأيت فريد الأطرش يدخل مجلة آخر ساعة، وكنت رئيس تحريرها، وكان يبحث باهتمام عن مأمون الشناوى وطلب منه أن

يضع كل أغانى أفلام بلبل أفندى.

ثم جاءت أسمهان ومعها يوسف وهبى إلى إدارة مجلة آخر ساعة وكانت وقتئذ فى ميدان الإسماعيلية - التحرير الآن - وطلبا منى أن أقدمها إلى مأمون بك الشناوى! وسأل يوسف وهبى أسمهان من تريدين أن يؤلف لك الأغانى؟ قالت له أسمهان أحمد رامى وبيرم التونسى والراجل اللى عمل أنت وعذولى وزمانى! وطلبت أسمهان من مأمون أن ينظم أغنية عن القهوة. وحار مأمون ماذا يقول عن القهوة؟ قهوة سادة؟ قهوة زيادة! قهوة على الريحة. كل هذه الكلمات لا تمشى مع الشعر ولا تناسب كلمات الحب، وأخيرًا فكر مأمون فى الأغنية المشهورة قهوى أنا أهوى.. يا من يجيب لى أهوى!

وفى ذات يوم بدأت زوجته فاطمة تضع طفلتها الأولى. وطلبت الطبيبة خمسة جنيهات ووضع مأمون يده فى جيبه فلم يجد خمسة قروش. وذهب إلى مكتبه فى مجلة آخر ساعة حزينًا يائسًا حائرًا. وفكر فى أن يدخل إلى مكتب الأستاذ التابعى صاحب المجلة ويطلب المبلغ سلفة. ولكنه يعرف أن التابعى لا يؤمن بنظام القروض. وبينما هو فى بؤسه وحيرته دخل آخر ساعة المخرج على حليم يبحث عن مأمون، ولما وجده طلب منه أن يوقع عقدًا بأغنيتين لأسمهان. كل أغنية بعشرين جنيهًا، وأعطاه العشرين جنيهًا الأولى ووعده بالعشرين جنيهًا الأخرى عندما ينتهى فيلم أسمهان.

ووضع مأمون العشرين جنيهًا فى جيبه وبدأ على الفور ينظم أغنية «امتى ح تعرف امتى؟ إنى بحبك أنت!»

والغريب أن مأمون لا يجيد نظم الشعر إلا وفى جيبه نقود، فإذا أفلس امتنع ملاك الشعر عن الحضور!

* * *

وفى هذه الأثناء كان مشغولاً بحب فاطمة. وكان الحب كالبورصة فى صعود ونزول. فى يوم يصبح مأمون مجنون ليلى الذى ينظمها بشعره ويجعله على شفاه الملايين، وفى يوم آخر يتحول إلى الكونت كريستو الذى يريد أن يذبح فاطمة لأنها لم تستطع أن تحضر فى الميعاد. وفى يوم يصعد لها على السلالم كما كان يفعل روميو مع جولييت.

وكانت فاطمة تسكن فى شقة تحت شقة قريبة له تدعى «ست نعيمة». وكانت نعيمة تعزف على البيانو، وكانت فاطمة تتردد على بيت ست نعيمة لتسمع البيانو.

وكان مأمون يذهب يوميًّا إلى بيت الست نعيمة، ولكن لا يصعد إلى الطابق الذى تقيم فيه، بل يدق باب فاطمة ويسألها: أبله نعيمة عندكم؟

وتنزل فاطمة وتلتقى بمأمون لقاءً سريعًا على ناصية الشارع. وكان محجوب أفندى والد فاطمة يراقب مأمون، ويضيق عليه الحصار، وينكد عليه الحياة! ما يكاد يدق باب فاطمة حتى يفتح محجوب أفندى. ما يكاد يذهب إلى لقاء فاطمة حتى يجد أمامه

محجوب أفندى، واستطاع العاشقان أن يهربا من الرقابة..

وذات يوم ضبط محجوب أفندى مأمون يتحدث إلى فاطمة على الناصية، وما كاد مأمون يراه حتى أطلق ساقيه للريح، وأمسك بفاطمة وانهال عليها ضربًا وصفعًا! ولكن هذه العلقة لم تشفِ فاطمة من الهوى بل زادته اشتعالاً، وانهمك الحبيبان فى تدبير الحيل والمؤامرات للهروب من رقابة الأب الغيور!

وبدأ الحب فى سنة ١٩٣٤ وكان عمر فاطمة ١٣ سنة وعمر مأمون ٢٠ سنة، واستمر هذا الهوى العاصف سبع سنوات. وجاء مستشار فى محكمة النقض والإبرام إلى عمر محجوب أفندى وطلب يد فاطمة التى كان عمرها يومئذٍ ١٩ سنة ووافق الأب على الزواج.. واتفق مع المستشار على المهر والشبكة وموعد الزفاف!

وسمعت فاطمة بأنها ستتزوج رجلًا أكبر من أبيها فجن جنونها، واتفقت مع مأمون على الهرب، وذهبا إلى منزل صديق اسمه إبراهيم فريد يسكن فى نفس الشارع، واستدعى الرجل المأذون وعقد الزواج.

وفى اليوم الثانى ذهب مأمون إلى منزل محجوب أفندى ودق جرس الباب بكل شجاعة وإقدام. وفتح محجوب أفندى الباب وإذا بمأمون يقول له: مبروك! أنا وفاطمة تزوجنا.. وهذا عقد الزواج!

وكاد يغمى على الأب، ثم تماسك وقال: هل هذه أصول!!

وقال مأمون: أتعهد لك أنني لا أعمل هذه الحكاية مرة أخرى !!

مأمون التلميذ

كان مأمون زميلي في مدرسة الخديوي اسماعيل، وكان اسمها الثانوية الملكية، وكان يكره السياسة ويحب الشعر، وكنت أنا أحب السياسة وأكره الشعر! وكان مأمون يضيق من اهتمامي بالسياسة، فكلما دعوت إلى الإضراب حبسوه، وكلما هتفت بسقوط الحكومة ضربوه أو عاقبوه. وكان مأمون ضعيفاً في جميع المواد وقوياً في اللغة العربية كلها. موضوع الإنشاء يأخذ فيه عشرة من عشرة. ومسألة الحساب يأخذ فيها صفراً من عشرة!

في سنة ١٩٣٥ أصدرت مع الأستاذ التابعي مجلة «آخر ساعة» واستعنت بمأمون الشناوي في التحرير. وكان مأمون لا يستطيع أن يجلس على كرسي خمس دقائق باستمرار. لابد أن يتحرك. لابد أن يقف. لابد أن يمشي ويتجول في غرف الجريدة ويلقي نكتة على كل مكتب. وكان الأستاذ التابعي يريد من المحرر أن يجلس على كرسي ولا يتحرك. ويحاسب المحرر على الساعات التي يبقى فيها جالساً على المكتب، لا على عدد الساعات التي أمضاها في كتابة المقال.

ولم يكتفِ مأمون أن ينتقل من مكتب إلى مكتب بل كان يتنقل بين مجلة ومجلة! ما من مجلة صدرت في تلك الأيام إلا

واشترك مأمون فى تحريرها ثم بعد فترة قليلة خرج منها واشترك فى تحرير مجلة جديدة. وفى سنة ١٩٣٨ أصبحت رئيس تحرير آخر ساعة، وعمل معى مأمون بمرتب قدره اثنا عشر جنيهًا فى الشهر. وحدث أن سافر التابعى صاحب المجلة إلى أوربا وعاد بعد أربعة شهور إلى القاهرة، وتوقعنا أنه سيدفع مرتبات جميع المحررين الذين تفانوا فى العمل أثناء غيابه، وفوجئت به يقول إنه أنفق مبالغ طائلة فى رحلته وإنه أنفق أكثر من إيراده واقترض مبلغًا كبيرًا، ولذلك يريد أن يخصم المبلغ من المحررين.

وفوجئ مأمون بتخفيض مرتبه من اثنى عشر جنيهًا إلى عشرة جنيهات، وأراد مأمون الاستقالة، وأقنعته بالبقاء.

ثم سافر الأستاذ التابعى مرة أخرى إلى أوربا وأنفق على رحلته ببذخ، وعاد إلى القاهرة وقرر تخفيض مرتب مأمون من عشرة جنيهات إلى ثمانية جنيهات. ورفض مأمون أن يشارك فى نفقات الرحلة فاستقال، وانضم إلى تحرير مجلة روزاليوسف فعينته باثنى عشر جنيهًا فى الشهر!

وبعد قليل عاد مأمون إلى آخر ساعة ووصل مرتبه إلى ١٦ جنيهًا، وعندما توليت رياسة تحرير مجلة الاثنين جاء معى، وعندما أصدرت جريدة أخبار اليوم كان مأمون من الأوائل الذين انضموا إلى تحريرها.

وفى خلال هذه الأربعين عامًا خرج مأمون من أخبار اليوم عدة مرات. خرج ليصدر مجلة كلمة ونصف ثم عاد، وخرج ليصدر

مجلة الستار ثم عاد.. وهو الآن يشترك في تحرير أخبار اليوم ويكتب عمودًا يوميًا في جريدة الجمهورية بعنوان: «جراح قلب» يضمد فيه القلوب الجريحة ويداوى القلوب المعذبة ويقرأ الفاتحة على القلوب التى انتقلت إلى رحمة الله!

مع أم كلثوم

وكانت أمنية مأمون أن تغنى أم كلثوم أغنية من كلماته!

وذات يوم خفق قلب مأمون بشدة وتصور أنه الحب الخالد الذى سوف يعيش إلى الأبد. وجلس وكتب أغنية «حبيب العمر».

وأرسل الأغنية مع صديقه الموسيقار رياض السنباطى إلى أم كلثوم. وقرأت أم كلثوم الأغنية وقالت: أريد أن أقابل مأمون.

وجاء مأمون، وبدأت أم كلثوم تقرأ الأغنية وتوقف عند بعض الكلمات وتقول: بس نغير الكلمة دى.. بس المعنى ده موش قوى!

وهز مأمون رأسه موافقًا على كل التعديلات المطلوبة، ثم قال: بلاش الأغنية دى. نعمل أغنية ثانية!

وألحت عليه أم كلثوم أن يقوم بالتعديلات المقترحة.

وخرج من عند أم كلثوم وذهب بها إلى فريد الأطرش.. وقدم له أغنية حبيب العمر بلا تغيير ولا تبديل، بل إنه أطلق على

الفيلم الذى يعده اسم «حبيب العمر».. وحدث بعد ذلك أن التقى مأمون بأم كلثوم فى دار أخبار اليوم وسألته ألم ينظم أغنية جديدة. قال إنه ينظم قصيدة اسمها الربيع. وطلبت منه أم كلثوم أن يمر عليها لتسمعها. وذهب مأمون وأسمع الأغنية لأم كلثوم التى طلبت إجراء تعديلات فيها كعادتها، وخرج مأمون من عندها إلى بيت فريد الأطرش وأعطاه أغنية الربيع التى نجحت نجاحًا هائلاً.

ونظم مأمون أغنية أول همسة وعرضها على أم كلثوم فطلبت مرة أخرى إجراء تعديلات فى الأغنية. وقال لها مأمون إنه ينظم أغانى ولا يفصل أحذية على مقاس أم كلثوم.. وإما أن تأخذ الأغنية كما هى أو لا تأخذها. وقال لها: لو دخلت فى معرض الصور، وأعجبتك صورة، إنك تأخذين الصورة كما هى، ولا تقولين للمصور: صغر فم هذه السيدة أو حولها إلى شقراء بدلاً من سمراء!

قالت له أم كلثوم: إننى أغنى وأنا أواجه الجمهور. ولابد أن أكون مقتنعة بكل كلمة أغنيها.

واقتنع مأمون بوجهة نظر أم كلثوم ووضع أغنية: أنساك؟ يا سلام! أنساك؟ ده كلام!

وقرأت أم كلثوم المطلع وأعجبت به، ولكنها توقفت عند المقطع الذى يقول: «واعمل فى حبك إيه؟ واعمل فى روحى إيه» وطلبت استبدالها بأن تكون «واعمل فى حبك إيه؟ وأقول لقلبى إيه؟».

ووافق مأمون على التغيير الرقيق فورًا.

ثم نظم مأمون أغنية «كل ليلة وكل يوم» وكان فى الأغنيــة مقطع يقول: اكتب لى قول أنت فين؟ لو تقدر! باستنى منـك كلمتين مـوش أكثر!»

وقالت أم كلثوم: «بلاش.. اكتب لى»

قال مأمون: «نعملها ابعت لى أنت...»

قالت أم كلثوم: كيف أطلب من حبيبى أن يكتب لى؟ ربما لا يعرف القراءة والكتابة!

ربما يكون عنده تليفون ويستطيع أن يحدثنى فيه! ابعت لى أحسن!

يمكن كاتب عمومى هو الذى يمليه خطاب الغرام!

وكانت أم كلثوم قبل ذلك غنت أغنية لبيرم التونسى اسمها «اكتب لى.. اكتب لى..» ولم تصادف الأغنية النجاح المطلوب!

وحدث مرة وأم كلثوم تغنى فى إحدى الليالى أغنية كل ليلة وكل يوم، فأنشدت تقول: «ابعت لى قول أنت فين لو تقدر» ثم أعادت الفقرة «اكتب لى قول أنت فين لو تقدر» وصفق الجمهور عندما لاحظ التغيير وتصور أن أم كلثوم هى التى ألفت الكلمة الجديدة، ولم يتصوروا أنها تغنى الأغنية الأصلية.

* * *

وأحب مأمون حبا جديدًا، وهجرته المرأة التى أحبها، عذبته

وحطمته، ملأت عينيه بالدموع، وملأت قلبه بالجروح، وذات ليلة عاد إلى بيته وجلس يكتب أغنية «ودارت الأيام».

وسألته أم كلثوم: عاوز كام؟

قال مأمون: مش عايز ولا مليم. عايز أربعة فى المائة للمؤلف والملحن من دخل الأغنية.

ووافقت أم كلثوم. وذهب الشاعر أحمد رامى إلى مأمون الشناوى يحتج على الأربعة فى المائة ويقول: يا سيدى أنا أقبض مائة جنيه ولا أريد أكثر من ذلك، واتصل رامى بأم كلثوم يتمسك بالمائة جنيه، ولكن أم كلثوم أصرت أن يأخذ كل من رامى ومأمون خمسمائة جنيه دفعة أولى على الحساب، ويأخذ باقى النسبة كل ١١ شهراً.

وقبض كل واحد منهما من الدفعة الثانية ألف وخمسمائة جنيه. وقبض أحمد رامى المبلغ وهو يقول: أنا لا أصدق عينى! كأننى أحلم! لو كنت اتبعت هذه القاعدة من أول الأمر لأصبحت اليوم صاحب ملايين!

ومنذ أيام سألت مأمون الشناوى هل بدأت تحب الآن المرأة رقم ١٠١؟ قال مأمون: لا خلاص! تبت من الحب! أصبحت أخاف من الحب.

وكانت الإذاعة تغنى أغنية مأمون «خايف مرة أحب» وهى آخر أغنية غناها المطرب عبد الحليم حافظ التى تقول:

خايف مرة أحب وعارف ليه أنا قلبى خايف.

شفت الحب يبكى ويضحك ما له عيون وشقايف.
بس لو ألاقى اللى أحبه
اللى قلبى يروح لقلبه.
واللى ترتاح روحى جنبه.
يومها عمرى ما ابقى خايف!
ولا يزال مأمون يخاف من الحب.. ولا يزال يقع فى الحب!

فاطمة.. بطلة القصة

وسألته زوجته فاطمة وقد مضى على زواجهما أكثر من أربعين سنة وعلى حبهما حوالى خمسين سنة: هل هو يحب الآن؟

ورد مأمون: هوّ اللى يحبك يحب تانى!

وأعجبته الجملة فجلس يصف هذا الحب ويقول:

إياك فاكر أنى أحب تانى!
واحب أمتى؟
وانت اللى عارف أول وآخر الحب أنت
أحب تانى ليه؟
واقول لقلبى إيه؟
هو اللى حبك يحب تانى..

وقد وصف أيامه السعيدة مع فاطمة بقوله:

كان لك معايا.. أجمل حكاية.. فى العمر كله

سنين بحالها.. مفيش جمالها.. فى حب قبله
أحب تانى ليه؟
وأقول لقلبى إيه؟

* * *

أحب مأمون الشناوى مائة مرة..
ولكن حبه لفاطمة كان أقوى من أى حب.. ألف مرّة!

الشاعِر الذى ضَرَبَنى قَلمًا !

كنت تلميذًا فى السنة الأولى بمدرسة المنيرة الابتدائية، وذات يوم دخل الأستاذ أحمد رامى مدرسة الترجمة، وبدأ الحصة بأن نادانى وراح يمتحننى فى المعنى العربى لبعض الكلمات الإنجليزية. وأجبت على السؤال الأول والثانى والثالث والرابع إلى التاسع إجابة صحيحة وسألنى الأستاذ رامى ما معنى كلمة FULL وأجبت على الفور: مجنون يا أفندى.

وصاح الأستاذ رامى غاضبًا: معناها «مملوء» وليس «مجنونًا» يا حمار! ثم رفع يده وهوى بكفه على وجهى، وقفز طربوشى من أول الغرفة إلى آخرها. اسودت الدنيا فى وجهى. رأيت نجومًا سوداء وحمراء تتراقص أمام عينى. أحسست بقوة الصفعة. تهاويت وكدت أسقط على الأرض. لكنى تمسكت بيدى اليمنى بالمقعد واستندت إليه، وأخفيت مكان الصفعة باليد الأخرى والدموع تنهمر من عينى. كانت الصفعة مؤلمة. بقى مكانها محمرًا فوق خدى. عدت إلى بيت الأمة - حيث كنا نقيم - وذهبت إلى أمى وشكوت لها الأستاذ رامى. فقالت لى: إننى أستحق هذه الصفعة لأننى لم أحفظ الدرس. ذهبت إلى سعد زغلول أناديه «يا جدى» ورويت له ما حدث. وتصورت أن جدى الذى يحبنى سوف يسخط على الأستاذ رامى، ويهاجمه كما يهاجم عدلى باشا

يكن. ألا يغضب سعد ويثور عندما تضرب الحكومة الشعب! ألست أنا جزءًا من الشعب؟ أليس الأستاذ رامى جزءًا من الحكومة؟ وفوجئت بسعد زغلول يخذلنى، ولا يثور ولا يغضب وإنما يبتسم ويقول: إن معنى ذلك أنك ستنبغ فى اللغة الإنجليزية! وعدت إلى غرفتى فى بيت الأمة باكيا. رفضت أن أتناول العشاء. أحسست لأول مرة أن الدنيا تخلت عنى. حتى سعد زغلول زعيم الأمة تخلى عنى. ألا يقول سعد أنه يحارب الطغيان. يحارب استبداد القوى بالضعيف! أليس الأستاذ رامى طاغية! ألم يضرب ضعيفًا، لو كنت أكبر حجمًا مما أنا لأمسكت بخناق الأستاذ رامى. ولكنى أقصر منه. بل إن الصفعة جعلتنى أتضاءل أمامه. إن الذين يضربوننا يبدون فى أعيننا دائمًا عمالقة. وكلما عجزنا عن رد العدوان طالت قامتهم فى مخيلتنا. وقد كنت فى طفولتى أتصور أن سعدًا ضخم جدًا. كأنه أشبه بالجبل. وعندما أبى سعد أن ينتقم لى من الأستاذ رامى تضاءل حجم سعد فى نظرى. بدا أقصر من الأستاذ رامى. بدا قزمًا أمام الأستاذ العملاق. وأحسست فى تلك اللحظة أننى لا أبكى نفسى فقط، وإنما أبكى سعد زغلول أيضًا! إذا كان سعد لا يقوى على الأستاذ رامى فكيف سيقوى على الإنجليز؟!

لم يبق لى نصير يأخذ بيدى سوى الله. اتجهت إلى الله. ترى هل يجىء الله إلى بيت الأمة؟ وإذا جاء فهل سيجلس فى الصالون الكبير المخصص لكبار الزائرين؟ أم أنه سيجىء إلى غرفة نومى؟ هل من المعقول أن يدخل الله إلى غرفة نوم

الأطفال! ولكن كنت مؤمنًا بما قالته لى أمى بأن الله يزور كل الناس. يزور الفقراء أكثر مما يزور الأغنياء. يزور الضعفاء أكثر مما يزور الأقوياء. يزور المظلومين أكثر مما يزور الظالمين. وأنا فقير فعلاً. مصروفى خمسة مليمات فى اليوم. ولا أملك دراجة. أنا ضعيف فعلا أمام قوة الأستاذ رامى. مظلوم فعلاً لأننى أجبت على تسعة أسئلة ولم أخطئ إلا فى سؤال واحد.

ومضيت طول الليل أطلب من الله أن يأخذ الأستاذ رامى! يأخذه من مدرسة المنيرة الابتدائية.

وفى صباح اليوم التالى ذهبت أنا وأخى على إلى مدرسة المنيرة وحلت حصة الترجمة، ولم يحضر الأستاذ رامى. وبهت أنا وأخى. إن الله استجاب إلى دعائى وأخذ الأستاذ رامى. سمع صلاتى وأخذ روح الأستاذ رامى.. وسألت المدرسين أين الأستاذ رامى فقالوا إنه لم يجيء بعد اليوم.. وسكتوا.. وتأكدت أن يد الله صفعت الأستاذ رامى! إن يد الله أقوى طبعًا من يد الأستاذ رامى. لابد أن صفعة الله كانت قوية فقضت عليه قضاءً مبرمًا!

وعشت عدة سنوات وأنا أؤمن أن الله أخذ الأستاذ رامى انتقامًا لى... وبعد أربع سنوات ذهبت مع والدى إلى صالة سانتى بحديقة الأزبكية لأسمع أم كلثوم، وفوجئت بالأستاذ رامى على قيد الحياة، وفوجئت به يقف فى الاستراحة وهو يداعب أم كلثوم وتداعبه وفى يدها دستة جاتوه. ولاحظت أن رامى ليس العملاق الذى صورته لى الصفعة المؤلمة. كان رجلاً قصير القامة، رقيق

الجسم، نحيف القوام، ليس فيه أى شبه بالمصارعين والملاكمين. وعلمت عندئذٍ فقط أن الله لم يأخذ الأستاذ رامى إلى جهنم.. وأن سر انقطاعه عن مدرسة المنيرة أن وزارة التربية والتعليم أوفدته فى بعثة إلى باريس لدراسة اللغة الفارسية، وأنه بعد ذلك أصبح شاعر الشباب!

وأصبحنا الضارب والمضروب صديقين حميمين، وكلما كنت ألتقى برامى على مر السنين كنت أذكره بالصفعة فيضحك رامى ويقول: حذار.. أن تضربنى الآن! إننى لا أحتمل الآن لطمة من إصبع!

ولكن شعورى وأنا طفل صغير بأن الله استجاب دعائى وأخذ الأستاذ رامى جعلنى أؤمن أن هناك قوة غير عادية فى السماء. قوة أكبر من قوة سعد زغلول الذى كان يبدو لى أنه أقوى رجل فى مصر. قوة أمسكت بيدى الضعيفة عندما تخلت عنى كل القوى. اعتقدت إلى سنوات طويلة بأن الله دخل غرفة نومى، وأنه سمع صلاتى، وأنه استجاب إليه. صحيح أن الله لم يستجب إلى دعائى حرفيًّا ويأخذ الأستاذ رامى إلى السماء، وإنما أخذه إلى باريس. المهم أنه أخذه من مدرسة المنيرة. ولو أننى رأيت الأستاذ رامى فى المدرسة فى اليوم التالى للقلم لأحسست بهوان ما بعده هوان. لشعرت بألم الصفعة على خدى كلما وقعت عيناى عليه. أحسست يومها بأن الله بهذا التصرف أعاد كرامتى المهدرة. أعاد اعتبارى المفقود. أسوأ ما يشعر به الولد الصغير أنه يحس بأنه مظلوم، وأن أحدًا لم ينصفه. الشعور بالظلم يملأ نفسه بالحقد. يجعله يتصور أن

الدنيا ظالمة. سوداء ليس فيها شعاع من نور. مغلقة لا ينفذ إليها نور الحقيقة. أحسست بالمرارة عندما لجأت إلى أمى فإذا بها تحيى ما اعتقدت أنه ظلم واستبداد. وأحسست بالعدم عندما سمعت جدى محامى كل المظلومين يؤيد الظلم الذى وقع علىّ ويباركه. فعندما استبد بى اليأس وجدت يد الله امتدت لتأخذ من تصور أنه ظالمه. المظلوم لا يعنيه أن يؤخذ الظالم الذى يدوس عليه بقدمه ويوضع فى السجن. بقدر ما يهمه أن يرفع الظالم قدمه من فوق عنقه. ما قيمة أن يعاقب الظالم بغير أن يرفع الظلم نفسه. ما قيمة عزائى أن أرى ظالمى الذى وضعنى فى الزنزانة معلقًا فى مشنقة وأنا ما زلت سجين زنزانتى؟ ولم يكن الأستاذ رامى هذا الظالم المستبد الجبار الذى صورته الصفعة فى عينى الصغيرتين. فقد كانت تعليمات ناظر المدرسة نجيب بك حتاتة من خالى سعد زغلول بأن يشتد مع التلميذين الصغيرين ليخلق منهما تلميذين ممتازين. ولكنها كانت بالنسبة لى أول مرة فى حياتى أشعر أن ظلمًا وقع علىّ، ولا أستطيع أن أدفعه، ولا أجد من ينصرنى. ولقد احتملت قبل ذلك ضرب أمى وضرب المدرسين، ولكنى كنت فى كل مرة أعتقد أننى أستحق هذا الضرب. ولكن هذه المرة كانت المرة الأولى التى اعتقدت فيها أننى مظلوم، وأننى لا أجد من يرفع عنى الظلم، ولهذا عندما تصورت أن الله مد يده وأخذ الأستاذ رامى عاد إلى قلبى الصغير إيمانه بالعدالة، وبأن الحق لا يمكن أن يموت. وأنه مهما تآمرت على هذا الحق كل قوى البغى والعدوان فإن يد الله قادرة على أن ترفع الظلم عن المظلوم.

ولد أحمد رامى فى أغسطس سنة ١٨٨٢ فى بيت متواضع بحى الناصرية بالسيدة زينب. وعندما ذهب والده إلى مكتب المواليد ليسجل اسم ابنه سأله الموظف عن وظيفة الأب؟ وأجاب الأب أنه تلميذ فى مدرسة الطب. وألقى الموظف القلم من يده وقال متهكمًا: تلميذ ويتزوج ويخلف؟ قال الأب: إن والده أرغمه على الزواج بعد حصوله على شهادة البكالوريا حتى لا تفسد أخلاقه! وجاء وقت كان الابن أحمد رامى والأب يخرجان معًا من البيت يحملان كتبهما ويذهبان إلى المدرسة!

وكان الأب هاويا للموسيقى جميل الصوت، وبعد أن حصل على شهادة الطب أراد أحد أصدقاء والده أن يخدمه وكان من أفراد حاشية الخديوى. فأخبر الخديوى أنه يعرف طبيبًا حسن الصوت سوف يعجب أفندينا ويضمه إلى الحاشية ليغنى فى القصر.. واستمع الخديوى لوالد رامى ولم يعجبه صوته بدليل أنه عينه طبيبًا فى جزيرة «طاشيوز» وهى جزيرة صغيرة كان يملكها الخديوى عند مدينة قدله... وذهب أحمد رامى إلى هذا المنفى وعمره سبع سنوات، وبقى هناك حتى بلغ التاسعة، ثم عاد رامى إلى مصر تاركًا أسرته فى قدله. وأقام عند جده فى حى الإمام الشافعى والتحق بالمدرسة المحمدية الابتدائية ثم المدرسة الخديوية. وعاد والده من منفاه وترك الطب والتحق بالجيش، ويظهر أن الخديوى سمع صوته مرة ثانية لأنه عينه فى السودان حتى لا يصل صوته إلى القاهرة!

وترك الأب أحمد رامى فى رعاية جده، وهو شيخ فى السبعين

يسكن حى الحنفى، وعاش فى وحشة مريرة، يقف فى النافذة طول الليل ليسمع صوت المقرئين من مسجد الحنفى ولم يطق حياة المتصوفين، فاتجه إلى الأدب، وأصبح يتردد على قريب له من أسرة الرافعى يملك مكتبة كبيرة فى داره. وهناك وجد كنزًا!

وجد كتاب «مسامرة الحبيب فى الغزل والنسيب» وكان مجموعة من مختارات شعر العشاق.. وأقبل على هذا الكتاب يلتهمه، وقرأه عشرات المرات حتى حفظه عن ظهر قلب. وبدأ يكتب شعر الغزل فى امرأة مجهولة، اخترعها من خياله، وأعطاها عيون ابنة الجيران وشفاه بائعة اللبن، وقوام خادمة فى حارة مجاورة. وكان يخفى شعره عن جده وأقاربه ويتظاهر بأنه يطالع كتب التاريخ والجغرافيا والهندسة بينما يكون غارقًا مع قيس مجنون ليلى وعمر بن أبى ربيعة. وأتم دراسته الثانوية والتحق بمدرسة الحقوق. ثم عجز عن دفع مصاريف مدرسة الحقوق فالتحق بمدرسة المعلمين، لأن التعليم كان فيها مجانًا والمتفوقون يتقاضون مرتبات!

وفى هذه الأثناء تعرف بالشاعر حافظ إبراهيم شاعر النيل، وأعجب حافظ بخفة دم رامى ولم يعجب بشعره. وكان رامى يعرض عليه شعره فيقول له: «هذه مثل السلام عليكم يستطيع أن يقولها أى إنسان»!

ويمزق رامى القصيدة ويكتب قصيدة ثانية وثالثة ورابعة حتى تنال إعجاب الشاعر الكبير.

وعندما كان رامى طالب بالمدرسة الخديوية الثانوية عرف أنه تألفت جمعية أدبية اسمها «جمعية النشأة الحديثة».. يجتمع فيها الأدباء كل مساء خميس ويتقارضون الشعر.

وذهب أحمد رامى إلى الاجتماع وأراد الدخول ومنعوه لأن عمره كان ١٥ سنة. وتشاجر رامى مع العنصر الواقف على الباب، وحضر الأديب المعروف صادق عنبر وسأل عامل الباب ما سبب هذه الضجة؟ قال عامل الباب: هذا الشاب ليس عضواً فى الجمعية وليس معه تذكرة دخول. والتفت صادق عنبر إلى رامى وقال له: هل معك قصيدة؟ قال رامى: معى. وأخرج القصيدة من يده. فابتسم صادق عنبر وقال: هذه تذكرة الدخول!

ومنذ ذلك اليوم لم ينقطع رامى عن مجالس الأدباء والشعراء..

وتخرج رامى من مدرسة المعلمين وبحث عن وظيفة مدرّس فى مدرسة حكومية فلم يجد، واضطر أن يدرس فى مدرسة القاهرة الأهلية بالسيدة زينب. وكان يقبض مرتبه شهراً ولا يقبضه شهرين وبعد عامين استطاع أن يجد مكاناً فى مدرسة التربية الابتدائية الأميرية، يدرس اللغة الإنجليزية والجغرافية والترجمة. وفى هذه الأثناء أصدر ديوانه الأول فى سنة ١٩١٨.

وشعر أنه لا يصلح للتدريس وأنه يفقد أعصابه مع التلاميذ وبحث عن وظيفة شاعر فلم يجد هذه الوظيفة فى دواوين الحكومة. ثم سمع أنه توجد وظيفة خالية هى وظيفة أمين مكتبة مدرسة المعلمين العليا، فتقدم لهذه الوظيفة، وامتحنوه فيها ونجح،

وعين أمينًا لمكتبة المدرسة. وحمد الله أنه سيتفرغ فى هذه الوظيفة للقراءة والاطلاع ونظم الشعر وتخلص من التدريس الثقيل.. ولكنه ما كاد يحمد الله على أنه نجا من مهمة التدريس حتى فوجئ بوكيل وزارة المعارف يتصل به ويقول له إنه يسعده أن يخبره أنه اختاره لتدريس الترجمة فى مدرسة المنيرة الابتدائية فوق عمله كأمين مكتبة مدرسة المعلمين العليا.

ووقع النبأ على أحمد رامى كالصاعقة. واضطر أن يعود إلى التدريس ليضربنى قلمًا! ولكن أحمد رامى بقى يسعى ليهرب من التدريس حتى عرف أن هناك بعثة لمدة عامين فى باريس لدراسة اللغات الشرقية، فتقدم لهذه البعثة وفاز بها.

وعاد إلى مصر سنة ١٩٢٥، وكان يشعر بوحدة قاتلة، فقد عاش محرومًا من عطف أبيه الذى كان يعمل فى السودان، وعندما عاد توفى، وكان له شقيق اسمه محمود هو شقيقه الوحيد مات هو الآخر، وكانت له شقيقة ماتت هى الأخرى. وهكذا عاش رامى فى وحدة مستمرة وفى أحزان دائمة، وكان يهرب إلى الشعر.. وفجأة التقى بأم كلثوم!

وعندما رأى أم كلثوم لأول مرة لم يعجبه شكلها، فوجئ بها تضع العقال فوق رأسها وترتدى الجبة وتضع على بطنها حزامًا! وكان الملحن الشيخ أبو العلا هو الذى يقدمه إليها.. وهمس فى أذنه: أعوذ بالله! هذه فقية.. وليست مطربة! ولكنه ما كاد يتحدث إليها حتى فتن بخفة روحها وذكائها، وعندما سمعها تغنى

وجد نفسه يغنى لها. وبعد أن انتهت من الوصلة ذهب إليها وقال لها: هذا أول مرة أطرب فيها لمغنٍّ بعد الشيخ سلامة حجازى.

وأعطى رامى أم كلثوم أول أغنية نظمها وكانت أغنية «خايف يكون حبك لىّ شفقة علىّ». ولم تكن موجهة لأم كلثوم فقد نظمها عام ١٩٢٤ وهو فى باريس وكان كلامها موجهًا إلى جارته الفرنسية الحسناء التى لم تكن تعرف اللغة العربية!

وكان رامى يكتب شعرًا شيطانيًّا! يكتبه فى الترام أو فى السيارة أو فى عربة السكة الحديد أو فى الباخرة التى حملته من فرنسا إلى القاهرة. وكان يهبط الشعر عليه فى أى مكان يخلو به بنفسه. أحيانًا فى الحمام وأحيانًا فى غرفة نومه. وذات مرة كان ينوى أن ينظم قصيدة فجلس فى شرفة منزله يردد بعض الكلمات القصيرة وقد تخلى عنه ملاك الشعر، واستلقى رامى على بساط فى الشرفة، وراح يتقلب يمينًا وشمالاً يستوحى الشعر، ودخلت أمه ورأته فوقفت ذاهلة وقالت له:

– ربنا يتوب عليك من الشعر!!

ولكن الله لن يتوب على رامى من الشعر فقد عرف أم كلثوم، وعرف من اليوم الأول أنها ملهمته. وكان حبه لها عجيبًا. عفيفًا. نظيفًا. بريئًا! كان حبًا أشبه بالتقديس. مكث خمسين سنة يتحدث عنها، كأنها بين ذراعيه. وكانت كلمة الحب لا تكفى لتعبر عن حقيقة المشاعر الحارة التى كانت بين أم كلثوم ورامى. كان يتحدث إليها فى التليفون كل يوم مرتين. مرة فى الصباح ومرة فى

المساء. وكانت خصصت له يوم الاثنين من كل أسبوع وهو يوم إجازة دار الكتب التى كان موظفًا بها، ليكون يومه دون سواه. فى هذا اليوم لا تقابل أم كلثوم أحدًا سوى أحمد رامى. له الصباح والظهر والعصر والمساء. وكان الحديث مزيجًا من الحب والأدب والشعر والضحك. وقد قال لى مرة إنه يحب أم كلثوم كما يحب الهرم. لم يلمسه. ولم يصعد إليه. ولم يدخل فيه، ولكنه كان يشعر بعظمته وشموخه والفن العجيب الذى صنعه. وسألته مرة هل لم تفكر يومًا أن تتزوجها؟ وضحك، وقال: لو تزوجتها لانطفأ الحب!! هل سمعت عن رجل تزوج الهرم أو تزوج نهر النيل؟!

وكانت قيمة حبه لأم كلثوم أنه كان حبا بلا غرض وبلا مصلحة. وأذكر أن أم كلثوم قالت لى: أن الشاعر أحمد رامى مكث عدة سنوات يقدم لها قصائده وأغانيه مجانًا دون أن يتقاضى ثمنًا. وقالت له ذات يوم: إنك مجنون لأنك ترفض أن تأخذ ثمن أغانيك.. قال رامى: أنا مجنون بحبك والمجانين لا يتقاضون ثمن جنونهم. هل سمعت أن قيسًا أخذ من ليلى ثمن أشعاره التى تغنى بها؟ قالت أم كلثوم: ولكن لن تأخذ منى مليمًا. شركة الأسطوانات هى التى ستدفع أجرك. وعندئذ فقط قبل رامى أن يأخذ أجرًا عن أغانيه التى كان من الممكن أن تدر عليه ألوف الجنيهات!

وكانت أم كلثوم لا تعرف أن هذا الشاعر الذى تتغنى الدنيا بأغانيه بقى فى الدرجة الخامسة ١٩ سنة! ولما علمت بذلك ذهبت

بنفسها إلى وزير المعارف وقالت له: كم تتصور مرتب شاعر الشباب الذى يردد الملايين أغانيه؟

قال وزير المعارف: طبعًا هو فى الدرجة الأولى!

قالت أم كلثوم: إنه فى الدرجة الخامسة فقط.

قال وزير المعارف: هذه فضيحة!!

وأمر الوزير بترقية رامى إلى الدرجة الرابعة!

وقد رقى رامى إلى الدرجة الرابعة سنة ١٩٤٣.

وأحيل للمعاش عندما بلغ الستين. وعلمت أم كلثوم أن معاشه لا يتجاوز سوى بضعة جنيهات، فذهبت إلى رئيس الوزراء وطلبت أن يعين أحمد رامى مستشارًا فى الإذاعة. حدث كل هذا دون أن تخبر أم كلثوم رامى أنها هى التى طالبت بإنصافه. وهنا نتساءل هل أحبت أم كلثوم رامى؟

الواقع أنها أعجبت بشعره. وأنها أحبت فيه الشاعر ولم تحب الرجل. وقد يدهش هذا الجيل إذا علم أن رامى كان فى شبابه شابًا رائع الجمال، ولكنه أصيب بمرض الجدرى فشوه وجهه. ولم يؤثر هذا الحادث على علاقة أم كلثوم برامى، بل زادت اهتمامًا به، وإن كانت عقدت رامى وجعلته ينقطع عن زيارة أم كلثوم. ولكنها كانت تزوره فى بيته وتحاول إخراجه من عزلته، وتؤكد له أنه لا يزال أحمد رامى الوسيم رغم ما حدث فى وجهه من تشويه.

وقبل أن يسافر أحمد رامى إلى فرنسا أعطى صديقه الملحن

الشيخ محمود أبو العلا قصيدته التي يقول فيها: «الصب تفضحه عيونه، وتنم عن وجدٍ شئونه» وأعجب بها أبو العلا وقال إنه سيلحنها ويغنيها. وعندما عاد من أوربا قال له أصدقاؤه إن مطربة اسمها أم كلثوم تغنى قصيدته فى صالة سانتى بحديقة الأزبكية وذهب إلى هناك ليسمع قصيدته، ولكن أم كلثوم لم تنشد هذه القصيدة فى الوصلة الأولى، وفى الاستراحة ذهب إليها يحييها ويقول لها: إنه جاء من أوربا ليسمع قصيدته على شفتيها. وقالت أم كلثوم: ألست أنت القائل: الصب تفضحه عيونه؟!

وفعلاً فضح رامى أم كلثوم. جعل قصة حبه لها على كل شفاه، وفى كل صفحة من صحف الجرائد والمجلات. وكان القراء يتابعون قصة الحب فيعرفون متى تقبل عليه ومتى تدبر عنه. متى تقترب منه ومتى تبتعد. متى تصله ومتى تهجره. وفى ذات مرة غضبت عليه أم كلثوم وخاصمته، وحاول أن يصالحها فأصرت على أن تخاصمه. ويومها كتب قصيدته التي يقول فيها: «عزة جمالك فين.. من غير ذليل يهواك؟..» وعندما قرأت أم كلثوم هذه القصيدة شعرت بمقدار عذاب عاشقها فاتصلت به تليفونيًا فى مكتبه ودعته للحضور إلى بيتها.

ويمكن تتبع قصة حب رامى لأم كلثوم من تتبع أغانيها. فقد حدث أن سافرت أم كلثوم إلى رأس البر لقضاء فصل الصيف، ثم عادت وكتب لها رامى أغنية «شرّف حبيب القلب بعد طول الغياب». وأغنية «قلبى عرف معنى الأشواق» وفى أيام سعادته

بهذا الحب كتب «حسن طبع اللى فتنى علّم القلب الغرام وروحى وروحك فى امتزاج...» وعندما سافرت أم كلثوم إلى الخارج للمرة الأولى كتب أغنية «البعد علمنى السهر»!

وكانت أم كلثوم فى بعض الأحيان هى التى تعطى الشاعر أحمد رامى وغيره من الشعراء موضوع الأغنية. وذات يوم أحبت أم كلثوم ووصل بها الحب إلى قمة سعادتها، فأعطت رامى فكرة أغنية «افرح يا قلبى»! وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يكون رامى فى قمة التعاسة والشقاء، فكان يعترض على موضوع الأغنية السعيدة التى اقترحتها أم كلثوم. فقد طلبت منه أن يضع أغنية تقول: «الدنيا حلوة لأنك فيها، أشجارها بترقص.. أرضها بتغنى!» واحتج رامى وقال:

– أنا شايف الدنيا سودة.. أشجارها بتلطم.. وأرضها بتبكى!.

ورفض رامى أن ينظم القصيدة المطلوبة، وخاصمته أم كلثوم، وأصر أن لا يجعل الدنيا تضحك وقلبه يبكى!

وعندما قرر رامى أن يتزوج، ذهب إلى أم كلثوم وقال لها إنه قرر الزواج. وقالت أم كلثوم إنها تريد أن تحضر حفلة زواجه وتغنى فيها. واعترض رامى، وقال: إن أهل العروس كلهم يعرفون أننى أحبك، وإذا حضرت الفرح سيتحول إلى مأتم!

وكانت أم كلثوم أول من زار عروسة رامى فى منزل الزوجية، وعندما رزق بابنه الأول محمد ذهبت أم كلثوم وغنته فى السبوع.

وقص رامى قبل أن يتزوج على عروسه كل قصة حبه

لأم كلثوم بكل تفاصيلها. وكانت صداقة وطيدة بين الحبيبة والزوجة..

وحدث بعد ذلك أن نظم رامى أغنية «جددت حبك ليه.. بعد الفؤاد ما ارتاح».. وذهب رامى كعادته فى يوم الخميس ليسمع أم كلثوم، وهناك غنت أم كلثوم للمرة الأولى فأطربت وأبدعت.

وكانت السيدة عطا الله زوجة رامى تستمع إلى الإذاعة. وإذا بها تسمع أم كلثوم تغنى جددت حبك ليه!!

ولم يكن رامى أخبر زوجته بهذه القصيدة. وتحركت الغيرة فى قلبها وتصورت أن رامى عاد إلى حب أم كلثوم بعد انقطاع دام عشرين سنة. وتحركت الغيرة فى قلبها للمرة الأولى. وضاعف من غيرتها أن والدة رامى كانت جالسة مع زوجته فأبدت استياءها من ابنها الذى يجدد الحب «بعد أن حمدنا الله وخلصنا من هذه المصيبة»!

وعاد رامى من السهرة عند الفجر ووجد والدته متيقظة وما كادت تراه حتى صاحت فيه:

– هى حصّلت كده يارامى يا ابنى! أنت كبرت وتزوجت وأصبح لك أولاد وترجع للكلام الفارغ ده؟!

ولم يفهم رامى فى أول الأمر ما تقصده أمه، ولكنه فهم أن أمه استنتجت من الأغنية أن الحب عاد إلى قلب رامى وأم كلثوم.

وحاول رامى أن يدخل غرفة نومه، ووجد أن زوجته أغلقت الباب بالمفتاح ورفضت أن تسمح له بالدخول!

وحاول رامى أن يقنع زوجته من وراء الباب المغلق أن هذا عمل أدبى ولا علاقة له بالحب والغرام والهيام!

ولكن الزوجة أبت أن تصدق هذا الدفاع، لقد كانت كلمات الأغنية كلها تعلن بأعلى صوت أن رامى عاد يحب أم كلثوم!

والواقع أن رامى بقى يحب أم كلثوم إلى أن مات!!

عاش هذا الحب ٥٥ سنة!!.

من قتل كامِل الشناوى ؟

كان الشاعر كامل الشناوى فى شبابه يرتدى العمامة والجبة والقفطان، وكان طالبًا فى الأزهر، يهرب من حى سيدنا الحسين حيث المساجد والمآذن والدروس الدينية، ويذهب إلى شارع عماد الدين حيث المسارح ودور السينما وصالة بديعة.

وكان منظر كامل عجيبًا بعمامته الكبيرة وجسمه الضخم وهو جالس فى قهوة الفن بشارع عماد الدين بين كبار الممثلين وكبار الممثلات وكبار النقاد والصحفيين.

ولم يلبث كامل حتى خلع الجبة والقفطان وارتدى الجاكتة والبنطلون، وترك الأزهر الشريف والتحق بمدرسة الحقوق الفرنسية، ثم هجر دروس القانون كما هجر دروس الدين وقرر أن يعيش شاعرًا فنانا يعيش فى بيوت الشعر وفى دواوين الشعراء.

وكان أبرز صفاته خفة دمه، يقول النكتة فتصبح على كل لسان، كأنها أغنية من أغانى أم كلثوم أو عبد الوهاب!

وفى وقت قليل أصبح من ظرفاء مصر مثل حافظ إبراهيم ومحمد البابلى والشيخ عبد العزيز البشرى وفكرى أباظة وسليمان نجيب.

وقد عرفته أول ما عرفته عندما كنت نائبًا لرئيس تحرير مجلة روزاليوسف، وكان كامل يتردد على منزل السيدة روز بشارع الحواياتى بالقاهرة ويعطى ابنتها الطفلة آمال طليمات دروسًا فى اللغة العربية.

وما يكاد ينتهى من الدرس عن المبتدأ والخبر وصيغة منتهى الجموع حتى يدخل غرفة الصالون فيجد عددًا من محررى روزاليوسف وأصدقائها، وينقلب درس اللغة العربية إلى ضحك ومرح ودعابة ومقالب وسخرية، كان يجيد تقليد أصوات الزعماء والوزراء والكتاب، وكم من مرة تكلم باسم شخصية معروفة فى التليفون، وهاجم شخصية أخرى فأغضبه وأثاره، وقد صدق أن الشخصية المعروفة هى التى تتكلم وهى التى خرجت عن حد الأدب، وتقوم خصومة بين الشخصيتين قد تصل إلى حد الهجوم على صفحات الصحف، إلى أن يكتشف الاثنان أنهما كانا ضحية لمقلب من مقالب كامل الشناوى.

وكان لا يكره فى الدنيا إلا ثقل الدم، فإذا دخل مكتبه رجل ثقيل ضاقت به الدنيا وشعر بالاختناق واستنجد بعدد من الظرفاء من أصدقائه لينقذوه من الغرق فى الدم البارد والثقيل.

وفوجئنا ذات يوم فى أثناء الحرب العالمية الأولى بأستاذ فى الجامعة يقتحم سهراتنا فى جريدة الأهرام، وكان الأستاذ حجة فى علمه، جم الأدب، ولكنه كان لسوء حظه ثقيل الدم لدرجة أنه إذا دخل إلى فرح حوله إلى مأتم، وإذا سمع نكتة حولها إلى نظرية

علمية فتموت الضحكات فوق الشفاه، وحاول كامل أن يتخلص منه بكل الأساليب والوسائل، والرجل التقيل يزداد إصرارًا على أن يقاسمنا سهراتنا وينكد علينا الحياة وأخيرًا رأى كامل الشناوى أن يرغم صاحبنا الثقيل أن يكون خفيف الدم، وأقنعه أن دكتوراه العلوم التى يحملها لا تساوى شيئًا فى ذلك العصر، وخير له وأربح أن يكون دكتورًا فى السحر والشعوذة! ووعده بأن يكون كل محررى الأهرام مساعدين له وصبيانا فى عملية السحر والدجل، واتفق معه على أن يدعى أنه يستطيع إذا عرف تاريخ ميلاد رجل أن يعرف بعمليات طرح وضرب وجمع وقسمة اسم زوجته أو اسم صديقته أو اسم خطيبته.

ويدخل الضحية إلى مكتبى ويسأله الدكتور عن تاريخ ميلاده ثم يغادر الدكتور الغرفة ونسأل الضحية عن اسم زوجته أو خطيبته فيهمس بها فى أذنى، فأهمس بها فى أذن جارى، ويهمس بها إلى جاره حتى يصل اسمها إلى المحرر الذى يجلس عند باب الغرفة، فيفتح الباب فى هدوء ويخرج.. وبعد دقائق يقتحم الدكتور الساحر الغرفة، ويمسك ورقًا وقلمًا ويكتب ارقامًا ويجمعها ويطرحها ويضربها ثم يقول له: اسم زوجتك فاطمة!

ويذهل الضحية ويعجب من كفاءة الدكتور فى السحر وفى معرفة الغيب.. وكان كامل الشناوى يجلس فى بار اللواء، وكان الجنود والضباط الإنجليز يترددون على قهوة اللواء، وأشاع كامل بينهم أن هذا الدكتور ساحر عظيم فأقبلوا عليه يرجونه

ويتوسلون إليه أن يذكر لهم أسماء خطيباتهم! ويأخذهم كامل إلى غرفته فى الأهرام ومعه الدكتور الساحر ويلعب اللعبة على الضباط والجنود.

وخف دم الدكتور المشعوذ كثيراً، وحوّل مجالسنا من كآبة إلى مرح، ومن جد إلى هزل، ومن مناقشات علمية جافة إلى ألاعيب حواة وشعوذة! ثم ضاق كامل بشعوذة المشعوذ الذى صنعه فأصبح يخبر الضحايا مقدما بحقيقة الدكتور المشعوذ، فيشتركون معه فى اللعبة، ويضحكون على الدكتور بدلا أن يضحك منهم!

وكان أصدقاء كامل المقربون ضحايا مقالبه، وقال له أنيس منصور يوماً: «أنت يا كامل بك تزغزغ أصدقاءك بالسكاكين» وغضب كامل من هذه الحقيقة، وحاول أنيس أن يسترضيه فقال له: إننى أداعبك بأسلوبك وأتكلم بلغتك وأمزح على طريقتك! ولكن كامل كان يحب أن يحتكر المقالب ويحتكر السكاكين، وكان قادراً أن يطلق لقباً على زعيم أو أديب فيلصق به اللقب الساخر طول حياته.

وكان كاتباً كسولاً وصحفياً كسولاً وشاعراً كسولاً وعاشقاً نشطاً، إذا كتب حذف وشطب ومزق عشرات الأوراق قبل أن يكتب ثلاثة سطور.

وإذا ذهب للقاء زعيم خطير تكلم كامل طوال اللقاء ولم يترك للزعيم فرصة ليقول لنا خبراً، كان بظرفه ولطفه وخفة دمه يحتل المجلس ويسيطر عليه، فيتحول المتكلمون إلى صامتين،

والمثرثرون إلى صاغين، وينتظر رئيس التحرير نتيجة المقابلة الخطيرة إلى ما بعد منتصف الليل ثم يكتشف أن رئيس الوزراء هو الذى سكت وأن كامل الشناوى هو الذى تكلم!

وكان شاعرًا رقيقًا لو جمعنا شعره كله لما ملأ كتابًا واحدًا بينما أنه كان لديه من الخيال والموهبة والقدرة على الخلق ما يجعله أشعر شعراء مصر.

وكان شحيحًا فى أدبه متلافًا فى ماله، يكتب وكأنه بخيل يكتب كمبيالة، وينفق وكأنه مليونير له رصيد فى البنوك! والشىء الغريب أن كامل الشناوى كان مدينًا لجميع البنوك فى مصر، ولم يترك مصرفًا صغيرًا أو كبيرًا إلا واقترض منه وكتب له الصكوك والكمبيالات، حتى جاء يوم كانت الفوائد التى يدفعها للبنوك أكثر من مرتبه الشهرى!

وكنت تراه يقبض فى يناير مرتب شهر يوليو! لأنه سبق أن استدان مرتبات شهور فبراير ومارس وابريل ومايو ويونيو! كان كريمًا إلى حد السفه، لا يتردد فى أن ينفق كل مرتبه فى شراء ولاعة ذهبية وأربع كرافتات ومنديل حرير من صناعة باريس.

وكان يعتقد أن الناس أربعة: عالم يعرف أنه عالم، وهذا حكيم فاتبعوه، وعالم يجهل أنه عالم، وهذا نائم فأيقظوه، وجاهل يعرف أنه جاهل فاضربوه وعلموه، وهذا جاهل يجهل أنه جاهل، وهذا حمار فاركبوه!

كان كامل مستعدا أن يركب كل حمار، وكل غبى، وكل ثقيل

الدم، وكل أحمق ويجد متعة لا حد لها فى هذا الركوب، كان الذكاء يستهويه وكان الغباء ينفره، وكانت الموهبة تجذبه بينما الخمول العقلى ينكد عليه الحياة.

وكانت غدة الحب في قلبه تفرز باستمرار! ما مر يوم فى حياته منذ عرفته ولم أره غارقًا فى قصة حب، وكنت أقول له أن قلبه كروايات سينما مترو فى تلك الأيام، كل أسبوع فيلم جديد! وكان يسمى الفتاة التى يعشقها «آخر صيحة» فإذا مضى أسبوع على الحب بحث عن تاجر الأشياء المستعملة ليلقى فى جرابه بالحب القديم كما يرمى بالحذاء القديم!

أحب مرة نجمة سينمائية فاتنة، وكنت أدخل مكتبه فيقول لى: «القاهرة نائمة الآن فلا ترفعوا أصواتكم حتى لا تستيقظ» وأفهم من هذا أنه سأل عن معبودته فى بيتها فعلم أنها لا تزال نائمة فاعتبر هذا دليلا على أن العاصمة كلها مستغرقة فى النوم! وإذا رآها مبتسمة عاد يقول لنا: كانت القاهرة تبتسم اليوم، الشوارع تبتسم والسيارات تبتسم والعمارات تبتسم، حتى إننى رأيت جنازة فى ميدان الأوبرا كان المشيعون يبتسمون والنعش يرقص!» وكانت المعبودة تقيم فى تلك الأيام بفندق الكونتننتال بميدان الأوبرا!

وأعظم هوايات كامل الشناوى كانت احتضان المواهب الجديدة، ودفعها إلى الأمام، والحماس لها، والاشادة بها، وقد سمعت اسم «عبد الحليم حافظ» لأول مرة فى حياتى من كامل،

وقد كرره أمامى مائة مرة حتى أصبحت إذا رأيت كاملا بادرته بقولى: «ما هى أخبار عبد الحليم حافظ» ولما عرفت عبد الحليم جيدًا وجدت أن كاملا كان صادقًا فى وصفه محقا فى إعجابه به، وكذلك كان الأمر مع الموسيقار بليغ حمدى.

وكان كامل متقلبًا يحب ثم يكره ثم يحب من جديد، يصنع التمثال ويحطم الصنم، ثم يعود ليجمع الأنقاض ليبنى ناطحة سحاب، وكان مكتبه فى جريدة أخبار اليوم «الأم» التى تحتضن المحررين المبتدئين والفنانين الصغار والمواهب الناشئة، وكانت سعادته أن يرى هذه الزهور الصغيرة تكبر وتتحول إلى أشجار باسقة، ولم يكن يخشى أن يكبر صغيرًا فيحتل مكانه.. وكم من صغار حملهم فوق رأسه فداسوه بأقدامهم، ونصرهم فخذلوه، وشهرهم وحاولوا أن يدفنوه!

وكان ذوقه فى الحب غريبًا، كان دميمًا ولا يختار إلا ملكات الجمال، وكان ضخم الجثة ويصر أن تكون معبودته دقيقة صغيرة قصيرة تكوّن معه رقم ٥٠ فيكون هو الخمسة المستديرة وتكون هى الصفر الذى على اليمين، وكان مخلصًا أمينا فى حبه ولا يقع إلا فى هوى الغانيات المتقلبات الخائنات الغادرات! وكانت الفتاة التى تقف وحدها لا تستهويه ولا تلفت نظره، وإنما الذى يجذبه هو الزحام، فهو يحب المرأة التى حولها زحام شديد، فيحاول أن يشق طريقه إليها، ويدفعه من أمامه، ويوقفه من بجواره، ويزغده من خلفه، إلى أن يصل إلى المرأة التى اختارها منهوك القوى!

وقد قلت له مرة إننى ألاحظ أنه لا يحب السيارة «الملاكى» التى يستقلها وحده وإنما يحب السيارة «الأوتوبيس» كاملة العدد فيتشعبط على السلم، أو يتعلق بالباب حتى يدفعه راكب آخر! فأنا لم أره أبدًا جالسًا مستريحًا فى أوتوبيس حب.. بل كنت أراه واقفًا ينتظر أن يخلو مقعد ولا يجد محلا خاليا أبدًا!

وكان كامل يقول: «إن ولعى بالجمال لا يقف عند حد، فأنا أحب الجمال فى الطبيعة والفن والاخلاق والمرأة».

وعشت معه حبه الكبير الأخير وهو الحب الذى أبكاه وأضناه وحطمه وقتله فى آخر الأمر، أعطى كامل لهذه المرأة كل شىء: المجد والشهرة والطبل والزمر والدعاية والشعر، ولم تعطه شيئًا! أحبها فخدعته، أخلص لها فخانته، جعلها ملكة فجعلته أضحوكة، وقد كتب قصيدة «لا تكذبى إنى رأيتكما معا» فى غرفة مكتبى بشقتى فى الزمالك، وهى قصيدة حقيقية ليس فيها مبالغة أو خيال حتى إن الموسيقار عبد الوهاب سماها «إنى ضبطكما معا»!

وكان كامل ينظمها وهو يبكى، كانت دموعه تختلط بالكلمات فتطمسها، وكان يتأوه كرجل ينزف منه الدم الغزير وهو ينظم، وبعد أن انتهى من نظمها قال إنه يريد أن يقرأ القصيدة على المطربة بالتليفون.

وكان تليفونى بسماعتين، أمسك هو سماعة وأمسكت أنا وأحمد رجب سماعة فى غرفة أخرى، وتصورنا أن المطربة ما تكاد تسمع القصيدة حتى تشهق وتبكى وتنتحب ويغمى عليها وتستغفر وتعلن

توبتها.. وكان فى رأى أحمد رجب ورأيى أن هذا منظر تاريخى يجب أن نحضره.

وبدأ كامل يلقى القصيدة بصوت منتحب خافت، تتخلله الزفرات والعبرات والتنهدات والآهات مما كان يقطع القلوب، وكانت المطربة صامتة لا تقول شيئًا ولا تعلق ولا تقاطع ولا تعترض، وبعد أن انتهى كامل من إلقاء القصيدة قالت المطربة:

- كويسه قوى.. تنفع أغنيها.. لازم أغنيها!

وانتهت المحادثة التاريخية ورأينا كامل الشناوى أمامنا جثة بلا حراك!

وكتب إليها يلعنها ويقول: «لم يعد بيننا ما يغرى بأن أخدعك أو تخدعينى، فقد خرجت من حياة نفسى! لا تدهشى.. فالحياة التى أحياها اليوم لا يربطنى بها إلا ما يربط الناس بحياتهم من أمل ويأس، أو راحة وعذاب.. إنها حياة لا أتحرك فيها، ولكن أتمدد كجثة.. وهى لا تضمنى بين أحضانها ولكن تلفنى كالكفن! فى استطاعتى الآن فقط أن أصارحك بحقيقة قصتى معك، لقد خدعتنى وخدعتك، خدعتنى بكذبك الذكى، وخدعتك بصدقى الغبى.. ظللت سنوات أتوهم أنك تحبيننى، فجريت وراءك بقلبى الأبله ومشاعرى الحمقاء.. وخلال تلك السنين كنت أنتزع من نفسى خلجاتها وأقدمها لك فى آهة، دمعة، كلمة، قصيدة.. وقد دفعك إيمانك بصدق عاطفتى إلى أن تمارسى حقوق حواء بقدرة

وجدارة.. فغدرت بوفائى وضحكت من دموعى».

وسمع كامل الشناوى أن حبيبته المطربة الكبيرة عندما علمت بعذابه قالت لأصدقائها:

- مسكين كامل السناوى.. لقد دمرته الغيرة.

وكتب كامل يقول لها «صدقينى إذا قلت لك، أننى لست مسكينًا، ربما كنت كذلك لو إننى استسلمت للوهم الذى علقنى بك، ولكننى قاومته ورفضت، وجعلت من كبريائى حصنا يحمينى منك، ومن قلبى! ولا شىء يقوى أن يدمرنى لأننى أحيا، وما دمت أحيا، فإن العواصف التى تهب من حولى لا تزيدنى إلا قوة على مواجهة الأعاصير، إننى لست كثيبًا من الرمل، تبدده حفنة من الهواء، ولكننى جبل لا أبالى العاصفة، بل أحتفى بها، وبدلاً من أن تزمجر فى الفضاء أجعلها تغنى من خلال صخورى! وليس صحيحًا أنى أغار من أى إنسان تعرفينه، فالغيرة لا تكون إلا ممن تحبينهم، وقد عرفت بالتجربة أنك لم تحبى إلا ذاتًا واحدة، ولا أستطيع أن أغار منها لأنها مختبئة فى ثيابك! إنك تحبين نفسك، وتغارين ممن يشاركونك حبها، بل إنك تناصبينهم العداء، ومن أجل ذلك عاملتنى كما لو كنت عدوك الطبيعى.. أحببتك فكرهتنى، قدمت إليك قلبى، فطعنته بخنجر مسموم»!

ومضت المطربة تتبر كامل الشناوى بأنها تعشق فلانا الطبيب، وتحب علانًا المحامى، وتخرج مع ترتان المهندس!

وكتب كامل يقول لها «ليتك تعلمين أنك لا تهزيننى بتصرفاتك

الحمقاء، فلم يعد يربطنى بك إلا ماض لا تستطيع قوة أن تعيده إلينا أو تعدينا إليه.. كنت أتعذب فى حبك بكبرياء، وقد ذهب الحب، وبقيت لى كبريائى، كنت قاسية فى فتنتك، ونضارتك وجاذبيتك، فأصبحت قاسية فقط».

وكان كامل يحاول بأى طريقة أن يعود إليها، يمدحها ويشتمها، يركع أمامها ويدوسها بقدميه، يعبدها ويلعنها، وكانت تجد متعة أن تعبث به، يومًا تبتسم ويومًا تعبس، ساعة تقبل عليه وساعة تهرب منه، تطلبه فى التليفون فى الصباح ثم تنكر نفسها منه فى المساء، وكان يقول إنه لا يفهمها، وهى امرأة غامضة لا أعرف هل هى تحبنى أم تكرهنى، هل تريد أن تحيينى أم تقتلنى؟

وكتب عنها يقول «أنا لا أفزع إلا من شيئين، آلام مرض لا أعرفه، وغموض امرأة أعرفها.. وقد أتحمل آلام المرض، بأمل أو يأس، أما غموض المرأة فلا يجدى معها أملى فيها أو يأسى منها.. إن غموض الرجل يثير فيه ريبة أصدقائه فيبتعدون عنه. والمرأة الغامضة تثير الريبة فيمن يحبها، إن كل خلجاته، ونبضاته تظل تسأل فى حيرة عن سر هذا الغموض، إذا أبدت الرضى ظن أنها تخدعه، وإذا غضبت منه اعتقد أنها تكرهه.. وإذا كانت وحدها سعى إليها فيحس وحده أنه فضولى متطفل، ضيف غير مدعو! وإذا أقبلت عليه فكر فيما ينطوى عليها إقبالها من نيات ماكرة»

واستمرت لعنة الحب الفاشل تطارده وتعذبه، وكان يعتقد أن

الهجر قتله وأنه لم يبق إلا موعد تشييع الجنازة! وكان يجلس يكتب كل يوم عن عذابه وكان يخيل إليّ أنه كان يكتب كل يوم نعيه.

وفوجئت به يتردد على المقابر، ولم تكن هذه عادته، وسألته ماذا حدث فابتسم ابتسامة حزينة وقال: أريد أن أتعود على الجو الذى سأبقى فيه إلى الأبد.

وقد كتب يصف رحلته إلى المقبرة يقول: «ما أعجب هذه الصحراء، كل شيء فيها يشبه الآخر الناس متشابهون فى حركاتهم والانقباض البادى فى مسحات وجوههم، القبور متشابهة، كلها أحجار وطوب وزهور، وماء يبل الترى، كلها يضم عظاماً نخرة.. هنا، تحت المقابر تساوت الأعمار، والقيم، الشاب والشيخ، والذكى والغبى، من كان له منل أعلى فى الحياة، ومن غادر الحياة ولم يكن له فيها مثل أو هدف! ووصلت إلى المقبرة التى تعودت أن أزورها فى أكثر من مناسبة، ففيها يرقد أحبابى الذين تركوا حياتى وذهبوا إلى حيث سنذهب متلهم.. حاولت أن أبكيهم فتعثرت الدموع فى محاجرى.. حاولت أن أرثيهم فلم تنطق منى إلا كلمات خرساء، ووقفت فى خشوع، ثم جثوت فوق التراب الذى ضمهم بالأمس وسيضمنى غدًا، وحنيت رأسى اجلالا للموت الذى احتواهم بين ذراعيه.. بهاتين الذراعين سيحتوينى يوما! أيها الموت: أنا لا أخافك.. ولكنى لا أفهمك.. فمن تكون؟ هل أنت تنزف دماءنا وأعمارنا لتروى ظمأك؟، أم لتروى

ظمأ الحياة ؟ مـا أنت يا مـوت.. وما الحيـاة ؟ يا أسفي عـلى أني أعيش حياتي ولا أعرفها، وألقى الموت دون أن أعرفه !

أيتها الصحراء، يا مدينة القبور والموتى! إذا جئت إليك محمولا في نعش فاستقبليني بروحك الوديعة التي شعرت بها اليوم، عندما جئتك محمولا في سيارة.

* * *

ومات كامل الشناوي.. ومضت السنون وقابلت المطربة التي كان يعشقها وقلت لها: إنني كرهتها طول حياتي منذ قصيدة «لا تكذبي إني رأيتكما معًا» !

قالت: إنني لم أحبه، هو الذي كان يحبني.. إنني كنت أحبه كصديق فقط.

وطلب مني أن يتزوجني فرفضت لأننا نختلف في كل شيء أنا رقيقة وهو ضخم، أنا صغيرة وهو عجوز، أنا أجد متعة في أن أجلس مع الناس، ومتعته أن يجلس معي وحدي، أنا لا أريد أن يعرف الناس من أحب، وهو يريد أن تعرف الدنيا كلها أنه يحبني !

قلت لها: إن أصدقاءه يعتقدون أنك قتلتِهِ !

قالت: لا.. إنه هو الذي انتحر !

سألتها: تقصدين أنه انتحر حبا ؟

قالت: بل انتحر غيرة !

ولم أصدقها طبعا..

عبد الوهاب يعترف

قدم الفنان محمود مراد مذكرة إلى وزير المعارف الدكتور أحمد ماهر يقترح فيها إدخال علم الموسيقى والغناء فى جميع المدارس، وعرض وزير المعارف الأمر على رئيس الوزراء سعد زغلول الذى وافق على الاقتراح، وأصر أحمد ماهر بإدخال الموسيقى والغناء إلى المدارس الثانوية والابتدائية، وكان هذا آخر قرار وقع عليه، وفى نفس اليوم استقالت الوزارة وقبض الإنجليز على أحمد ماهر ووضعوه فى السجن بتهمة التحريض على قتل السردار وحاكم السودان.

وأصبح على ماهر شقيق أحمد ماهر وزيرًا للمعارف فأمر بالاستمرار فى تنفيذ قرار أحمد ماهر.

وأعلن ناظر مدرسة الأوقاف - الخديو اسماعيل الآن - أن الموسيقار محمد عبد الوهاب عين أستاذًا لنا يعلمنا الموسيقى والغناء ويدعونا للانضمام إلى فرقة المدرسة، وأسرعت بالانضمام!

وجاء عبد الوهاب يلقى علينا دروسًا فى الموسيقى والغناء وكان شابا صغيرًا أنيقًا.. وحضرنا ثلاث حصص للأستاذ الجديد، وفى الحصة الرابعة أراد أن يمتحن أصواتنا فى الغناء.

وسمع عدة طلبة، ثم طلب منى أن أغنى، وكانت مفاجأة

مزعجة لى ولعبد الوهاب معًا، وأذكر أننى غنيت أغنية «وحوى يا وحوى اياحا البنت الحلوه الفلاحه»!

ولم يحضر عبد الوهاب إلى مدرسة الأوقاف بعد هذه الحصة، ولا أعرف إذا كان هذا بسبب صوتى المزعج، أم لانشغاله بأعمال أخرى.

وكان فى الوقت نفسه يدرس الموسيقى والغناء لمدرسة خليل أغا الابتدائية وكان احسان عبد القدوس تلميذًا بها.

وعرفت عبد الوهاب بعد ذلك، وأنا محرر فى مجلة روزاليوسف، وكان كثير التردد على بيت السيدة روزاليوسف والأستاذ محمد التابعى، وكانت مجلة روزاليوسف شديدة الحماس لعبد الوهاب الذى كان يغنى مجانًا فى كل سهرة تقيمها المجلة، وكان فى ذلك الوقت فى مصر حزبان، حزب عبد الوهاب وحزب أم كلثوم، وكانت أغلبية حزب عبد الوهاب من النساء، وأغلبية حزب أم كلثوم من الرجال، وكانت مجلة روزاليوسف تهاجم أم كلثوم انتصارًا لعبد الوهاب، وكنت المحرر الوحيد فى المجلة من أنصار أم كلثوم.. وكان باقى المحررين ضد أم كلثوم على طول الخط.

ورأيت عبد الوهاب وهو يصعد درجات سلم المجد درجة بعد درجة، وقال لى عبد الوهاب يومًا:

ولدت وفى داخلى بذرة الثورة، وليس هذا غريبًا، لأننى حضرت فى طفولتى ثورة ١٩١٩، وكنت من أشد أنصار سعد زغلول، وأذكر وأنا ولد صغير كنت أغنى بين الفصول فى

فرقة الأستاذ عبد الرحمن رشدى، وكانت تمثل رواية «البدوية» من تأليف الأستاذ إبراهيم رمزى، وكانت ملابس الرواية عربية، العباءة والعقال، وحدث أن اعتقل الإنجليز سعد زغلول فخرجنا فى مظاهرة فى الشوارع ونحن بالملابس العربية، نهتف بحياة سعد وسقوط الإنجليز، وهاجمنا العساكر الإنجليز وضربونا، واعتقلونى، ثم أطلقوا سراحى لأننى ولد صغير.

فى هذا الجو المشحون بالحماس والوطنية أرسل الله لى جوا جديدًا ومناخًا جديدًا لم أعرفه، فى شخص أمير الشعراء أحمد شوقى بك، رأيت دنيا جديدة، وعالمًا آخر غير الذى أعرفه، باشوات وبكوات وأدباء وصحفيون وفنانون وشعراء، واستفدت من هذا الجو كأننى دخلت عدة مدارس وجامعات فى وقت واحد، وصحبنى شوقى إلى باريس، وهو أمر لم يكن يحلم به أى مطرب، فتحت عينى على جو مختلف – عالم من الفن والموسيقى والأوبرا والغناء، مسارح كالقصور فنانون كالأمراء والسلاطين.

وكنت قبل ذلك أغنى بين الفصول بعض أغانى عبده الحامولى وأغانى خفيفة، وكان عمرى بين ١١ و ١٢ سنة، وكانوا يلبسوننى بدلة «سموكن» ويضعون فوق رأسى الطربوش ويطبقون أصابعى على منشة، ويلبسوننى ياقة منشاة وكرافتة حتى أبدوا كبيرًا وطويلًا، وكنت أغنى «عذبينى فى مهجتى... فمهجتى فى يديك.. وأمرينى فالقلب طوع لديك» وأغنية أخرى «سمحت بارسال دموعى محاجرى»!

وكانت كل هذه أغانى الشيخ سلامة حجازى... وكانت هذه الأغانى فى تلك الأيام لا تلائم جو الثورة الذى يسود البلاد، وبدأت أغنى أغانى الناس التعبانين الشقيانين المكدودين المسحوقين، ولكن الفرقة لم تنجح فأغلقت أبوابها وجلست فى البيت، وكنت أعيش فى عاصفة مستمرة فى بيتنا، أنا أريد أن أغنى، وأبى شيخ، وأخى حسن فى الأزهر يدرس للحصول على العالمية، وكل أقاربنا من رجال الدين، وحدث صراع بينى وبين أبى ووقفت أمى بجوارى تحمينى من أبى ومن غضبه، ولذلك فأنا أحب أمى حبا خطيرًا، لولاها لما استطعت الاستمرار فى الغناء ولأصبحت شيخًا فى الأزهر.

وعندما قامت الثورة بدأت أندمج فيها وأغنى أغانيها! حدث مرة أن أصدر القائد البريطانى أمرًا عسكريا بسجن وجلد كل من ينطق باسم سعد زغلول وإذا بالشيخ سيد درويش يضع لحن «يا بلح زغلول، ياحليوة يا بلح. عليك ننادى فى كل وادى يا بلح زغلول».

وانتشرت الأغنية فى مصر كلها وأصبحت على كل فم، الناس تغنيها فى الشوارع والبيوت فى المدن والحقول.. وهكذا كنا نحارب الإنجليز بالغناء. وأسقط فى يد الإنجليز فلم يستطيعوا أن يمنعوا الشعب أن يغنى.

وسألت مرة عبد الوهاب عن علاقته بالفنان سيد درويش فقال: لم يكن الشيخ سيد درويش مشهورًا بأنه مطرب وإنما كان

ملحنًا، وألف فرقة مع عزيز عيد وأفلست، ومثل رواية شهر زاد فأفلست، واتفق مع منيرة المهدية وألفا فرقة أفلست أيضًا، واقترح عليه بعض أصدقائه أن يمتنع عن الغناء ويجيء بولد صغير يغنى بدلا منه.. وجاءوا بى له، ووقف هو يقود الأوركسترا، ولم أكن أفهم وقتئذ ماذا تعنى العصا التى فى يد قائد الأوركسترا، وفشلنا فشلًا رائعًا وأغلقت الفرقة أبوابها.

سألت عبد الوهاب: فى تلك الأيام كم كان أجرك فى الليلة؟

قال عبد الوهاب: فى تلك الأيام كانوا يقسمون الأجر بنسبة فى المائة من الإيراد، وقد قبضت سبعة قروش أجرًا عن الثلاثة أو الأربعة أيام التى غنيت فيها شربنا بها قصب!

ثم اتصلت بعدد من الشبان الذين يقيمون فى حى الحلمية مثل محمد صلاح الدين الذى أصبح وزيرًا للخارجية وعبد الخالق صابر الذى أصبح وكيلًا لوزارة الحربية وحسن النحاس الذى أصبح سكرتيرًا عامًا لمجلس الوزراء، وإبراهيم عبد الهادى الذى أصبح رئيسًا للوزراء وأحمد حسام الدين الذى أصبح سكرتيرًا للجامعة، وكان هناك طالب فى مدرسة الهندسة اسمه عبد المجيد بدر وكان يقلد صوت سعد زغلول وهو يخطب تقليدًا عظيمًا، وقد أصبح فيما بعد وزيرًا للمالية، كانوا كلهم من المتعلمين فى مصر والخارج، وسألونى لماذا لا تتعلم الموسيقى على أصولها؟ ودلونى على نادى الموسيقى الشرقى، وكان النادى ناديا ارستقراطيًا يرأسه مصطفى بك رضا بن مصطفى باشا رضا المتزوج من أخت

حرم سعيد باشا ذو الفقار كبير الأمناء وأحمد ذو الفقار باشا وزير العدل، و(حماه) عباس الدرملى باشا، وكل أعضائه أبناء باشوات وأغنياء والطبقية الارستقراطية، ولم أتردد فى دخول هذا النادى الارستقراطى، وبدأت أتعلم على أيدى أساتذته، ثم لاحظت أنهم يعيشون فى جو من الموسيقى الشرقية القديمة، وتعلمت البشارف والسماعيات تعلمت «فى البعد ياما...» وتعلمت أغنية «كادنى الهوى» وأصبح أساتذتى فى معهد الموسيقى يقولون عنى «يا سلام! الولد يغنى بالضبط مثل عبده الحامولى!» لم يعجبنى هذا الكلام، أنا لا أريد أن أكون عبده الحامولى الثانى، أنا أريد أن أكون عبد الوهاب الأول، لا أطيق أن أؤدى نفس التأدية الموسيقية القديمة أردت أن أتحرر منها، أردت أن أتخلص من الأنغام التى كلها زركشة ودانتيل وارامكس، وهى التى اشتهر بها رجال الموسيقى الشرقيين القدامى أمثال عبده الحامولى، فضّلت أن أغنى الأغنية بطبيعتى بإحساسى بوجدانى، ولكن إذا جلست مع مصطفى رضا بك وعباس الدرملى باشا خفت منهما واضطررت مرغما أن أغنى القديم الذى يطربهم، وأخفى الجديد الذى يملأ روحى، وانتهز أن أدعى إلى عشاء أو سهرة، لا يكون فيها أساتذة معهد الموسيقى فانطلق أغنى على سجيتى، أذكر أن الأديب الكبير مصطفى لطفى المنفلوطى أقام فرحًا لابنته، ودعانى للغناء فيه، وتلفت حولى فلم أجد أحدًا من أساتذة المدرسة القديمة فى الموسيقى، وانتهزت الفرصة ورحت أغنى موسيقاى، وأطربت وأبدعت، وشعرت أن ألحانى الجديدة دخلت

قلوب الناس وهزتهم، ولكننى لم أكن أجرؤ إذا ذهبت إلى نادى الموسيقى الشرقى أن أغنىّ أمام أساتذتى على طريقتى، كانت طريقتهم غير واضحة، لم يكن فيها تأدية العصر، بل تأدية متعبة مرهقة كان يقول اللحن سعادتلو حضرتلو عزتلو أفندم بدلا من أن يقول: أنت..! كانت الخطوط الأساسية للحن غير واضحة، لأنها تضيع فى الزركشة والدندشة والزخرفة والحشو الذى لا علاقة له بالمعنى، وحدث مرة أن ضبطنى أساتذة المعهد فى أحد المسارح وأنا أغنى بطريقتى لا بطريقتهم، واستدعونى وقرروا محاكمتى! كيف تغنى الغناء الذى لم نعلمه لك؟ كيف تجرؤ على مخالفة الأصول والتقاليد! قلت اننى ألحن معنى الكلمة لا ألفاظها؟ أغنى روحها لا حروفها، ولقد كان الطرب فى أيامها متعة لا فنا! يغنى المطرب بينما الحاضرون يأكلون ويشربون ويسكرون ويتحدثون، وكنت أثور فى داخلى على هذا الوضع، لم يعلمنى أحد أن هذا القديم ليس فنا، بل إحساسى الداخلى هو الذى جعلنى اختار هذا الطريق الجديد، وأنا تأثرت بالأنغام الأجنبية التى كنت أسمعها، ولم أتأثر بألحان سيد درويش، وإنما تأثرت برواياته.

أول لحن فى حياتى

وسألت عبد الوهاب مرة: هل تذكر أول لحن لحنته؟!

وضحك عبد الوهاب وقال: قد تستغرب أن أول لحن لى كان كلامًا سخيفًا بايخًا لا معنى له. لم يهتم أحد بأن يعطينى قصيدة

ألحنها أو أغنية أضع موسيقاها، وحدث أن كنت أقرأ فى جريدة، وكان شيء فى داخلى يريد أن يخرج كموسيقى، وقرأت خبرًا عن نقل حضرة الفاضل الصاغ المأمور على المفتى إلى مدينة زفتى! ووجدت نفسى ألحن هذا الخبر، وأحوله إلى موسيقى وأنغام، وأردده وأغنيه!

ولكن أول أغنية حقيقية لحنتها من نظم أحمد شوقى بك أمير الشعراء، كان ذلك فى فرح ابنه على شوقى، ودعا شوقى بك زعيم الأمة سعد زغلول لحضور الفرح، واعتذر سعد أن صحته لا تسمح له بالسهر، فتقرر أن يبدأ الفرح الساعة الخامسة مساء.

وعندما سمعت بهذا النبأ جن جنونى! كنت أعشق من طفولتى هذا الرجل، ألف على الصواوين التى يخطب فيها، واندس بين المتفرجين واسمعه وهو يخطب، كنت أقف على سور الأندية لأشاهده من بعيد، هذه هى فرصتى لأراه عن قرب، لأشمه، وفى تلك المناسبة كتب شوقى أغنية زفة العروسة وهى تقول «دار البشاير مجلسنا، وليل زفافك مؤنسنا، إن شا الله تفرح يا عريسنا، إن شا الله دايما تفرحنا». وغنيت الأغنية أمام سعد، وأبدى اعجابه بها، ورأيت وأنا أغنى أصابعه وهى تدق على حافة الكرسى، وشجعنى اعجاب سعد على أن أمضى فى التلحين، وغنيت أغانى بسيطة مثل «فيك عشرة كوتشينة» وبعض أغانى تهجيص، ولم يكن شوقى وقتها مستعدا أن ينظم لى قصائد أو أغانى.

قلت لعبد الوهاب: أعرف أنك وأنت ولد صغير كنت تغنى أغانى الحب؟ مثلاً نظم لك شوقى فى بداية حياتك أغنية تقول «شبكت قلبى يا عينى، شوفى بقى مين يحله؟» إلى أن يقول «توحشنى وأنت ويايا، واشتاق لك وعنيك فى عينيه، واتذلل والحق معايا، واعاتبك ما تهونش علىّ؟» كيف تلحن هذه المعانى التى تنبض حبا وعشقًا وهوى وغرامًا دون أن تحب وتعشق وتهوى وتغرم؟

قال عبد الوهاب: أول مرة خفق قلبى للحب كان عمرى تسع سنوات! كان حبا خطيرًا من أخطر ألوان الحب التى هزت حياتى، كانت سيدة عمرها ٢٥ سنة! أكبر منى بتسعة عشر عامًا، كانت تسكن بجوارنا فى حى الشعرانى، وكان زوجها كاتب وقف المسجد، كانت اسمها خديجة، سيدة رائعة الجمال، طويلة سمراء، عيناها واسعتان، لا أزال أذكر أسنانها البيضاء، ابتسامتها الحلوة المنورة، عندما تضحك كنت أرى نورًا ينبعث من شفتيها من شدة بياض أسنانها وجمالها، وكانت تحب صوتى، وكانت تطلب منى أن أغنى لها «عذبينى فمهجتى فى يديك» فكانت تحتضنى وتنظر إلى عينى نظرة ساحرة، فأذوب بين يديها وأحس بمتعة وهناء غريبين وإذا بزوجها يغار منى ويطردنى ويمنعنى من دخول البيت ويضربنى، ولم يكتف الزوج بذلك فأبلغ أخى الشيخ حسن فانهال علىّ ضربًا، ولكن هذا الضرب لم يشفنى من الحب! بقيت أحبها ولا ألقاها، وأغنى لها ولا ألقاها إلى أن التقيت بزينب! كنت ألتقى بأصدقائى فى منزل واحد منهم بالحلمية، كان يسكن بيتًا

فخماً، وكنت أغنى لهم، وسمعتنى زينب فأعجبت بى، ورأيتها فهمت بها غراماً، والتقيت بها فى حوش البيت وأعطتنى منديلاً، وبقى المنديل معى ١٥ سنة، أشمه فأجد فى عطره رائحة حب حقيقى، لحنت عدة أغانى حب والمنديل فى يدى، كان المنديل يوحى لى بالنغم، كنت أرى فيه صورتها، أشم فيه رائحتها ورائحة الحب، سافر أخو زينب فى بعثة فى لندن فانقطعت زيارتى لبيت حبيبتى، ومرت سنوات ورأيتها فى قطار الإسكندرية فى سنة ١٩٢٨ وكنت أصبحت عبد الوهاب المشهور الذى غنى «يا جارة الوادى» و «مريت على بيت الحبايب» وأحسست بشعور غريب، أحسست بذكرى حزينة مؤلمة ولكنها لذيذة، عجيب أن تجتمع اللذة بالألم، أحسست بمتعة وبلذة الذكرى، وبألم الفراق فى وقت واحد، سألتها: أزيك يا زينب؟ وعملتى ايه؟ وجدتها ست بيت، متزوجة، سيدة سمينة، معها طفل، هذا المنظر قضى على إحساسى الأول، رأيت شيئاً آخر، وليست هذه هى زينب التى عشت أحبها وأحلم بها وألحن على صورتها، تجاهلت صورتها الأخيرة، وبقيت فى خيالى صورتها الأولى، زينب فتاة الحلمية! صاحبة المنديل!

مطرب الملوك والأمراء.

فى تلك الأيام حدث شىء خطير فى حياتى! كنت أغنى فى حفلات الطبقة العالية، يوماً فى قصر الأمير يوسف كمال، يوماً فى بيت عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء، يوماً فى بيت

إسماعيل صدقى باشا، يومًا عند شوقى بك أمير الشعراء، حتى أصبح اسمى «مطرب الملوك والأمراء»!

وذات يوم عرضت علىّ السيدة منيرة المهدية أن أمثل أمامها دور أنطونيو فى مسرحية «كليوبترا»، ووقفت على المسرح لأول مرة، وكان حدثًا خطيرًا فى حياتى، أصبحت أتصل بطبقات جديدة، فتح الشعب قلبه لى وسمعنى، قبل ذلك كنت مطرب صالونات.

ونقلتنى منيرة نقلة هائلة أصبحت مطرب الشعب، أقيم حفلات أغنى فيها «يا جارة الوادى» و«يلبل حيران» و«كلنا نحب القمر» و«خايف أقول اللى فى قلبى»، منيرة المهدية هى التى دفعتنى أن أخوض الألحان من أوسع الأبواب، فقد أعطتنى رواية «كليوبترا» التى لحن سيد درويش ثلثى المسرحية، ولحنت الثلث الثالث، كان شيئًا خطيرًا فى حياتى أن أضع اسمى بجوار اسم سيد درويش.

سطع نجم عبد الوهاب فى مسرحية «كليوبترا» ولم تحتمل منيرة المهدية انطلاق عبد الوهاب على المسرح، واحتملت فى أول الأمر هذا النجاح الهائل الذى يطفئ شمسها، لأنه كان يدر عليها أموالاً طائلة من دخل المسرحية، وابتدأ أصدقاء منيرة يلتفون حولها، ويقولون لها: عبد لوهاب سيطغى على اسمك، سيضيع مجدك، وبدأت منيرة تتأثر من الدوى فى أذنها، وذات مساء فى آخر فصول الرواية يقول عبد الوهاب: كان المفروض أن

أدخل أنا المسرح جريحًا كأنطوان، وأقول كلامًا حماسيًّا كالكلام الذى كان يقوله يوسف وهبى فى رواياته عن الحب والحرب والغرام والقتال ثم انتحر وأنام على كنبة، فتجيء منيرة المهدية «كليوبترا» بثعبان يلدغها وتموت راقدة بجوارى، ولكن منيرة تعمدت ألا تقع بجانبى، وإنما وقعت فوقى، كان وزنها ٩٠ كيلو، ووزنى ٤٥ كيلو فقط، وكتمت أنفاسى بجسمها الضخم، وكان المفروض أن يقفل الستار ثم نقف نحيى الجماهير، وأسدل الستار ورفع الستار، ولكنى لم أقف فقد كان مغميًا علىّ، وجاء الطبيب وأسعفنى حتى أفقت ووقفت على قدمىَّ، وخرجت من المسرح ولم أعد بعد ذلك!

وجاءت منيرة المهدية بالمطربة فتحية أحمد وأسندت لها «مارك انطوان» وفشلت، ثم جاءت بصالح عبد الحى يمثل انطوان ولم ينجح، وقررت أن أشق طريقى بين الجماهير، وكانت أم كلثوم تأخذ من مسرح رمسيس يوم الخميس «ماتينيه» لتقيم حفلتها، فأخذت أنا من رمسيس يوم الأحد «ماتينيه» لأقيم حفلاتى، وأصبحت صديقًا ليوسف وهبى.

وقبل أن أشتهر وأتعرف بيوسف وهبى كنت شابا فى الثالثة والعشرين من عمرى، وكنت أتردد على قهوة اسمها قهوة الفن أمام مسرح رمسيس حيث تمثل فرقة يوسف وهبى، وكان يجلس فى هذه القهوة كبار النقاد مثل محمد التابعى رئيس تحرير روزاليوسف ومحمد محمد رئيس تحرير المجلة الجديدة، وإبراهيم

المصرى صاحب مجلة التياترو ومحمد على حماد رئيس تحرير مجلة الرغائب وأحمد حسنى المحرر فى روزاليوسف، وكان يجلس معهم كبار الممثلين والممثلات، وكنت أنظر إلى يوسف وهبى كعملاق ضخم كبير، إنه الذى جعل الناس تحترم فن التمثيل، وتحترم مواعيد رفع الستارة، كان يفتح الستارة الساعة التاسعة، فإذا جاء متفرج تسعة ودقيقة واحدة لا يدخل المسرح، ويبقى فى الخارج حتى يجىء الفصل الثانى! كان يمنع التصفيق أثناء التمثيل! كان يمنع دخول الطعام والمشروبات إلى المسرح، جعل الناس ينظرون إلى المسرح بإجلال، يرون أنه شىء خطير، أليس يوسف وهبى بك ابن باشا؟ أمر لم يكن يتصوره أحد فى تلك الأيام، هذا المنظر والجلال والأبهة والعظمة هزتنى، ذهبت إلى باب مسرح رمسيس وراء قهوة الفن، جلست على الرصيف فى انتظار سيارة يوسف بك وهبى، وما أن قدمت السيارة حتى اندفعت إليها لأصافح الفنان العملاق، وإذا بيوسف وهبى يدفعنى بيده ويطفعنى على وجهى. تراجعت إلى الوراء.. وتجمهر الناس يسألون ماذا حدث؟ قلت: جريت أسلم عليه راح لعن أبويا وضربنى قلم! قالوا لى: ضربك قلم لأنك تنادى عليه وأنت لا تعرفه! قلت: أنا كنت أقول له اعطينى أيدك أبوسها يا بيه.. راح ضربنى وقال لى: يلّة يا كلب يا بتاع الكلب! امشى يا كلب! ومشيت حزينًا يائسًا.. ومرت السنوات وأصبحت نجمًا مشهورًا أستأجر مسرح رمسيس لأغنى فيه حفلات غنائية وأدفع ليوسف وهبى مبالغ طائلة!

وذات يوم ذكرت يوسف وهبى أنه ضربنى قلمًا!

وكاد يغمى عليه.. واعتذر وهو يقول: والله يومها لم أكن أتصور أن واحدًا من الشارع سيكون نجمًا عظيمًا!

ولم أفكر أن أرد له القلم، فقد زادتنى هذه الصفعة حبا له.. وعذرت النجم المشهور عندما يضيق والجماهير تلتف به تكاد تخنقه!

لقد كنت واحدا من هؤلاء الجماهير!

وانقطع الشريط الأول.

وسكت عبد الوهاب.

وبدأ يضع الشريط الثانى فى الكاسيت!

هُددت بالقتل من أجل ليلى مراد.

قال لى الموسيقار عبد الوهاب: أول مرة عرفتك من ٥٦ سنة! كنت أنت تلميذًا فى مدرسة الأوقاف الملكية التى يسمونها الخديوى إسماعيل الآن، وكنت أنا أدرس لكم الموسيقى والغناء، ولا أذكر إذا كنت طردتك من الفصل لمشاغبتك ومحاولتك تبويظ الفصل.. ثم بعد ذلك انقطعت عن التدريس بعد أربعة دروس!.. وبعد ذلك عرفتك فى أكتوبر سنة ١٩٣٠ فى بيت السيدة روزاليوسف، وكانوا يحتفلون بعيد ميلاد مجلة روزاليوسف، وكان بين الموجودين محمد التابعى والعقاد والمازنى وإبراهيم رمزى ولطفى جمعه ومحمد صلاح الدين الذى أصبح وزيرًا للخارجية

وأحمد حسن الصحفى وسعد الكفراوى الذى كان يتولى إدارة المجلة.

قلت له: كنت أراك باستمرار فى بيت التابعى وروزاليوسف، ثم انقطعت صلتك بالسيدة روزاليوسف عندما فكرت فى أن تنتج فيلما وتظهر فى السينما لأول مرة فى حياتك، واخترت زكى طليمات زوج السيدة روزاليوسف ليخرج لك الفيلم، ثم عدلت عن ذلك واستعنت بالمخرج محمد كريم.

وغضبت روزاليوسف وقررت ألا يظهر اسمك فى المجلة، وكانت هذه الأزمة بداية الخلاف فى المجلة، الذى أدى إلى استقالتنا من مجلة روزاليوسف وإصدارنا مجلة آخر ساعة.

وكنت ألقاك كثيرًا فى بيت الأستاذ محمد التابعى وحضرتك وأنت تلحن أغنية «النيل نجاشى حليوه أسمر. أرغوله فى أيده بيسبح لسيده!» وفى تلك الأيام سمعنا أنك واقع فى غرام فتاة من أسرة أرستقراطية كبيرة.

قال عبد الوهاب: فعلًا: كان بينى وبينها قصة حب، ولكن لا أريد أن أذكر اسمها، يكفى أن نقول إنها فتاة من أسرة كبيرة، عرفتها فى بيت أسرتها، كان حبًا خطرًا مجنونًا! كنا لا نتكلم وإنما نتبادل النظرات، لم أجرؤ أن ألمس يدها، لم أجرؤ أن أقول لها أحبك، لم أكن أستطيع أن أجلس إلى جوارها، أو أنفرد بها، وكانت من أسرة شوقى أمير الشعراء، وكانت مهابة شوقى وعظمته تقف بينى وبينها، وكان شوقى يحبها ويدللها، ولم

أجرؤ أن أطلب يدها منه، كان شوقى بالنسبة لى ملكًا، ولم يخطر ببالى أن أتزوج ابنة الملك!

ومات شوقى، ولم أعرف بنبأ وفاته إلا فى القطار الذى كان يحملنى من الإسكندرية إلى القاهرة، كان ذلك فى محطة بنها، ونزلت من القطار عند وصولى إلى القاهرة وذهبت مباشرة إلى بيت شوقى ووجدت الدنيا مقلوبة وسرادق المأتم ينصب، ودخلت البيت من باب المطبخ.. وما كدت أخطو بعض خطوات داخل البيت حتى رأيت الفتاة التى أحبها تبكى، وما أن رأتنى حتى عانقتنى وقبلتنى، كانت مفاجأة أذهلتنى، أن أقبل حبيبتى يوم وفاة رب نعمتى، كان موقفًا خطيرًا ودقيقًا وتمالكت نفسى عندما اجتمع أسوأ يوم فى حياتى بأسعد يوم فى حياتى فى لحظة واحدة! وأردت أن ابتعد عنها فقالت لى: «اتركنى أقبلك لأن شوقى كان يحبك!».

وانقطعت عن زيارة البيت، وتزوجت الفتاة بابن رئيس الوزراء، وإذا برئيس الوزراء يدعونى إلى الفرح لأغنى فيه، وذهبت وغنيت فى زفاف الفتاة التى تمنيت أن تكون زوجتى، كان قلبى يتمزق وأنا أغنى لها، وكان أكثر ما يؤلمنى أننى أحاول أن أتظاهر بالفرح فى ليلة مصرعى، وأتظاهر بالضحكَ وقلبى يبكى.. وبعد سنتين قررت تمثيل فيلم «الوردة البيضاء» ووضعت فيه قصتى مع الفتاة التى أحببتها.. وفى هذا الفيلم عدة مواقف تنطبق على قصتى مع الفتاة، كانت أغنية «يا لوعتى يا شقايا يا ضنى

حالى».. تنطبق على عذابى وتعاستى وشقائى فى هذا الهوى المجنون، وكانت أغنية «يا وردة الحب الصافى» مستوحاة من أحداث حبى عندما كنت أجلس فى حديقة دار هذه الأسرة، وتجيء فتاتى وتنزع وردة وتقدمها لى بغير أن تقول كلمة، وكنت أحتفظ بالوردة وأشمها وأقبلها إلى أن تجيء لى الفتاة بوردة أخرى، وكانت أغنية «ضحيت غرامى علشان هناكى» ترسم صورة صادقة لمشاعرى وأنا اتنحى عن الفتاة التى أحببتها حبا يقرب من العبادة لتتزوج ابن رئيس الوزراء! وقد توهمت يومها أن ابن رئيس الوزراء يستطيع أن يسعدها أكثر مما يسعدها موسيقار شاب، وكنت مخطئًا فى تقديرى فإن هذا الزواج فشل بعد سنوات قليلة وتزوجت الفتاة مرة ثانية وثالثة!

وسألت عبد الوهاب: ألم تحب ممثلة من الممثلات اللاتى ظهرن معك فى أفلامك؟ نجاة الكبيرة أو راقية إبراهيم أو سميرة خلوصى أو ليلى مراد أو غيرهن؟

قال عبد الوهاب: لا.. ولا واحدة! ولكن حدث أن ليلى مراد قالت لى إن الملك فاروق رآها فى استراحة مصر الجديدة وقال لها: أنت تحبين عبد الوهاب! فقالت ليلى: يا مولانا أنا أحب فنه!

قال فاروق : لا أنا واثق أنك تحبينه.. وسوف أخلص عليه! وأشار فاروق اشارة معناها أنه سيقتلنى!

وفزعت، أصبت بالرعب، ذهبت إلى صديقى عبد الحميد

عبد الحق وزير الشئون الاجتماعية ورويت له ما قالت ليلى مراد، قال لى عبد الحميد: نهارك أسود! والله يعملها!.

قلت له: أنا فى عرضك! أعمل ايه؟ قال عبد الحميد: لازم تهرب.. سافر! قلت: كيف أسافر إنه يستطيع أن يتخلص منى فى ساعة! قال: «اركب سيارتى واذهب عندى فى بلدى ابو قرقاص واختفى هناك.. وتأكد أن فاروق سوف ينساك!»

وركبت السيارة وامضيت فى أبو قرقاص عشرين يومًا مختفيا فى بيت عبد الحميد عبد الحق!

أكبر منى بعشرين سنة!

وبعد ذلك أردت أن أدارى الحب القديم بحب جديد! كما يقولون «داوها بالتى كانت هى الداء» كانت سيدة تكبرنى بعشرين عامًا! أحبتنى حبا قويًا كان جديدًا علىّ! كان يختلف عن كل حب آخر، كانت أرملة رجل واسع الثراء، وكان دخلها بين ٦٠ ألف جنيه و ٧٠ ألف جنيه وهو ما يساوى أكثر من مليون جنيه فى هذه الأيام! وكانت سيدة عاقلة جدًا، لم تبدد ثروتها، وإنما نمتها وضاعفتها، وكانت تقيم فى قصر عظيم، وكانت تدعو إلى قصرها الوزراء وكبار رجال الدولة، وعرفت فى صالونها حسن نشأت باشا الذى كان يحكم مصر فى وقت من الأوقات، وعرفت كل أصحاب النفوذ والسلطان فى تلك الأيام.

وقد رأيتها لأول مرة فى حفلة ساهرة أقامتها فى عوامة تملكها،

ورأت إعجاب السيدات بغنائى فقالت: «والله لآخده منهم!».

وأعجبت بى وأعجبت بها، بل عشقتها وأحببتها، وحرصنا ألا يعرف أحد بقصة هوانا، فقد خشيت أن يعلم أشقاء زوجها بقصة هذا الحب فينتزعون أولادها منها، وقد تكتمت هذا الحب عن أقرب الناس إلىّ، أذكر أنها دعتك أنت والتابعى لتناول العشاء فى قصرها، وحرصت طوال العشاء أن أعاملها أمام الضيوف أنها سيدة عظيمة وأننى مطرب مدعو للحفلة كباقى المدعوين، مع أننى كنت صاحب البيت!

وتزوجتها فى سنة ١٩٣٠ وبقيت زوجة لى ١٢ سنة، كانت من أسعد أيام حياتى، على الرغم أنها كانت أكبر منى سنًا بعدة سنوات، ولم تعرف هذا السر الخطير إلا سيدة اسمها إيزابيل بيضا إحدى أصحاب شركة بيضافون للأسطوانات، فقد عقدنا الزواج فى بيتها فى مصر الجديدة.

كانت مشهورة بجمال عينيها، لم تكن سيدة جميلة، ولكنها كانت امرأة بمعنى الكلمة كلها أنوثة وحيوية وفتنة، كانت هى المدرسة التى تعلمت فيها فن الحياة، كانت الأستاذة التى علمتنى كيف أقتصد من أرباحى وأكوّن ثروة، كيف ألبس، كيف أنتقى ألوان ملابسى وأنواع الكرافتات والجوارب والأحذية، كانت خبيرة فى الذوق، علمتنى الحياة، كانت تسافر كل عام إلى أوربا وتأخذنى معها إلى مدينة كارلسباد حيث المياه المعدنية الشهيرة، علمتنى كيف أفتح صالونا فى بيتى، وكيف أستقبل الناس.

تعلمت من شوقى أشياء كثيرة، ولم أكن أستطيع أن أنقل جو شوقى أمير الشعراء إلى بيتى، وجاءت هذه السيدة لتقنعنى أننى أستحق أن أعيش كشوقى، أن أفتح بيتى، أن أعرف أعظم الناس فى بلدى، وجاءت إلى بيتى ونظمت لى حياتى، فقد احتفظت ببيتى واحتفظت بقصرها، استطاعت هذه السيدة أن تجعلنى أرى فيها كل شيء، أحببت فيها أمى وأختى وحبيبتى وصديقتى.

ثم جاءت سنة ١٩٤٢، وسافرت إلى رأس البر لتمضية الصيف، فقد كانت مدينة الإسكندرية مقفولة بسبب الحرب، ونزلت فى عشة الاستاذ محمد التابعى، وكان التابعى يعيش كالأمراء فى حياة فخمة ومآدب يومية فاخرة وسهرات إلى الصباح، وكانت العشة مليئة بالأصدقاء والكتاب والفنانين، وكنت أذهب إلى فندق اسمه «لوكاندة فؤاد» تطل على شاطئ النيل أجلس هناك.

ورأيت سيدة ملكت لبى وسيطرت على فكرى، أصبحت صورتها لا تفارقنى، أحببتها من النظرة الأولى، سحرتنى، وقدمها لىّ أحد أقاربها وكان مديرًا لشركة مصر للطيران، وعلمت أنها تزور سيدة كبيرة قريبتها اسمها عطية هانم الفلكى وهى والدة محمود صالح الفلكى الذى كان وكيلاً لوزارة المالية وسفيرًا لمصر فى باريس. وكانت هذه السيدة واسعة الثراء، وكانت تقيم حفلات باذخة تدعو لها كبار المصريين والمصريات، وكانت فتاتى تدعى

إلى هذه الحفلات، فأصبحت أداوم حضور هذه السهرات ولا أهرب منها، ثم علمت أنها تسكن فى عمارة فى شارع الأهرام، أمام شقة يسكن فيها الأستاذ اسماعيل وهبى المحامى شقيق الفنان الكبير يوسف وهبى، ووطدت علاقتى بيوسف وهبى، ثم بشقيقه اسماعيل وهبى، وأصبحت أتردد كثيرًا على بيت اسماعيل وهبى لأرى من بعيد الفتاة التى أحببتها ومن هناك تعرفت بأسرة الجيران وتوطدت الصلة، وأصبحت أعطى فتاتى دروسًا فى البيانو والموسيقى، وتطورت دروس البيانو والموسيقى إلى دروس فى الحب، وأمضيت فى هذه الدروس أحلى ساعات حياتى.

وفى أثناء هذا الحب لحنت قصيدة «الجندول» وأغنية «الكرنك» وأغنية «كليوبترا» وأعتبر أغنية «الجندول» طفرة هامة فى حياتى، طفرة القصيدة المعبرة، لا القصيدة المغناة، وغنيت فى ذلك الوقت قصيدة «خمرة الراين» وسجلتها فى استوديو مصر وتركتها لأضعها فى فيلم، وفى إحدى الأفلام أردت أن أبحث عن هذا اللحن الذى سجلته وكان من أحسن ألحانى، ولسوء الحظ قام حريق فى استوديو مصر وحرق اللحن ولم يترك منه أثرًا، ولا أذكر حتى الآن هذا اللحن ولا الكلام! وحدث أن كنت جالسًا عند مكرم عبيد باشا وقرأت الأهرام، وقرأت فيها قصيدة اسمها «الجندول» ولم أهتم أن أعرف من هو صاحبها، أعجبتنى الكلمات وبدأت ألحنها، وتوهمت أن الشاعر هو الأستاذ محمود حسن اسماعيل وكان يعمل فى الإذاعة، وبعد أن انتهيت من تلحين القصيدة طلبته فى التليفون وقلت له: إننى قرأت لك

قصيدة وأعجبتنى ولحنتها، وسر الشاعر محمود حسن اسماعيل وسألنى: وما هى القصيدة التى اخترتها من قصائدى؟ قلت: قصيدة «الجندول» وإذا به يقول: هذه ليست قصيدتى وخجلت من نفسى واعتذرت له ولكنه قال لى هذه قصيدة شاعر اسمه على محمود طه وأعطانى رقم تليفونه.

ألهمنى هذا الحب ألحانًا كثيرة، كانت كل خفقة فى قلبى نغمة، وتزوجت هذه السيدة وأصبحت أم أولادى.

ولم أطلق زوجتى الأولى.. ثم حدث أن كنت فى سينما مترو بالقاهرة أشهد فيلمًا، وأثناء الفيلم أقبل رجل لا أعرفه وقال لى: أنا عايزك، ودهشت وسألت عن السبب لم يقل شيئًا وإنما قال لى: تعال معى! وتبعته ودخل بى إلى مكتب مدير السينما وأغلق الباب، وعرفت أنه من رجال البوليس، وقال لى: قد جاءنا بلاغ أن بضعة أشخاص اتفقوا على قتلك، وأنهم يتربصون بك ليقتلوك بالشوم والسكاكين على باب السينما، وطلبوا منى أن أخرج من باب خلفى حتى أنجو من القتلة، واستطاع البوليس أن يقبض على واحد منهم، فاعترف بأن زوجتى الأولى هى التى حرضتهم على اغتيالى!

وأنت تعرف أننى أحب نفسى وأننى «خواف.. قوى.. موت» فما سمعت هذه الحكاية حتى ملأنى الرعب، وبكل أسف أننى ورثت هذا الخوف من شوقى أمير الشعراء، أو ربما أن الفنان جبان بطبعه، ولكن شوقى أمير الشعراء كان «خواف» جدًا

وكان يحرص عندما يمشى فى الشارع أن يمشى أمامى وأنا أمشى خلفه، ولعله كان يتصور أننى أحرسه بهذه الطريقة، أو أننى أستطيع أن أحميه إذا جاء أحد من الخلف وأراد أن يضربه، وكان يخرج من بيته ويمشى وهو يزن كالنحلة، كان ينظم الشعر وهو يمشى، وكانت له عادة أنه عندما يصل إلى الميدان الذى اسمه ميدان التحرير الآن أن يدخل دورة المياه، ثم يستأنف سيره فى شارع سليمان باشا - طلعت حرب الآن - إلى نادى محمد على الذى يسمونه نادى التحرير.

وكان عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء يخرج من بيته فى الجيزة ويمشى على كوبرى قصر النيل إلى ميدان الإسماعيلية إلى نادى محمد على.

وذات يوم مشينا - شوقى وأنا - فى نفس الطريق الذى اعتدناه.. ووجدنا شابين يمشيان خلفنا.. وكان شوقى حساسًا بطريقة عجيبة، فنظر خلفه ولاحظ أن شابين يسيران خلفه فأسرع فى خطواته، فأسرع الشابان فى خطواتهما، فجرى شوقى وجريت خلفه.. وإذا بالشابين يسبقانا، وقال شوقى لأحدهما مرعوبًا: حضرتك مين؟ وسكت شوقى، وقال له الرجل: ماتخافش قول أنت مين؟ قال: أنا شوقى! والتفت الشاب إلى زميله وقال له: مش قلت لك.. لامؤاخذة! وفى اليوم التالى قرأنا فى الصحف أن البوليس قبض على شابين كانا يتربصان فى شارع سليمان باشا لقتل عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء، وعشت

مدة مذعورًا من ميدان الإسماعيلية وشارع سليمان ونادى محمد على!

وأعود إلى قصة الرجال الثلاثة الذين حرضتهم زوجتى الأولى على قتلى، بدأت أشعر بالقلق وبالخوف على حياتى، إذا كان من الممكن قتلى أمام سينما مترو، فإن من الممكن قتلى أثناء ترددى على قصرها، وقررت أن أطلقها.

وذهبت زوجتى الأولى إلى السيدة ايزابيل بيضا ووسطتها لأعود إليها، وأرادت أن تغرينى بالمال، وقالت لى إنها مستعدة أن تكتب لى ما أريد من أملاكها، ومستعدة أن أتولى إدارة كل أملاكها، قلت لها: إنه بعد التحريض على قتلى انفتح جرح كبير فى قلبى، ويجب أن أبتعد حتى يندمل هذا الجرح.

واضطرنى هذا الحادث إلى طلاقها آسفًا حزينًا، وكان حبى الجديد قد ملك علىّ كل قلبى وكل حواسى، وأصبح من المستحيل أن أجمع بين زوجتى الثانية وزوجتى الأولى، وأسدلت الستار على القصة الأولى، وبعد ذلك توفيت هذه السيدة وعرفت أن آخر كلمة نطقت بها على فراش الموت كانت محمدًا!

وهو اسمى الذى كانت تنادينى به.

زيجتى الأخيرة كانت غريبة، وجدت نفسى محمولاً فى طائرة إلى دمشق، كنت ضد ركوب الطائرات ولم استقل طائرة فى حياتى، ولكن الرئيس جمال عبد الناصر أمر أن أسافر إلى دمشق بالطائرة، واضطررت أن أنفذ الأمر.. وأمرى إلى الله!

وكان عبد الناصر فى دمشق، وكان مهتما بالسوريين أكثر من اهتمامه بالمصريين، وانتهز هذه الفرصة متعهد حفلات أفاق أراد أن يستغل وجود عبد الناصر فى سوريا ويقيم حفلات يدعو إليها جميع المطربين والمطربات، واعتذرت وقلت إن عندى حرارة ٣٩، وفى نفس اليوم دق جرس التليفون فى بيتى وسمعت محمد أحمد سكرتير الرئيس يقول لى: سيادة الرئيس! أصبت بالرعب والفزع معًا، سمعت صوت عبد الناصر يقول لى: أيه يا عبد الوهاب موش عاوز تسافر ليه؟ قلت: لا والله يا سيادة الرئيس أنا عيان! قال عبد الناصر: عندك حرارة كام؟ قلت: عندى ٣٧ درجة وخمسة شروط! قال عبد الناصر: يا راجل ده أنا بيبقى عندى ٣٩ درجة حرارة وباشتغل.. قلت له: الطائرة قامت! قال عبد الناصر: أنا أعدت الطائرة من الهواء، وقلت لهم لا تتحرك الطائرة إلا وفيها عبد الوهاب!

اضطررت أن استقل الطائرة مرغمًا، وتحركت الطائرة وارتعش جسمى، وارتعدت مفاصلى وارتفعت درجة حرارتى، وكان يصحبنى المطرب عبد الغنى السيد الذى لم يفارقنى، ونزلنا فى فندق قطان، وزادت الحمى وطول الليل يدلكنى عبد الغنى السيد بالكولونيا، ثم سمعته يصرخ ويقول: ده فيه كلكوعة هنا، ده أنت عندك خراج يا أستاذ، وارتفاع درجة الحرارة جاء من الخراج، وقالوا لابد من فتح الخراج، قلت: أسافر مصر، قالوا: لا تعمل العملية فى مستشفى هنا، اتصلت بمحمود رياض أمين الجامعة العربية الذى كان يومئذ سفير مصر فى دمشق، أدخلنى مستشفى

بعقلين فى الأشرفية، مكثت يومين فى المستشفى تم انتقلت إلى فندق اسمه فندق بريستول لتمضية أيام النقاهة، وبينما أنا فى المستشفى دق جرس التليفون وسمعت ناصر النشاشيبى الذى كان يومئذ محررًا فى أخبار اليوم يقول لى: أنت بتعمل أيه عندك! قلت: استشفى! قال: فيه هنا ناس يحبونك ويريدون أن يكلموك، كلمتنى سيدة اسمها عزيزة هانم حرم حيدر بك شكرى وهى خالة نهلة القدسى، وكانت تعشق الغناء، وتواظب على حضور حفلاتى وتحب صوتى قالت عزيزة هانم: أريد أن أراك، قلت: أهلا وسهلاً! قالت: ومعى قريبة لى، قلت: أهلا وسهلا، ودخلت عزيزة هانم التى كنت أعرفها من قبل وخلفها سيدة تضع على رأسها طرحة سوداء، كانت سيدة رائعة الجمال، ترتدى تاييرا أسود، لا أستطيع أن أنسى منظرها إلى اليوم، رأيت جمالاً رهيبًا لم أر مثله فى حياتى! ورأيتها تضع نظارة سوداء على عينيها، فخشيت أن تكون حولاء، فقلت لها: ما تشيلى النظارة يا هانم! فقالت نهلة: لا.. والله عينى تعبانة! قلت لنفسى لابد من الهجوم. وعرضت عليهما أن يتفرجا على الجناح الذى أقيم فيه، ودخلت معى، وانتهزت الفرصة، ونزعت النظارة من فوق عينى نهلة، وإذا بها تزغدنى فى صدرى وتقول لى: ايه قلة الأدب دى! قلت لها: متأسف! وتطلعت إلى عينيها وكدت أجن بجمالها، تبين لى أن الذى كانت تخفيه كان أجمل شىء فيها!

قلت لها: عرفت لماذا تضعين النظارة لتخفى كل هذا الجمال! أنت رائعة الجمال، أنت شىء خطير!

وجلسنا نتكلم، واكتشفنا أن شيئًا واحدًا يجمعنا، أنا متعب فى حياتى العائلية وهى متعبة فى حياتها العائلية، تعرفنا على تعب، التعب المشترك.. وإذا بنا نتفق على تطبيع العلاقات كما تقول لغة السياسة الآن.

كنت أنا مستعدا لهذا الحب ووجدت عندها نفس الاستعداد، وفى أوائل أيام لقائنا قررت أن أنفصل عن زوجتى الثانية وأتزوج من نهلة، أحسست أنها أجمل شىء فى حياتى، مختلفة عن كل امرأة عرفتها، وجدت فيها طعما حلوا كأنه الشهد فى فمى، رأيت فيها السند الذى أريد أن أستند عليه وأنا انطلق فى الحياة، معها شعرت أننى لست وحدى فى الدنيا، كأنها جاءت بالدنيا كلها ووضعتها تحت أقدامى، وعدت من القاهرة إلى بيروت وقلت لها إننى طلقت زوجتى، وشعرت أنها استراحت لهذا القرار، لم تطلب منى أن أنفصل عن زوجتى، ولكنى أحسست أنى لم أعرف امرأة أخرى فى العالم، وفى أثناء أيامنا الأولى لحنت أغنية «بفكر فى اللى ناسينى» وكان كلام الأغنية يعبر عن مشاعرى ونهلة بعيدة عنها، ولحنت «لا.. موش أنا اللى أبكى» وأغنية، «هو افتكرنى علشان ينسانى» كانت كل كلمة من هذه الأغانى تحكى قصة حبنا، تروى دقات قلوبنا، تسجل دموعنا وآهاتنا معًا، الأغانى التى تعبر عن عاطفة صادقة تعيش ولا تموت أبدًا.. ووجدت أنها إنسانة على دراية تامة بالفن.

كان قلبى يخفق بالموسيقى، كلما أحببت امرأة غنيت لها وغنيت عنها، كل لحن من ألحانى هو قصة من قصص قلبى، أذكر

عندما تركتنى الفتاة الارستقراطية التى أحببتها وفضلت علىّ ابن رئيس وزراء مصر وجدت نفسى ألجأ إلى الشاعر الموهوب، الدكتور سعيد عبده وأقول له أريد أغنية تقول «كان عهدى عهدك فى الهوى، يا نعيش سوى يا نموت سوى، أحلام وطارت فى الهوا، تركت مريضى من غير دوا» كان هذا الكلام يترجم عذابى وشقائى وهوانى، كان مجموع دموعى وآهاتى وشهقاتى، كنت إذا أردت أن أصرخ وأتأوه غنيت، وكانت الألحان تحكى جروحى.

مع شوقى قابلت لطفى السيد وطه حسين ودكتور حافظ عفيفى والنقراشى ويوسف الجندى، هؤلاء العمالقة تعلمت منهم كثيرًا، كنت أجلس بينهم أسمع ولا أفتح فمى، ولا أنطق بكلمة.. كنت أشبه بالنحلة أقف فوق كل زهرة وأمتص بعض رحيقها.. إلى أن جاءت نهلة. وكانت وحدها مدرسة! هى التى فتحت بيتى للفنانين والفنانات، كنت مخاصمًا أم كلثوم فصالحتنا، وأصبحت أم كلثوم أقرب صديقة لها، جعلت بيتى بيت فنان، كل غرفة فيه تغنى وتعزف وتنشد وتقول لى: آه!

ويستيقظ عبد الوهاب من النوم فيجد نهلة القدسى، ويقول لها: صباح الخير أيها الحب!

وتقول: صباح الخير يا بيبى!

و «بيبى».. اختصار حبيبى!.

الموسيقَار الذِى رَفَضَ الوِسَام

كنا فى سهرة جريدة الأهرام، فى مكتب أنطون الجميل بك رئيس تحرير الأهرام. واعتدنا أن نجتمع كل ليلة إلى ما بعد منتصف الليل، نتحدث فى الأدب والسياسة والشعر والصحافة. كانت السهرة تجمع بين عدد من كبار الكتاب أمثال توفيق دياب صاحب جريدة الجهاد وحنفى محمود الأديب الساخر والسياسى المعروف وتوفيق الحكيم وأحمد الصاوى محمد وتوفيق صليب أحد أبطال ثورة ١٩١٩ ومن الأدباء الشبان كامل الشناوى وعلى أمين وغيرهم.

وأقبل علينا الشاعر على محمود طه. وكان يسمى نفسه على محمود طه المهندس لأنه تخرج من مدرسة الصنائع، وكنا نطلق عليه لقب «الملاح التائه» نسبة إلى ديوان الشعر الذى أصدره. وقال على محمود طه: عندى لكم هدية! وسألناه باهتمام عن الهدية. فقال هناك موسيقى من المنصورة سأحضره لكم ليغنى فى سهرة الأهرام. واحتج أنطون الجميل وقال: إنه لا يسمح أن تتحول غرفة رئيس التحرير إلى صالة غناء! وقال حنفى محمود: إن اسم رياض السنباطى غير موسيقى، وعليه أن يغير اسمه قبل أن نسمعه، وقال كامل الشناوى: إنه لم يسمع عن هذا المطرب من قبل وتساءل هل هو يغنى باللغة الإنجليزية أو اللغة

الفرنسية؟ وقال الشيخ العسكرى المحرر بالأهرام: إن قرية سنباط اشتهرت بالراقصات، ولابد أن هذا السنباطى يرقص ويغنى فى وقت واحد!

وغضب الشاعر على محمود طه، وقال: إن السنباطى من مديرية الدقهلية، وهى المديرية التى أنجبت أم كلثوم ولطفى السيد والدكتور هيكل وَعددًا من كبار الأدباء والفنانين، وإنه يتوقع أن يكون رياض السنباطى عملاقًا فى يوم من الأيام!

وقال توفيق دياب: ننتظر حتى يصبح عملاقًا وبعد ذلك نسمعه!

وقال الشاعر على محمود طه: إنه نظم قصيدة مطلعها «يا مشرق البسمات أضىء ظلام حياتى» وإن السنباطى لحنها وسوف يغنيها!

وانفجر كامل الشناوى ضاحكًا وقال: إن ظلام حياة الشاعر على محمود طه يحتاج إلى شركة الكهرباء كلها لتبديد هذا الظلام!

وخرج الشاعر على محمود طه وهو يتحسر على جهلنا بالموسيقى والشعر والأدب!

ومرت عدة أسابيع، واتصل بى سعيد لطفى بك مدير إذاعة القاهرة وقال لى إنه يدعونى أنا وشلة الأهرام لتناول العشاء فى بيته فى مصر الجديدة، وقبلنا الدعوة. وعندما اجتمعنا فى الصالون قال لنا إنه سوف يسمعنا صوتًا جديدًا. ورأينا شابًا طويلاً نحيفًا

فى الواحد والعشرين من عمره. لم يبد أى اهتمام بأى واحد منا، وجلس يدق على العود ويغنى. ولم يكن يلتفت لنا حتى يعرف صدى موسيقاه فى آذاننا. وكان سعيد لطفى مدير الإذاعة يهتز يمينًا ويسارًا من فرط الإعجاب والطرب، بينما كان كامل التناوى يستعجل موعد العشاء!

لم يكن رياض السنباطى يومها شخصية جذابة، ولم يهتم بأن يكسب هذا الحشد الكبير من الصحفيين والأُدباء. كان يغنى لنفسه، وكان الفرق بينه وبين أم كلثوم مثلاً أنك تشعر وهى تغنى أنها تغنى لك شخصيًّا!

وتوالت دعوات سعيد لطفى لنسمع رياض السنباطى. ويومًا بعد يوم فهمنا موسقاه، كانت لها شخصية مختلفة عن أى موسيقى أخرى. كان فيها أشياء من عراقة الموسيقى الشرقية. فقد كان يفهم ما يغنيه، وكانت النغمة تعبر تعبيرًا جميلاً عن الموسيقى، وكما أن الراقصة الفنانة تتكلم بجسدها وهى ترقص، فإن الموسيقار العبقرى يجعل موسيقاه تتكلم دون أن ينطق بكلمة واحدة!

وفى تلك الأيام اتصل حسن عبد البر المهندس الزراعى بالخاصة الملكية بابنة أخته «كوكب» الشابة الصغيرة، وقال لها: هل تريدين أن تسمعى مطربًا جديدًا له مستقبل؟، ورحبت الفتاة وصحبها إلى بيت سعيد لطفى، وجلست الفتاة تستمع مبهورة للفنان الشاب. كأن موسيقاه نومتها تنويمًا مغناطيسيًّا. كانت

طوال الغناء تتابعه بأذنها وعينيها وبكل حواسها.

ورأى رياض السنباطى هذه الشابة الصغيرة واقترب منها يسألها:

– أى أغنية تريدين يا آنسة أن أغنيها لك؟

قالت الفتاة: أى أغنية لعبد الوهاب.

وصدم السنباطى من إجابتها، ولكنه أعجب بصراحتها ومضى يغنى لها طول السهرة ولم تعرف الفتاة أن المطرب الشاب يغنى لها وحدها، ولكنها شعرت أنه شيء مختلف عن كل المطربين والمطربات. كان أبرز ما فيه شموخه وكبرياؤه، ولم يكن هذا غرورًا أو تكبرًا بل كان ثقة بالنفس. كان يؤمن بأن موسيقاه شيء جديد وأن هذه الموسيقى سوف تدخل إلى كل قلب.

وفى الأسبوع التالى أقام سعيد لطفى مأدبة عشاء أخرى دعا إليها حسن عبد البر وجاء الموظف الكبير بابنة أخته كوكب مرة أخرى. واختارت هى مكانًا فى الصالون فى آخر الصفوف. ولاحظ رياض السنباطى وهو يغنى ويعزف على العود أن هذه الفتاة الصغيرة أكثر الموجودين والموجودات فى السهرة استمتاعًا بصوته، فمضى يغنى لها. لم يكلمها أى كلمة. لم يتبادلا التحية، خجل أن يعبر لها عن إعجابه بها. وانتهت السهرة ولم ينطق السنباطى كلمة واحدة وانصرف المدعوون ونزل السنباطى على درجات السلم، ووجدها تنزل بجواره. والتفت إليها وهمس فى أذنها: هل تتزوجينى؟ قالت له بصوت عالٍ: نعم!!

وبعد أسبوع تم زواج الآنسة كوكب كريمة عبد البر بك المنوفى من الأستاذ رياض السنباطى، وكان ذلك فى مارس سنة ١٩٤٠ وعاش هذا الزواج واحدًا وأربعين سنة.

ولم يكن هذا الحب هو الحب الأول فى حياة السنباطى. كان الحب الأول فى مدينة المنصورة. كان يسكن فى بيت صغير فى حارة ضيقة، وكانت تسكن أمامه «هانم» ابنة الجيران، وسمعته وهو يغنى فوقفت فى النافذة ترقبه باهتمام. وحياها بإشارة من يده، فحيته بأن مررت أصابعها فوق شعرها. وأصبح السنباطى يجد متعة فى أن يغنى لها، وأن يرى فى عينيها صدى أغانيه.. ولحن لها أغنية خاصة تقول لها: يا ريتك حبتنى زى ما حبيتك..!

وكان يكفى أن تسمع هانم ابنة الجيران دقاته على العود، حتى تسارع وتفتح نافذتها لتسمع صوت الحبيب الذى لا يتكلم إلا بالأنغام..

وذهب السنباطى إلى والد ابنة الجيران ليخطبها. وقابله والدها بترحيب وإجلال واحترام، ولكنه لم يكد يقول للأب إنه يريد أن يخطب ابنته هانم حتى هاج الأب وماج وصاح غاضبًا: هل أنت مجنون؟ هل تريد أن تتزوج ابنتى من مزيكاتى!

وشعر السنباطى بالإهانة، فانتفض وقام من مقعده وخرج دون أن يصافح الأب. كانت هذه أكبر إهانة تلقاها فى حياته. وعاد إلى بيته وأقفل على نفسه باب غرفته، وأقفل النافذة التى كان يطل منها على ابنة الجيران، ورفض أن يأكل شيئًا وأحس

والده بالمحنة التي يعيش فيها ابنه، فقد كان يبكى بغير دموع، ويصرخ بغير صوت. وقرر الأب من تلقاء نفسه أن يذهب إلى بيت والد هانم ابنة الجيران ويسأله عن سر رفضه. وقال أب الفتاة لوالد رياض: أنت يا شيخ محمد لا تقبل أن تتزوج ابنتى الوحيدة من قرداتى!

قال والد رياض: إنه موسيقى مزيكاتى!

قال والد الفتاة: موسيقى.. مزيكاتى.. قرداتى زى بعضه!

وعبثًا حاول الشيخ محمد إقناع الأب الذى أصر أن السنباطى قرداتى!

وضاقت الدنيا فى وجه السنباطى. ضاقت به الحارة، وضاقت به مدينة المنصورة كلها، فقرر أن ينفذ وصية الشيخ سيد درويش له بأن المستقبل فى القاهرة.

وصل السنباطى إلى القاهرة مجروحًا! مكث سنوات يضمد الجرح. كانت كلمة قرداتى تنكد عليه حياته. وأدت هذه الإهانة إلى أن يزداد اعتزازًا بكرامته وحرصًا عليها وسبب هذا الاعتزاز عدة مشاكل للسنباطى. فكان مثلا إذا تقدم يطلب عملا فى القاهرة ولم يشعر أن صاحب العمل يستقبله باحترام انتفض من مقعده دون أن يهتم بالأجر بالمعروض وكثيرًا ما فعل ذلك وليس فى جيبه قرش واحد ولم يكن تناول طعام الإفطار، وكان يقول لأصدقائه الشبان إنه لا يهمه أن يأكل، ولكن يهمه أن يحترمه الناس!

لقاء بارد مع أم كلثوم

ومنذ كان ولدًا صغيرًا كان يحرص على كرامته. وكان إذا ذهب إلى أحد الأفراح يحييه مع والده، ولم ينصت السامعون إلى عزفه على العود، حمل العود وانصرف رافضًا أن يكمل العزف والغناء.

وحدث أن كان مع أبيه فى محطة قرين وينطقها الفلاحون «جرين» فى مديرية الدقهلية. والتقى والد أم كلثوم مع والد السنباطى فى المحطة، وتعانق الأبوان ووقفت أم كلثوم بعيدًا وناداها أبوها وهو يقول: سلمى على رياض السنباطى. وتقدمت أم كلثوم بغير اهتمام وصافحت السنباطى، وجرحت كبرياء السنباطى فسلم عليها، ومد يده إليها وصافحها بأطراف أصابعه دون أن ينظر إليها أو يتحدث معها. ثم أدار ظهره لها ومشى بعيدًا. وكانت أم كلثوم يومها ترتدى عقالاً وجبة وقفطانًا! ويومها كانت أم كلثوم مشهورة فى السنبلاوين وكان رياض السنباطى مغمورًا ولهذا تأخر لقاء العملاقين من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٣٢ عندما لحن رياض السنباطى لأم كلثوم أغنية «النوم يداعب عيون حبيبى»! ثم لحن لها أغنية «على بلد المحبوب وديني» ونالت نجاحًا شعبيًّا ضخمًا. وأصبحت محطة الإذاعة المصرية تعطيه عشرة جنيهات ثمنًا لكل لحن.

كيف يولد اللحن

وكان للسنباطى عادات غريبة فى التلحين كان إذا تسلم الأغنية قرأ النص عدة مرات ثم اتصل بأم كلثوم والشاعر أحمد رامى، يناقشهما فى بعض كلمات الأغنية. وكان أحياناً يقول إن هذه الكلمة غير موسيقية ولا تصلح للتلحين، فيختاران كلمة أخرى. وكم من الأغانى عدلت وبدلت كلماتها بناء على طلب السنباطى. ويستغرق فى هذه المرحلة حوالى الأسبوع حتى يتأقلم مع الأغنية ويعيش فيها. ثم تبدأ طقوس التلحين، فيغلق على نفسه باب الغرفة فى الساعة الخامسة بعد الظهر. وهذه هى ساعة الصفر. وتصدر أوامره الصارمة. لا أحد يتحرك فى البيت. لا يريد أن يسمع صوت فى فتح أبواب أو قفل أبواب. لا طفل يصرخ. التليفون ينقل إلى غرفة بعيدة ويوضع على الأرض حتى يضعف صوته. لا يستقبل البيت أى زائر. إن تعليماته المتشددة أن لا يدخل أحد الغرفة. لا زوجته ولا أولاده ولا أحفاده. ولو جاءت أم كلثوم فهى لا تدخل. فهو يجلس الآن فى صومعته. إذا ضرب جرساً واحداً فمعنى ذلك أنه يريد فنجاناً من القهوة، وإذا ضرب جرسين فمعنى ذلك أن دخول الغرفة مباح للجميع. أحياناً يلحن من الساعة الخامسة بعد الظهر حتى الساعة العاشرة مساء. وقد يستمر غلق الباب حتى الساعة الحادية عشرة وفى بعض الليالى يستمر فى التلحين إلى ما بعد منتصف الليل، ويستغرق

تلحين القصيدة بضعة أيام، ولكن قصيدة الأطلال استغرقت مدة طويلة بين أربعة شهور وستة شهور. وعندما ينتهى من تلحين القصيدة يتصل بأم كلثوم. وتحضر أم كلثوم إلى بيته، أو يذهب هو إلى بيتها فى الزمالك.

وذات ليلة دعتنى أم كلثوم لكى أذهب إلى بيتها وأحضر رياض السنباطى وهو يغنى لها لحن «سلوا قلبى» من نظم أمير الشعراء أحمد شوقى بك، وكنت أحد الذين اختاروا هذه الأبيات من القصيدة العظيمة.

ودعتنى أمينتها سنية لأن أصعد إلى الطابق العلوى، وقادتنى إلى غرفة صغيرة كانت فى مواجهة غرفة النوم. وكانت أم كلثوم تنام فى هذه الغرفة فى الشتاء بسبب دفئها. أما غرفة نومها فكانت كبيرة وكانت تطل على الناحية البحرية. ولم تكن أم كلثوم أدخلت بعد نظام التدفئة فى بيتها.

ووجدت أم كلثوم وقد وضعت نظارة على عينيها، وتجلس فى طرف الكنبة بينما يجلس السنباطى فى الطرف الآخر. وكان السنباطى مندمجًا فى غناء اللحن على العود فلم يتوقف ويقف لتحيتى بل اكتفى بأن هز رأسه ومضى يغنى.

وجلست فى مقعد بجوارهما، واستمر فى تحفيظها اللحن. كان يغنى النغمة، وترددها خلفه أم كلثوم. فإذا قالت أم كلثوم: الله.. مضى فى إكمال اللحن.

وإذا لم يظهر الانسجام على وجه أم كلثوم غير وبدل فى النغم،

وكان يرتجل الألحان الجديدة بسرعة مذهلة. وإذا تسلطن رياض السنباطى اندمج فى اللحن، ولم يشعر بما يجرى فى الغرفة، تخرج أم كلثوم لترد على التليفون فيمضى فى الغناء وكأن أم كلثوم لا زالت موجودة معنا.

ولحن رياض السنباطى غير سلوا قلبى نهج البردة، وعرفات، وحديث الروح للشاعر الباكستانى إقبال، والقلب يعشق كل جميل لبيرم التونسى، وجددت حبك ليه، والنيل، وعودت عينى على رؤياك، وفاكر لما كنت جنبى، ورباعيات الخيام لعمر الخيام، والأطلال للدكتور الشاعر إبراهيم ناجى وعدة قصائد وأغانى أخرى. وكان من رأى السنباطى أن أم كلثوم أجمل صوت خلقه الله. وكانت أم كلثوم تشترى منه اللحن بخمسمائة جنيه وفى السنوات الأخيرة ارتفع ثمن اللحن إلى ألف جنيه. ولم يكن يهمه كم تدفع أم كلثوم. وقال لى مرة إنه مستعد لأن يلحن لأم كلثوم «ببلاش» ولكنه يرفض أن يلحن لبعض المطربات اللواتى ذكر اسماءهن ولو دفعت الواحدة منهن عشرة آلاف جنيه. ومن الطريف أن الإذاعة المصرية هى التى دفعت له ثمن تلحين سلوا قلبى وعندما دفع له مدير الإذاعة مائتى جنيه ثمن اللحن قال له: إنهم سيحيلوننى إلى مجلس تأديب عندما يعلمون أننى دفعت لك مائتى جنيه!

وكان السنباطى يعتقد أن قصيدة «أقبل الليل».. هى أحسن أغنية لحنها فى حياته. ومن سخرية القدر أنها يومها لم تعجب الجمهور. ولم يقبل الناس على شراء أسطوانة هذه الأغنية ويومها

قال رياض السنباطى: «أنا لا أعترف أننى سقطت فى هذه الأغنية، بل أعتقد أن الجمهور هو الذى سقط»!

وكان هذا الموسيقار العظيم شخصية غريبة! كان يكره ضوء القمر الذى طالما تغزل فيه الشعراء والمطربون! وكان يقول: إن الشمس هى التى تستحق الغزل فهى مصدر الحياة. أما القمر فهو نجم ألقته الشمس على الأرض لعدم أهميته.

وكان يكره صوت كلاكسون السيارات، أو صوت طلقات الرصاص فى نادى الصيد القريب من بيته. وكان ينزعج ويفزع إذا سمع صوت نفير السيارة أو طلقة بندقية.

وكان ينزعج كذلك إذا سمع صوتًا قبيحًا، وكان من رأيه أن يمنع أى مطرب من الغناء إلا إذا حصل على رخصة للغناء كالرخصة التى يحصل عليها من يفتح محلاً مقلقًا للراحة. فإذا تجرأ صاحب صوت قبيح وغنى فيجب على الشرطة أن تقبض عليه وتودعه السجن وتقدمه إلى محكمة الجنايات!

وكان يحب كل شىء جميل. الوجه الجميل. الكلمة الحلوة. المنظر الرائع. اللوحة المعبرة. وكان الصوت الجميل يخلبه ويهز مشاعره، وكان أى رنين يلفت نظره. ومن الورود كان يحب الزهور الصفراء!

ولاحظ أصدقاؤه أنه يبدع وتظهر كل عبقريته فى ألحانه لأم كلثوم، وقال إن السبب فى ذلك أنه كان يجد فى أم كلثوم الطاقة الهائلة التى تتسع لألحانه. وكان يعجبه من أصوات المطربين

الرجال محمد قنديل وعبد الحليم حافظ والشيخ على محمود والشيخ محمد رفعت، وكان معجبًا بشادية فى أغانيها الخفيفة، وكان يفضل محمد عبد الوهاب فى أغانيه القديمة. وكلما كان يظهر له لحن جديد كان عبد الوهاب يتصل على الفور بالسنباطى ويهنئه على اللحن الجديد وكذلك كان يفعل السنباطى.

ولحن فى آخر أيامه أغنيتين للمطربة فيروز، وسافر إلى بيروت خصيصًا ليعلمها اللحن. والغريب أن فيروز احتفظت باللحنين ولم تسجلها إلى اليوم وكان ذلك منذ أربع سنوات!

أما هواياته فهى قراءة الشعر وسماع الموسيقى الكلاسيكية، مثل السيمفونيات والباليهات. ومتعته الكبرى هى أن يسمع موسيقى تشايكوفسكى ورمسكى كورساكوف، وخادشادوريان، الذى زار مصر وقابله السنباطى فى معهد الموسيقى الشرقى، وجلس أمامه مبهورًا بعظمة موسيقاه، وعاد إلى بيته يقول لمن فيه إننى قابلت اليوم أعظم رجل فى العالم!

ويكون السنباطى فى أحسن حالاته عندما يسافر، وقد سافر إلى السعودية ولبنان والعراق والكويت وسافر إلى باريس وحرص أن يزور أوبرا باريس وجميع الأندية الموسيقية.

الوسام المرفوض

وأنعم عليه الرئيس جمال عبد الناصر بوسام الاستحقاق من الدرجة الأولى وتلقى دعوة ليذهب إلى صالة جامعة القاهرة

ليتلقى الوسام من يد رئيس الجمهورية. وفى صباح يوم الاحتفال جاء المحضر وحجز على بيته بناء على طلب مصلحة الضرائب.

وقرر أن يرفض الذهاب إلى الحفلة وتسلم الوسام، وحاولت أم كلثوم وعدد من أصدقائه لإقناعه بالذهاب إلى الحفلة وتسلم الوسام، ورفض السنباطى وأصر على موقفه، وقال: أنا لا أفهم أن تحجز علىّ الحكومة فى الصباح وتعطينى وساماً بعد الظهر.

وجلس فى بيته يشهد الاحتفال فى التليفزيون ورآهم ينادون على اسمه ليتسلم الوسام، والناس تتلفت باحثة عنه..

وفى اليوم التالى أرسلت له وزارة الثقافة الوسام إلى البيت!

رجل الأسرة

كان السنباطى رجل أسرة بمعنى الكلمة، سعادته أن يمضى الوقت فى بيته مع أسرته وأولاده وأحفاده. وقد رزق أربع بنات وولدان. راوية تحب الرسم وتعمل فى الرسوم المتحركة، ورفيعة تعمل فى الأسواق الحرة فى شركة مصر للطيران وهى متزوجة من ابن الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر السابق وميرفيت التى هاجرت هى وزوجها إلى كندا، وقد أقام مصنعًا للأحذية هناك. ومحمد وهو مهندس طيران، وأحمد وهو موسيقار، وناهد وهى متزوجة موظفًا يعمل فى الفنادق.

وشجع السنباطى ابنه أحمد على هوايته للموسيقى والغناء،

وكان يعتقد أن أحمد سيحقق فى هذا الاتجاه مستقبلا كبيرًا. وكان سعيدًا بأن يدربه بنفسه ويعلمه ويدفعه إلى الأمام.

وكان مخلصًا لزوجته التى وقفت بجواره فى أيام الشدة وأيام الرخاء والتى استطاعت أن تجعل بيته بيت فنان سعيد.

ولا يعرف كثيرون أن الموسيقار رياض السنباطى مثّل فى السينما. ذلك أن المخرج حلمى رفلة عرض عليه أن يمثل الدور الأول فى فيلم «حبيب قلبى» أمام المطربة هدى سلطان. وفشل الفيلم فشلاً ذريعًا، وهاجمه النقاد وضاق رياض بنقد النقاد والجمهور فاعتزل السينما وقال: أنا موسيقار فقط ولا أصلح ممثلاً.. وكان السبب الأول لفشله طول قامته، ومع أن هدى سلطان لم تكن قصيرة القامة، إلا أنها ظهرت كالقزم بجوار العملاق. ويومها قال المخرجون إنهم لا يجدون بين المطربات مطربة فى طول السنباطى. أم كلثوم قصيرة وشادية قصيرة ونجاة قصيرة وفايزة أحمد كانت قصيرة أيضًا.

لقاء لم يتم

وحدثت فى الستينات أن كان فى نادى الموسيقى الشرقى يحضر مع أم كلثوم بروفة أغنية جددت حبك ليه. وعندما انتهت البروفة جاء بواب نادى الموسيقى الشرقى وهمس فى أذن السنباطى أن سيدة عجوز فى السبعين من عمرها جاءت تطلب مقابلته وأخبرها البواب أن الأستاذ السنباطى مشغول. ويظهر

أنها كانت شحاذة. وقالت إن الاستاذ السنباطى يعرفها وأن اسمها هانم!

قال السنباطى: هانم؟ أنا لا أعرف سيدة اسمها هانم!

وأخذ السنباطى يردد: هانم؟.. هانم؟ هانم؟ من هى هذه الهانم؟..

وفجأة تذكرها.. إنها ابنة الجيران فى الحارة التى كان يقيم بها فى المنصورة...

وانطلق رياض السنباطى إلى باب نادى الموسيقى الخارجى المطل على شارع رمسيس... ونظر حواليه فلم يجدها.

ترى ماذا كانت تريد؟

ماذا كانت ستقول؟

نسى رياض السنباطى الدموع التى سكبها، والإهانة التى أصابته من أبيها الذى كان يعتقد أن الموسيقار مثل القرداتى!

ولم يذكر إلا أغنية يا ريتك حبتنى زى ما حبيتك!!..

زيارة لقلب عبد الحليم حافظ

كان عدد من الصحفيين والكتاب والفنانين يسهرون فى كازينو بديعة، وهو فندق شيرتون الآن، وكنا فى صيف عام ١٩٥٣، وأقبل المطرب عبد الغنى السيد، وكان يومئذ مطربًا مشهورًا، معروفًا بخفة الدم، محبوبًا من الصحفيين وإذا به يصيح بصوت عال يدوى فى هدوء الساعة الثانية صباحًا:

- سأتوقف عن الغناء نهائيًا!

وذهل الجالسون لهذا التصريح العجيب وسألوه: ماذا حدث؟

قال المطرب عبد الغنى السيد: لكل زمان رجال، إننى قادم الآن من سهرة أقامتها الشئون العامة للقوات المسلحة، دعى فيها جميع مطربى مصر للغناء، ووقف مغن جديد اسمه عبد الحليم حافظ وغنى أغنية «على قد الشوق» وبعد دقائق كان الجمهور يردد معه على قد الشوق، سيطر على الناس فجأة وملك أسماعهم، وغنينا بعده فلم يحس بنا أحد، وعرفنا أننا انتهينا.. وبدأ!

ومن هذا اليوم لم تقم قائمة للمطرب الظريف عبد الغنى السيد وبدأ عبد الحليم حافظ يكبر كل يوم!

ودخل مكتبى فى أخبار اليوم، شاب صغير دقيق متواضع

وقال: «أنا عبد الحليم حافظ» كان حجمه الصغير يخفى حقيقة عمره فتصورت أنه فى الخامسة عشرة من عمره، وقال لى: «جئت إليك أطلب مشورتك، ماذا أفعل لأنجح؟» قلت له: لا تقلد أحدًا.. كن عبد الحليم حافظ فقط، كل من قلدوا عبد الوهاب ماتوا، كانوا يقلدونه فى كل شيء فى عوجة طربوشه، فى صوته، فى ملابسه، حتى فى السوالف التى كان يتركها من شعره فوق خديه، وماتوا جميعًا وعاش عبد الوهاب.

وتصورت أننى قدمت لعبد الحليم أعظم نصيحة وإذا بى اكتشف أننى قدمت له مصيبة، تعاقد مع المتعهد صديق أحمد على أن يغنى ٣٠ ليلة فى المسرح القومى بالإسكندرية، وقف يغنى «يا حلو يا أسمر» و«صافينى مرة» وهى من أغانى كمال الطويل، وإذا بالجمهور يصيح طالبًا منه أن يغنى أغانى محمد عبد الوهاب وأصر أن يغنى أغانيه هو، وقاطعه الجمهور، وضربه بالبيض والطماطم وصعدوا إلى المسرح وأنزلوه منه وسط هتاف الجماهير «انزل! انزل».

ونزل وهو يبكى وركب سيارة صديقه مجدى العمروسى المحامى الذى انطلق به إلى ضواحى الإسكندرية البعيدة وهو يبكى وينتحب معتقدًا أن الجمهور حكم عليه بالإعدام!

ولكنه لم ييأس، واستمر يقاوم ويحاول ويشقى ويصر ألا يغنى سوى أغانيه!

وعندما التقيت بعبد الحليم أول مرة سألته من هو المطرب

الذى يتمنى أن يكون مثله؟ فقال لى إنه المطرب عبد العزيز محمود، ولم يذكر لى عبد الوهاب يومئذ، وكان يردد بعض أغانيه عندما كان وحده، ولم يحدث أبدًا أن غنى أغانى عبد الوهاب فى وجود غرباء.

استوقفنى فى عبد الحليم أنه مملوء بالإحساس، ويغنى على قدر صوته وفى هدوء هذا الصوت وكان فى صوته الضعيف كل الشجن والألم والحزن الذى يملأ قلبه، عندما غنى فى مكتبى لم يكن يغنى للناس وإنما يغنى لنفسه، لم يكن يقصد أن يطرب الجالسين بل كان يتألم بصوت مسموع.

ولاحظت بعد ذلك أنه قلد أم كلثوم فى أعظم ما فيها، كان لا يغنى أى لحن إلا بعد أن يسأل أصدقاءه ويستشير من يثق بهم، وكان يعدل ويبدل فى الكلمات أذكر أنه دفع ٢٥٠٠ جنيه فاتورة تليفونات محادثات خارجية مع الشاعر نزار قبانى، يتابعه من الكويت إلى بيروت إلى باريس ليعدل كلمتين أو ثلاث كلمات فى أغنية قارئة الفنجان.

وحرص عبد الحليم عند ظهوره أن يختار كلمات أغانيه فعندما ظهر كان الموسيقار عبد الوهاب يغنى أغنية «تراعينى قيراط أراعيك قيراطين» وكان عبد العزيز محمود أكثر المطربين شعبية يغنى «يا شبتسب الهنا.. يا ريتنى كنت أنا» وجاء عبد الحليم يغنى كلمات لها معنى ومغزى وعاطفة حارة!

وحرص عبد الحليم أن يكسر تقاليد غناء الرجال، فكان أول

مطرب رجل يقف على المسرح ويغنى وكان الذين سبقوه يجلسون على كرسى ويضعون عوداً فوق أقدامهم، حتى ولو كانوا لا يعرفون العزف على العود، كذلك كان يغنى قبله فريد الأطرش ومحمد عبد المطلب وعبدالعزيز محمود وكارم محمود ومحمد فوزى، وبعده بدأ المطربون القاعدون يقفون حتى فريد الأطرش الذى كان أحسن عواد فى مصر.

ثم قلب عبد الحليم المسرح الغنائى من مسرح مسموع إلى مسرح مرئى ومسموع صوت وصورة فى وقت واحد، فكان يغنى ويتحرك، يعزف على الرق ثم يمسك الناى يصفق بيديه ويصفر بفمه، يضحك، يخلع الجاكته، يخلع الكرافتة، يجلس على خشبة المسرح ويحمل طفلة جميلة من الصالة ويأخذها معه إلى المسرح ويغنى لها.

وكان الموسيقار عبد الوهاب يقول: الواد ده ناقص عليه يجيب ساندوتش ويأكله على المسرح!

الحب الأول:

فى سنة ١٩٥٦ كان عبد الحليم يتعشى عندى ومعه كمال الطويل ومجدى العمروسى وبعض الأصدقاء وبعد العشاء جلسنا فى غرفة المكتب نتحدث ونتناقش، وارتفع صوتنا ولاحظت أن كمال الطويل كان وسط هذه الضوضاء يدق على كتف المقعد بأصابعه ويلحن أغنية «بتلومونى ليه.. لو شفتم عينيه.. حلوين

قد ايه» لم يكن يعتمد على آلة موسيقية ولا على بيانو ولا على عود، وإنما كانت أصابعه هى التى تعزف هذا اللحن الرائع البديع وكان عبد الحليم يأكله بنظراته ويتابعه بأذنه، ولم أر عبد الحليم مهتما بلحن كاهتمامه بهذا اللحن.

وحدث أن ذهبت لأسمعه يغنى فى سينما ريفولى، وجلست فى الصف الثالث وتصادف أن جلست بجوارى فتاة رائعة الجمال، عيناها واسعتان جذابتان، فمها دقيق وشفاها غليظة وقوامها فتان.. وكانت تجلس بجوارها بعض قريباتها.

وبدأ يغنى عبد الحليم أغنية بتلومونى ليه، لو شفتم عينيه، حلوين قد ايه! ولاحظت أن عبد الحليم على المسرح يوجه نظراته وهو يغنى إلى الفتاة التى تجلس إلى جانبى، ثم لاحظت أن عينى الفتاة تتكلم وترد عليه، وتناجيه وتلاغيه، وتقبله وتعانقه! لم أر فى حياتى عينين بكل هذا السحر والجمال! وفهمت أن أغنية «بتلومونى ليه، لو شفتم عينيه، حلوين قد ايه»! موجهة فى كل كلمة إلى هذه الفتاة التى لم أكن أعرف اسمها.

وفى اليوم التالى زارنى عبد الحليم، وبادرته بقولى إننى عرفت الفتاة التى يحبها، وأصيب بالذعر، وسألنى: من أخبرك؟ قلت: هى، قال فى دهشة: هل هى أخبرتك؟ قلت له: عيناها تكلمت وصرحت وأذاعت السر الرهيب!

وكان عبد الحليم يحرص على كتمان اسم الفتاة التى يحبها حفظا لسمعتها، وحرصا على أسرتها.

وعرفت كيف عرفها عبد الحليم، استأجر عبد الحليم شقة فى رمل الإسكندرية وذات يوم دخل مصعد العمارة ورأى أمامه هذه الفتاة. وما كاد يرى عينيها حتى جن بها، كان حبا من أول نظرة، ابتسم وابتسمت، سألها عن اسمها فأجابت، ثم عرف أن أسرتها هى صاحبة العمارة!

من ذلك اليوم لم يبق فى دماغه إلا صاحبة العينين الجميلتين، أصبحت كل إحساسه وكل عواطفه وكل أحلامه!

كان يسير خلفها على شاطئ المنتزه، كلما جلست فى كابينة حاول أن يتعرف إلى أصحابها، ثم بعد ذلك يتردد على الكابينة حتى يراها ويجلس أمامها، ويسمعها تتكلم.

وكان الأطباء نصحوا عبد الحليم بأن يتجنب الجو الرطب، فنسى أوامر الأطباء وكان أحيانًا يبقى سهرانا فى كابينة مطلة على البحر حتى الساعة الرابعة أو الخامسة صباحًا، لا ينام وهى مستيقظة، ولا ينصرف وهى جالسة، ولا يغيب وهى حاضرة.

كان فى أثناء هذا الحب الجارف العاصف يهرب ويتلاشى فلا يعرف أقرب أصدقائه، وكانوا مجدى العمروسى وكمال الطويل ومحمد الموجى، لا يعرفون كيف انشقت الأرض وبلعت عبد الحليم، ويحدث أن يكون عبد الحليم مرتبطًا بموعد هام قد يربح منه ألوف الجنيهات، ولا يتردد عبد الحليم أن يضحى بالصفقة الهامة ليلتقى بالفتاة التى أعطاها كل قلبه وكل حياته، وكان يبذل جهودًا جبارة

ليخفى أنبـاء هذا الغـرام الجارف، حتى لا تكـون حبيبتـه مضغـة فى الأفواه، أو تتناولها الصحف أو المجلات.

وعرف عبد الحليم أن هذه الفتاة سيدة متزوجة ولها أولاد، وزوجة سفير ومن أسرة كبيرة، وفوجئ بها تصارح أسرتها بأنها تحب عبد الحليم، وأنها تريد أن تتطلق من زوجها لتتزوجه، وكانت الأسرة تحب عبد الحليم كصديق للأسرة، وتستقبله فى بيتها كفرد من أفرادها، وعندما علمت الأسرة بمسألة الزواج تحولت الصداقة إلى عداء، وبعد أن كان عبد الحليم هو الصديق الأول للأسرة أصبح العدو الأول للأسرة.

كيف تتزوج بنت الأكابر من مطرب؟ ماذا سنقول لأنسبائنا وأقربائنا وأصدقائنا عن هذه التضحية التى ستلوث شرف الأسرة! كيف تتطلق ابنتنا السفيرة من زوجها السفير لتتزوج هذا المغنى! لو حدث ذلك فأنت لست بنتنا ولا نعرفك ولا نقبل أن تدخلى بيت الأسرة، ولن نسمح لك أن ترى أولادك بعد الطلاق.

وتحدت ذات العيون الحلوة كل هذا التهديد والوعيد وصممت أن تتطلق وتتزوج عبـد الحليم رغم كل المعـارضات والاعتراضات.

وقالت إنها قررت أن تترك كل الدنيا وتتزوجه.

وكانت سنوات ١٩٥٦ و ١٩٥٧ و ١٩٥٩ أجمل السنين فى حياة عبد الحليم.

وكان عبد الحليم يقول: «إن وجهها يعطينى الأمان بما فيه من طيبة وبراءة وجلال.. والساعة التى أنفرد فيها بها أشعر أننى أقوى رجل فى الدنيا كلها».

وانتصرت ذات العيون الحلوة وانتزعت الطلاق من زوجها، وتنازلت عن كل حقوقها من أجل هذا الطلاق.

وبدأ عبد الحليم يستعد للزواج من صاحبة أجمل عينين فى العالم..

وفجأة سقطت الفتاة مريضة، وحار الأطباء فى أول الأمر فى علاجها، ثم اكتشفوا أنها مصابة بمرض سرطان الدم وهو مرض مميت.

وعندما علمت الحبيبة السعيدة بحقيقة مرضها قابلته وأبلغته النبأ، وقالت له إنها تعفيه من وعده لها ولن تتزوجه!

وسقط النبأ على عبد الحليم سقوط الصاعقة أو كما قال لى إنه شعر أنه يموت وهو جالس معها، وقال لها إنه على استعداد أن يتزوجها وهى مريضة، وقالت له: لا أريد أن أتركك أرملا وأنت شاب صغير! وقال عبد الحليم: إن قطع علاقتنا سيجعلنى أرملا من الآن وأنا أعتقد أنه لو تزوجنا سوف تجعلك سعادتنا معا تصمدين لهذا المرض وتقاومينه.

وأصرت صاحبة أجمل عينين فى العالم على فسخ الخطبة.

وعاش عبد الحليم أياما تعيسة كئيبة حزينة، كان يتمزق وخاصة عندما طلبت منه ألا يتصل بها ولا يحدثها، وكان عذاب

عبد الحليم بهذا القرار القاسى عذابًا أليمًا كان قلبه يحترق، وكان لا يكف عن الدموع، وكان يدور بسيارته حول بيتها لعل وعسى يراها من نافذة أو وهى خارجة أو داخلة إلى البيت، وكان يدق رقم تليفونها ويسمع صوتها ثم يضع السماعة ، ولأول مرة سمعت عبد الحليم يتمنى الموت، ويقول: لو أن الله أحبنى لأخذنى إليه قبل أن يأخذها.

واتصلت بصاحبة العيون الجميلة ولمتها على قرارها بالانقطاع عن رؤية عبد الحليم ولم يطلب منى عبد الحليم أن أفعل ذلك، ولم يخبرنى عن الأزمة الطاحنة التى يعيش فيها، ولم أستأذنه فى أن اتصل بالمرأة التى قاطعته وطلبت منه ألا يتصل بها فى التليفون.

شعرت أن صديقى عبد الحليم يموت أمامى، يشحب، يذوب، يفنى، يكبر فى السن عشرين سنة على الأقل، وكنت أعلم أن كرامته تمنعه من الاتصال بها لينقذ الحب المذبوح، فقررت أنا أن أفعل ذلك من وراء ظهره واتصلت بالفتاة، وقلت لها: إنك تعذبين نفسك وتعذبين عبد الحليم بهذا القرار!

قالت: إننى أحاول أن أوفر عليه العذاب الدائم فأفرض عليه هذا العذاب المؤقت سوف ينسانى بعد شهور قليلة، وعندما أموت سيبكى علىَّ كصديقة لا على أنى المرأة الوحيدة فى حياته.

قلت لها: إن عبد الحليم لن ينساك أبدًا وأنا أعتقد أن عودتك إليه ستطيل عمرك!

قالت: أنا لا أريد أن يطول عمرى!

قلت: وسيطول عمره أيضًا!

قالت: أنا مستعدة أن أضحى بكل شىء ليعيش ولو يومًا واحدًا!

وأمسكت التليفون وطلبت عبد الحليم فى بيته، وفى ذلك اليوم عادت الحياة من جديد لعبد الحليم.

وفى اليوم التالى تلقيت من عبد الحليم الخطاب التالى:

١٩٥٩/٩/٤

أخى الكبير مصطفى

مساء الخير، لقد كان أمس قاسيا جدا بالنسبة لى.. فاعذر بكائى، واعذر إحساسى، فقد حركهم عطفك وحبك بصورة لا يمكن أن تتصورها، وأنا أكتب لك هذه الانفعالات والأحاسيس لعلى أستطيع أن أعبر لك عن ما أحسه نحوك..

أخى.. صادقت كثيرا من الناس، وعشت معهم بكل أيامى ولحظاتى، دائما أروى لهم كل ما أنا فيه من آلام وسعادة، وما يمر بى من أحداث، وكانوا يسمعوننى، وربما تألموا لآلامى.. وفرحوا لسعادتى، ولكن إحساسهم لم يرشدهم يوما إلى ما أنا فيه دون أن أقوله لهم..

وعندما عرفتك، وتحدثت معك وسمعتك وأنت تتكلم عن الناس تركتك وأنت تملأ قلبى واعتبرتك صديقًا وأخًا كبيرًا لى – بينى وبين نفسى طبعًا – وشاءت الظروف أن ما أحسه بينى وبين نفسى يصبح حقيقة قوية.

ولم أحاول أن أحدثك أو أشكو لك آلامى، أو أشرح لك ظروفى وما أنا فيه... وما هى سعادتى وما هو شقائى، وما هى الظروف التى أمر بها، وما هى أحاسيسى نحو الناس، وكل ذلك لأنى أريد أن أحافظ على ما قام بيننا من صداقة، وما أحسه من حب عميق نحوك، وكنت أمر بظروف مؤلمة بالنسبة لى من ناحية عملى وناحية فنى ولم أحدثك عنها، حتى لا يمر يومًا بخيالك أننى حاولت أن أزعجك، وأمس كانت مفاجأة لى، قد أحسست أنت بكل ما أنا فيه دون أن أقوله لك، وعملت من ناحيتك على تصحيحه، دون أن أعرف أنا، وعندما قلت لى هذا.. لم يحتمل إحساسى، وبكيت من فرط حبى لك، ومن فرط إحساسك بى وأنا الذى لم أطلب منك هذا ولم أحدثك حتى عنه.

إنك إحساس يعيش بين الناس، وقد خلقنى الله لأعيش أيضًا على إحساسى، وبكيت أيضًا لأننى لا أستطيع أن أرد لك ما قمت به نحوى، ولكن كل ما أملكه هو أن أحبك وأقدرك.. وأنا أحبك وأقدرك ما فيه الكفاية.. ولو أنك فى غير حاجة إلى حبى وتقديرى، فالدنيا كلها تقدرك وتحبك، ولا تضحك منى أرجوك، فربما كان أسلوبى مدعاة لذلك، ولكن رفقا باحساسى، أدام الله عليك إحساسك القوى.

ودمت لى أنت وحبك واخوّتك وصداقتك.

عبد الحليم حافظ

وعاش عبد الحليم وصاحبة العيون الحلوة أسعد أيام حياتها، ولم تستمر هذه الأيام سوى بضعة أسابيع.. وماتت فجأة صاحبة أجمل عيون فى العالم.

الحب الثانى:

وفى أوائل الستينات أحب عبد الحليم نجمة سينمائية شابة، وأحبته حبا جارفًا مجنونًا وفى سنة ١٩٦٢ أصيب بنزيف حاد وهو يقيم فى شقته فى عمارة السعوديين بالجيزة وكنت أزوره كل يوم مرتين فى شقته، وفى كل مرة ألاحظ عند دخولى إلى غرفة نومه حركة وجلبة، وامرأة تختفى فى الغرفة المجاورة وظننت فى أول الأمر أنها أخته علية أو زوجة أخيه فردوس، وفى إحدى المرات لمحتها وعرفت أنها النجمة السينمائية المشهورة ولم أقل شيئا لعبد الحليم إلى أن قال لى إن النجمة المشهورة ترفض أن تترك فراشه وإنها تنام تحت قدميه على الأرض لتخدمه أثناء مرضه، وذكر أنها تحبه وتريد أن تتزوجه وسألته هل يحبها؟ فقال: نعم ولكنه لم يقرر أن يتزوجها أو لا يتزوجها، وسألنى رأيى، فقلت له: إن تجربتى أن زواج النجم السينمائى من النجمة السينمائية لا ينجح، ولابد أن أحدهما يطفئ الآخر! وهز رأسه ولم يقل شيئًا.

وبعد ذلك بأيام زاره الشاعر كامل الشناوى وقال له: إننى علمت أنك تحب النجمة فلانة.. ولو سألت عنها فى بيتها الآن لوجدت عندها كاتبا صحفيًا معروفا وأمسك كامل سماعة

التليفون ليطلب النجمة المشهورة، ولكن عبد الحليم رفض اقتراح كامل ليتأكد من خيانة النجمة المشهورة، وشعرت أن قلب عبد الحليم يتمزق فقد كان يحبها فعلا وكانت الاشاعات التى تحوم حولها تنكد عليه حياته، وفشل مشروع الزواج، وأعتقد لو تم هذا الزواج فعلا لما استمر شهرا أو شهرين كان عبد الحليم سيحبس النجمة المشهورة، وسيمنع ظهورها فى السهرات والحفلات، وسيمضى فى حياته البوهيمية، وما كانت النجمة المشهورة تقبل أن تعيش فى الظل وزوجها يتلقى تليفونات المعجبات وتنهيداتهن صباح مساء.

الحب الثالث:

وفى أوائل السبعينات التقى فى بيروت بسيدة صاحبة ملايين، وما أن رأته حتى غرقت فى هواه. وجد فيها عبد الحليم مزيجًا من العشق والأمومة، كانت امرأة فاتنة متزوجة، ولم تكن فاتنة الجمال، وكانت شخصيتها قوية، وجمالها هادئ، وكانت فيها أمومة قوية، وكان عبد الحليم يفتقد الأمومة، وكان يبحث فى كل امرأة يعرفها عن أم أكثر مما يبحث عن حبيبة، وكنت ألاحظ أنه كلما رأى عبد الحليم شخصا عانقه بحرارة، وكان بعض الناس يتصور أنها حركة تمثيلية، وكنت أعرف أنها حركة غير ارادية فهو دائما يبحث عن حضن أم أو حضن أب.

وبغير أن تستشير عبد الحليم ذهبت السيدة السورية إلى زوجها وتطلقت منه، وجاءت إلى مصر لتتزوج من عبد الحليم.

كان ذلك فى عام ١٩٧٥ وعبد الحليم مريض.

وقال لها عبد الحليم: إنك ستتزوجين رجلا محكومًا عليه بالإعدام، ستعيشين معى ممرضة، إذا كنت تحبيننى فعلا عودى إلى زوجك وأولادك.

وغضبت السيدة السورية واعتبرت هذا التصرف هروبا من عبد الحليم، وبكت واتهمته بالغدر والخيانة.

وفى مارس سنة ١٩٧٧ علمت السيدة السورية أن عبد الحليم على فراش الموت وعندما وصلت إلى المستشفى كان قد أسلم الروح.

ووقفت أمام جثمانه وبكت وهى تقول:

- عرفت الآن أنك كنت دائما صادقًا معى، ولم تكذب علىّ أبدًا!

الحب الرابع:

التقى عبد الحليم بفتاة سورية مثقفة فى بيت أحد أقاربها، فتن بذكائها، وبهره علمها، وأذهلته ثقافتها...

ودخل المستشفى فى لندن فكانت الدبلوماسية العربية تزوره كل يوم، وعندما كانت تدخل غرفته كان يطلب من كل الموجودين أن يخرجوا، حتى أقرب الناس إليه، وكان يحترمها احترامًا خاصا.

وكانت الفتاة من أسرة عربية رفيعة، كان ضعيفًا أمامها، كان يجد فيها طاقة هائلة من الحنان والقدرة على الاستماع، كان

حديثها يعالجه وكان حنانها يضمد جراحه، كانت فتاة شابة، عيناها واسعتان، بيضاء البشرة، طويلة القامة، شعرها أشقر، تجيد الحديث بعدة لغات، مليئة بالإحاسيس التى كان يحتاج لها عبد الحليم فى فترة مرضه الخطير، فهمته، فهمها، عرفت ما يحب وما يكره، كانت بالاختصار تريحه، كأنها وسادة من ريش النعام يضع رأسه عليها، كانت تدخل غرفة المستشفى وهو متعب وتخرج وهو مستريح، كان قبل لقائها يعبس وبعد لقائها يبتسم، وكانت خبيرة فى السياسة والديبلوماسية فكانت تحدثه عن ما يجرى فى العالم وما قرأته فى صحف انجلترا فى الصباح، وكانت أستاذة فى الديكور وفى الملابس فكانت تحدثه عن إعادة فرش بيته وعن الملابس التى يحسن أن يشتريها، وكان يحترم رأيها على خلاف عادته من حب للمناقشة والمعارضة والمعاندة! وكانت تحرص أن تحدثه عن المستقبل. كان يحس وهو معها أنه سيعيش مائة سنة، وكانت إذا خرجت من الغرفة عادت له الكآبة وأحس أنه سيموت بعد ساعة!

وكان يقول لها ما لا يقوله لأحد، كان يشعر أنها تحبه وتشفق عليه وتغمره بحنانها وكان محتاجًا إلى كل هذا معًا! وكانت تحرص طوال مدة بقائها معه فى الغرفة أن تبتسم وتضحك وتمرح، فإذا خرجت من الغرفة انهارت وراحت تبكى بغزارة.

وشعر بعض أصدقائه أن هذه الشقراء أصبحت المرهم الذى يمسح به عبد الحليم جروحه، وأنها المورفين الذى لا يجعله يحس

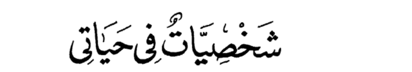
بآلامه، وأنها القلب الصناعى والكلى الصناعية فقط!

واقترح عليه بعض أصدقائه أن يتزوجها، وهز عبد الحليم رأسه وقال بصوت خافت:

– أنا أصبحت إنسانا لا يجوز له أن يتزوج!

ويقول بعض أصدقاء عبد الحليم المقربين لو تزوجها لعاش شهرًا آخر على الأقل!

ولم يكن يكفى عبد الحليم لهذا الحب عشرات السنين!


شَخْصِيَّاتٌ فِي حَيَاتِي

أمي !...

لم تدخل مدرسة، ولم تتخرج من جامعة. ولكنها تخرجت فى مدرسة الحياة، وهى مدرسة قاسية، دروسها مؤلمة، وامتحاناتها صعبة...

شاء القدر أن تتلقى الدرس الأول فى سن مبكرة. مات أبوها وعمرها ثلاث سنوات وعمر شقيقها الوحيد سعد سنة واحدة. وماتت أمها بعد ذلك بثلاثة شهور.

ووصفت اليتم بأنه صاعقة نزلت على رأسها من السماء. ووجدت نفسها عند وفاة أمها وحيدة فى البيت بجوار جثة أمها وهى لا تعرف ما حدث، وضمت شقيقها الطفل سعد إلى حضنها، وكأنها تحتمى به.

وبعد دقائق قليلة رأت أمامها جدتها مريم بركات والدة سعد زغلول وفتحى زغلول وحملتها إلى بيتها فى أبيانة، هى وأخوها، وكانت صامتة طوال الطريق بين قريتها وبيت جدتها كانت تُسائلُ نفسها كيف تعيش طوال العمر بلا أب وبلا أم...

ودون أن ترفع صوتها سمعت صوت جدتها مريم يقول لها:

– سأكون أنا أمك وأبوك معًا.

قالت رتيبة فى لهفة: وأخى سعد؟

قالت السيدة مريم: سأكون أمه وأبوه أيضًا.

جفت الدموع فى وجه رتيبة وتعلقت بجدتها تقبلها.

ولم ترزق مريم سوى، ابنة واحدة «ستهم» وولدين هما سعد زغلول وفتحى زغلول. وكانت رتيبة وسعد هما حفيداها الوحيدان لأن ولديها لم ينجبا لا أولاد ولا بنات.

وعاشت البنت اليتيمة فى كنف جدتها. تسير فى ذيلها أينما سارت، تتعلق بثوبها، وكانت مريم تبادلها هذا الحب فكانت تصر أن تنام رتيبة وسعد معها فى سريرها.

وبنى المستشار سعد زغلول بيتًا له فى حى الظاهر بالقاهرة فى شارع أطلق عليه فيما بعد اسم «شارع زغلول»، وطلب سعد من أمه أن تجىء وتقيم معه فى القاهرة، ولم يكن قد تزوج بعد، فجاءت مريم ومعها حفيداها رتيبة وسعد.

وكان سعد يحرص أن يتناول غداءه مع أمه كل يوم. وفى كثير من الأحيان كان يتأخر عن موعد الغداء، فتنتظره أمه حتى الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر ويصر الطفلان اليتيمان أن يبقيا بلا غداء حتى يأكلا مع خالهما سعد زغلول!

وارتبط باليتيمين وكان فى وقت فراغه يعلمهما القراءة والكتابة. وكانت مريم تعلم رتيبة الطهى وخاصة طاجن الفراخ بالأرز، وهو صنف كان سعد يفضله كثيرًا وكان يطلب من أمه أن تصنع له بيدها هذا الطاجن الذى أحبه وهو طفل فى القرية قبل أن يجىء إلى القاهرة ويدرس فى الأزهر!

ورفض سعد أن يتزوج إلى أن بلغ الخامسة والثلاثين. وعندما خطب صفية ابنة مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء قال له إنه يشترط شرطًا واحدًا وهو أن تقيم معه فى نفس البيت أمه ورتيبة وسعد اللذان تبناهما.

ورحبت صفية بأن تقيم فى بيت واحد مع حماتها وحفيدتها. وعاشت الأسرة فى سعادة غامرة ولم تستمر طويلاً، فقد ماتت السيدة مريم، وشعرت رتيبة باليتم من جديد. وقال لها سعد وصفية ستكونين بنتنا وسيكون سعد الصغير ابننا. نحن لم نرزق أطفالاً وأنتم أطفالنا منذ اليوم الأول الذى دخلتما فيه هذا البيت. ولم تصدق رتيبة أن من الممكن أن تعوض جدتها التى كانت أماً وأبًا فى وقت واحد، والتى منحتها من الحب والاهتمام ما جعلها تنسى أنها يتيمة. ولكن سعد وصفية كانا لها خير أب وخير أم، وقد عاشت أغلب أيام عمرها فى بيتهما. وعندما بنى سعد زغلول بيته الكبير فى حى الإنشاء – بيت الأمة الآن – خصص الغرفة التى أمام غرفة نومه وصفية لتكون غرفة رتيبة. وخصص غرفة فى الطابق الأول لسعد الصغير.

ثم قامت مشكلة إذا نادت صفية «ياسعد» رد سعد زغلول الكبير وسعد زغلول الصغير فى وقت واحد!

واستدعى سعد زغلول ابن اخته سعد زغلول الصغير: إن عندنا مشكلة عويصة فى هذا البيت.. أما أن تغير أنت اسمك أو أغير اسمى!

وقال سعد مداعبًا: أنا الكبير وأنت الصغير و «سعيد» تصغير لاسم سعد، ولذلك سنغير اسمك ابتداء من اليوم ونسميك «سعيد»..

وفعلاً تقدم إلى قسم السيدة زينب وطلب تغيير اسم سعد زغلول باسم سعيد زغلول!.

* * *

بلغت رتيبة سن الشباب، وبدأ الخطاب يتقدمون لخطبة الآنسة التى تبناها سعد زغلول. وكان سعد زغلول يرفض الذين يتقدمون له لأسباب مختلفة: أحدهم ثرى كبير ويجهل القراءة والكتابة، وثانيهم عمدة ولكنه متزوج ولم يقبل سعد أن تكون لرتيبة ضرة، وكان ضد الزواج من أكثر من واحدة، ورفض الثالث لأنه ابن ذوات لا عمل له إلا أنه ورث ثلاثمائة فدان، ورفض الرابع لأنه ابن مستشار فى محكمة الاستئناف، كان سعد يعتقد أن الأب خرب الذمة!

وجاء الخامس وهو شاب فى العشرين من عمره. محام مبتدئ. لا يملك أى ثروة. يقيم فى مدينة دمياط.

ولم يتحدث سعد معه عن الزواج، بل تحدث معه فى السياسة، واختلف الرجل الكبير مع المحامى الصغير، فقد كان من رجال الحزب الوطنى الذى يختلف مع سعد زغلول. وناقشه سعد وأصر الشاب على رأيه ودافع عنه بحماسة. وفوجئ الشاب بسعد يمتحنه امتحانًا رهيبًا فى السياسة والأدب والاجتماع والتاريخ. وسأله عن

الثورة العرابية فأجاب بحماس عنها، وسأله سعد: وكيف عرفت هذه التفاصيل؟ قال الشاب: كان أبى الشيخ أمين أبو يوسف المحامى أحد زعماء المقاومة فى دمياط، وسجنه الإنجليز بعد فشل الثورة، وحكموا عليه بالنفى خمس سنوات، وأمضى مدة النفى مع الشيخ محمد عبده فى لبنان.

ولمعت عينا سعد زغلول وسأله: هل أنت ابن الشيخ أمين أبو يوسف؟ قال الشاب: نعم، قال سعد: إن والدك كان زميلى فى الثورة، وكنا معًا نخطب ضد الإنجليز فى الاسكندرية يوم ضربها الأسطول البريطانى وكنت معجبًا بحركة المقاومة فى دمياط وسمعت تفاصيلها من الشيخ محمد عبده.

وسكت سعد زغلول قليلاً ثم قال: إننى موافق على أن تتزوج رتيبة ا.

وذهل الشاب لأن سعد لم يسأله عن حالته المالية وثروته وقال:

- إننى فقير وأبى مات معدمًا نتيجة السجن والنفى.

قال سعد: هذا لا يهم.

قال الشاب: وأنا أريد أن تقيم معى زوجتى فى دمياط.

قال سعد: وهذا لا يهم أيضًا. متى تريد أن تتزوج؟

قال الشاب: بأسرع ما يمكن.

وضحك سعد وقال: سأتفق معك فيما بعد. أما المهر فادفع أى مبلغ تستطيع.

ولم يصدق الشاب أذنيه وقال: هل هذا هو الرد النهائى؟

قال سعد: إن كل ردودى نهائية!

وخرج الشاب، وصعد سعد إلى الدور العلوى حيث كانت تنتظره زوجته صفية وقال لها: مبروك..

ودهشت صفية لأنها لم تتوقع أن يصدر سعد قرارًا بهذه السرعة.

وسألته: هل عرفت كل شىء عنه؟

قال سعد: عرفته إنه ابن الشيخ أمين أبو يوسف أحد قواد المقاومة فى دمياط فى ثورة عرابى.

قالت صفية: أنا لا أسأل عن أبيه.. أسألُ عنه؟

قال سعد: إننى أعرف أباه وهذا يكفى..

وسألته صفية: هل هو طويل أم قصير!

قال: لم ألاحظ شيئًا!

وسألته صفية: هل هو أسمر أم أبيض!

قال سعد: لم أتفرس فى وجهه.

وسألت صفية: هل وافق أن يعيش معنا فى البيت؟

قال سعد: لم يوافق. أنا الذى وافقت على أن تقيم رتيبة معه فى دمياط.

وشهقت صفية وقالت: فى دمياط؟ أى فى آخر الدنيا. كيف تقبل أن تفترق رتيبة عنا؟!

قال سعدٌ: إنه أصر على ذلك.

وسألته صفية: وهل له ثروة تجعله يهيئ لرتيبة حياة فى مستوى الحياة التى تعيشها معنا؟

قال سعد: إنه فقير جدًا. أبوه فقد ثروته عندما سجنه الإنجليز ونفوه خارج البلاد.

ولم تستطع صفية أن تعارض فى قرار زوجها فإنها تعلم أن قراراته دائمًا لا تقبل النقض!

والغريب أنه لم يسأل رتيبة عن رأيها. وتولت صفية إبلاغ الفتاة قرار خالها. ولم ترَ رتيبة وجه زوجها إلا فى يوم الزفاف. فقد عقد قرانها فى مكتب سعد زغلول، وأقيم الفرح فى بيت سعد.

وكانت صفية تضحك وهى تروى ما حدث وتقول إن سعد جاء بجميع المعلومات عن والد العريس ولم يجىء بأى معلومات عن العريس.

وسافرت رتيبة مع زوجها إلى دمياط.

وسافرت صفية قبلها لترتب الجهاز الذى اشترته لرتيبة.

وعندما حملت رتيبة، أصرت صفية أن تحضر إلى القاهرة لتلد هناك.

وتمت ولادتى أنا وعلى فى بيت سعد. وسبقنى على بخمس دقائق. وعندما علمت والدتى بأنها رزقت بتوءمين أغمى عليها من الذعر! فقد كانت ولادة توءمين شيئًا غريبًا فى تلك الأيام!

* * *

وكنا نشعر فى طفولتنا أن أمنا شديدة معنا! فقد طلبت من السفرجى فى بيت سعد أن لا يحضر لنا كوب الماء إلا إذا قلنا له «من فضلك»، وأنه إذا قدم لنا الطعام ولم نقل له «مرسيه» أى شكرًا فعلى السفرجى أن يسترد الطعام الذى قدمه لنا!

وكنا نرى فى هذه التعليمات الشديدة عذابًا لا يحتمل، ولكننا تعودنا عليه، حتى أننى عندما أسافر إلى أوربا وأمريكا حيث توجد مصاعد تفتح أوتوماتيكيًا وتغلق أوتوماتيكيًا، لا أكاد أدخل المصعد حتى أقول للمصعد «مرسيه».. وليس فى المصعد أحد سواى!

وعندما كنت فى السجن كان أحد المسجونين يحمل كل صباح جردل الماء وجردل البول من زنزانتى، وذات يوم جاء لى بعض زملائى المسجونين وقالوا لى: إن المسجون الذى يخدمنى يشكونى ويقول: إنه كلما قدم لى خدمة شتمت أمه باللغة الإنجليزية!

فقد فهم المسكين من كلمة «مرسيه» أنها سباب فى والدته!

وعودتنا أمى أن نقف احترامًا إذا دخلت فى غرفة نجلس فيها، وكان يحدث أن تدخل وتخرج سبع مرات فى الساعة فنضطر أن نقف سبع مرات! ولم نجرؤ طول حياتها أن نضع ساقًا فوق ساق، أو ندخن سيجارة فى حضرتها حتى بعد أن أصبحنا أصحاب دار أخبار اليوم وعضوين فى مجلس النواب، وفى آخر أيامها لاحظت أننا نترك غرفتها عدة مرات ثم نعود بعد ذلك، وفهمت أننا نخرج لندخن سيجارة، وعندئذٍ سمحت لنا بالتدخين أمامها،

حتى نبقى معها مدة أطول ! وعلمتنا أمى أن نقف احتراماً لكل من هو أكبر منا، وهكذا أمضينا طفولتنا وشبابنا واقفين. وكانت قوية الملاحظة، تذهلنا باكتشافها كل «شقاوة» نقوم بها، مهما تفننا فى إخفائها حتى أننا كنا نطلق عليها اسم «شارلوك هولمز» ذلك الشرطى المشهور الذى كان يكتشف الجرائم بمهارة أسطورية ! وكنا نسمى والدى «الدكتور واطسون» لأن هذا كان اسم مساعد شارلوك هولمز فى الكتب والروايات التى نقرأها.

وكانت ترفض أن نركب الترام فى الدرجة الأولى وتصر أن نركب فى الدرجة الثانية، وعندما نذهب إلى سينما أوليمبيا أو سينما إيديال كانت تأبى أن نجلس فى اللوج مع أن تمن كرسى اللوج كان خمسة قروش فى حفلة الساعة الثالثة بعد الظهر. وكانت تقول لنا أنتم تلاميذ صغار واجلسوا مع التلاميذ الصغار فى الدرجة الثانية ! وكنا نعتبر هذا الحرمان فى منتهى القسوة ! فقد كان مصروفنا اليومى خمسة مليمات ونحن تلاميذ فى المدرسة الابتدائية، ارتفع إلى عشرة مليمات ونحن فى المدرسة الثانوية، وارتفع إلى جنيه فى الشهر وأنا طالب فى كلية الحقوق، بينما كان مرتبى فى مجلة روزاليوسف ثمانية جنيهات شهرياً ! ولم تكن أمى تعرف أننى أشتغل فى الصحافة فقد كانت تراها مهنة خطرة كالطيران. وكنت إذا سهرت فى الجريدة أقول لها إننى كنت سهراناً فى صالة بديعة، فقد كان فى رأيها أن السهر فى صالة بديعة أكثر أماناً من السهر فى جريدة !

وذات يوم، وكنت فى الرابعة عشرة من عمرى، اكتشفت أمى

أننى أتحدث مع ابنة الجيران بالإشارة! وكنت أعيش معها قصة حب. وعدت من المدرسة فوجدت جميع نوافذ بنت الجيران التى تطل على بيتنا مقفلة! وتصورت فى أول الأمر أنهم سافروا.. ثم اكتشفت الكارثة الكبرى، وهى أن أمى أرسلت مربيتنا أم نعيمة إلى أم حبيبتى تقول لها: «إن بنتكم تعاكس ابننا!». وهكذا ظهرت أمام حبيبتى أننى طفل صغير تخاف عليه أمه من أن تغتصبه ابنة الجيران!

واكتشفنا بعد ذلك بسنوات أن سعد زغلول كان يتهم أمنا بأنها متساهلة فى معاملتنا، وأنها ضعيفة أمامنا فقد قرأت فى مذكرات سعد زغلول فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩١٦ ما يأتى بالحرف الواحد:

«لرتيبة بنت أختى ولدان توءمان، أحدهما يدعى مصطفى، والثانى على. ولا يتجاوز عمرهما الآن سنتين ونصف، وهما يحبان بعضهما، ويلعبان معًا، وإذا غاب الواحد بحث الآخر عنه. ومصطفى ضعيف البنية، ولكنه رقيق المزاج. وكل منهما سريع التأثر، ولكن مصطفى أسرع، وفيه حسن التفات، ورقة قلب وحنان. وقد ربتهما والدتهما على النظافة. ولكن لشدة حبها الأمومى عودتهما أن تطيع شهواتهما إذا بكيا، فتجد الواحد منهما يطلب الشىء، فإذا منع عنه بكى بكاءً مرًا، وإذا نهى عن أمر، وكان يميل إليه، بكى أيضًا كذلك. ولكن بكاء مصطفى يؤثر بها أكثر، لضعفه... وربما أعود إلى الكلام عنهما بعد ذلك فى فرصة أخرى».

وعاد سعد فى مذكراته وانتقد أمى لأنها تجعلنا نعيش فى مستوى ربما لا نستطيع أن نصل إليه إذا كبرنا! مع أننا كنا نشكو من أمى لأنها تصر على أن نتقشّف، وأن نعيش فى مستوى أقل تلميذ معنا فى المدرسة! وقد رفضت أن نشترى بسكليتات وأصرت أن نذهب إلى المدرسة مشيًا على الأقدام. وعندما كنا تلاميذ فى الجامعة الأمريكية كانت أمنا تعطى الواحد منا خمسة قروش ثمن غدائنا فى كافتيرية الجامعة. ومكثنا عامين كاملين نقتصد الخمسة قروش ولا نتناول الغداء، حتى وفرنا ثمن دراجتين، كنا نخفيهما فى بيت الجيران، ونخرج من البيت ونركب الدراجة إلى الجامعة ونعود عليها ثم نخفيها من جديد فى بيت الجيران، وندخل البيت مشيًا على أقدامنا.

وكان سعد زغلول يروى لنا أنه لايزال يذكر أول يوم جاء فيه من قريته أبيانة إلى مدينة القاهرة ليدخل الأزهر، وصحبه أخوه الأكبر الشناوى زغلول إلى قهوة «متاتيا» فى ميدان العتبة الخضراء. وجلس الشناوى مع بعض معارفه، وسألوه ماذا يطلب فطلب الشناوى شيشة، والتفتوا إلى سعد الصغير يسألونه ماذا يطلب؟ عرقسوس؟ تمر هندى؟ وطلب سعد «لكوم» أى ملبن واعترض أخوه الشناوى وقال:

– ليس من حق سعد أن يطلب شيئًا فى القهوة. إلا عندما يستطيع الدفع من عرق جبينه ثمن ما يأكله!

وكان سعد يقول لنا إنه شعر بالضيق الشديد، ولكن هذا

الدرس رسب فى نفسه، وأصبح يفكر دائمًا فى أن يدرس ويتعلم ويكسب قوته حتى يستطيع أن يجلس فى قهوة «متاتيا» ويطلب «واحد لكوم».

وتأثرت أمى بهذه الفلسفة. وعندما حصلت على شهادة البكالوريا لاحظت أن أسر الجيران اشترت لأولادها سيارات عندما حصلوا على البكالوريا (الثانوية العامة الآن) وذهبت إلى أمى أطلب منها أن تشترى لى سيارة فرفضت وقالت: إنك تشترى سيارة عندما تستطيع أن تدفع ثمنها من عرق جبينك!

واقتصدت من مرتبى من مجلة روزاليوسف واشتريت سيارة بالتقسيط! سيارة نصف عمر!

* * *

عودتنا أمى أن نتقبل الحياة فى حلوها ومرِّها! جاء يوم صادرت الحكومة الإنجليزية أموال سعد وصفية وأمى وأبى. اختفت من مائدتنا أطايب الطعام. كنا نفطر فولاً مدمسًا ونتغدى فولاً مدمسًا، ونتعشى فولاً مدمسًا، والعجيب أن الفول المدمس أصبح بعد ذلك أشهى ألوان الطعام طول حياتى، وهكذا لم أشعر بشقاء فى السجن عندما كنت أعيش على الفول المدمس. وكانت أمنا تعطينا خمس مليمات مصروفًا يوميًا نشترى به قطعة شوكلاتة «نستلة»! ومكثنا شهورًا لا نذوق الشوكلاتة ولا نذهب إلى السينما، وعندما جاء العيد لم يشتروا لنا بذلة جديدة كما اعتادوا

أن يفعلوا! وكانت أمى تعلمنا أن هذا الحرمان هو جهاد يشرفنا أن نحتمله فى محنة الوطن!

وقد أحيل والدى إلى المعاش ثلاث مرات. وصل مرتبه إلى ثلاثمائة جنيه فى الشهر، وهوى إلى معاش قدره خمسون جنيهًا فى الشهر. واستطاعت أمى أن تدبر أمرها، وتختصر فى النفقات وتجعل من الحرمان متعة، ومن الضيق فرجًا، وكانت قديرة فى مقابلة الخطوب بابتسامة!

وكان من عادتها أن تستقبل الأفراح بالدموع. فقد مات شقيقها الوحيد سعيد زغلول وهو فى الثلاثين من عمره، فإذا حصلنا على الشهادة الابتدائية بكت وقالت: «ياريت كان خالكم عايش»! وإذا حصلنا على الماجستير أو أصدرنا «أخبار اليوم» أو انتخبنا أعضاء فى البرلمان بكت نفس البكاء وقالت: «ياريت كان خالكم عايش»!.

واشتركت فى ثورة ١٩١٩، وكانت تخفى المنشورات فى داخل حبرتها السوداء، ويتصور من يراها أنها حامل فى ستة توائم، وكانت تقف أمام المحلات الإنجليزية تمنع الزبائن من دخولها تنفيذًا لقرار الثورة بمقاطعة البضائع الإنجليزية.

وفى سنة ١٩٣٠ حصل أخى على أمين على شهادة البكالوريا وأراد أن يسافر إلى إنجلترا لدراسة الهندسة، ورفضت أمى، وقالت إنها أقسمت فى سنة ١٩١٩ أن تقاطع الإنجليز وعبثًا حاولنا إقناعها بأن الثورة انتهت، واضطر والدى أن يستنجد

بالشيخ المراغى شيخ الأزهر وقتئذٍ الذى أفتى بأن قسم أمى لا يمنع أخى أن يتم دراسته فى إنجلترا. ومع ذلك أصرت أمى على أن تستمر فى مقاطعة إنجلترا. وعندما عين أبى وزيرًا مفوضًا فى أمريكا رفضت أن تمر على إنجلترا، وسافرنا إلى فرنسا ومنها إلى أمريكا، وعادت إلى مصر عن طريق إيطاليا بحيث لا تمر على إنجلترا! وكان أخى يتعلم فى إنجلترا فطلبت منه أن يجيء إلى فرنسا لتقابله هناك. وكان أبى يسافر إلى إنجلترا كل عام، وفى كل مرة يرجوها أن تسافر معه فكانت تأبى دائمًا أن تشترك فى هذه الرحلة!

ومن أجل أمى أحببت كل الأمهات. وإلى اليوم لا أرى فى السينما فيلمًا فيه أم تموت أو أم تودع أولادها حتى تنهمر الدموع من عينى. ولهذا لا أذهب إلى السينما حتى لا يرى المتفرجون رجلاً طويلاً عريضًا يبكى كما يبكى الأطفال. فقد أحببت أمى حبا عجيبًا، وكنت أجد فى حبها لذة وراحة وهناء. كنت أشعر أن ابتسامتها هى الوسادة التى أسند عليها رأسى المتعب. وكانت تلمس بيدها جبينى المحموم فأحس كأنها وضعت بلسمًا شافيًا على جروح روحى. كانت إذا بكت أمامى أهتز كأننى فقدت الدنيا كلها، وإذا ضحكت شعرت كأن العالم كله فى يدى. إن طاقة حنان من قلب أم كفيلة أن تضىء الحياة كلها، ولهذا فإننى فى ظلام الحوادث، كنت أرى النور فى وجه أمى. وفى وحدتى كنت أتلمس فيها العزاء والصبر، ولقد كانت فى بعض هذه الأزمات ميتة فعلاً، ولكنى كنت أحس بها حية فى قلبى. كنت أشعر أن جهاز

الاستقبال فى روحى لايزال يلتقط موجات الحب والحنان والعطف التى ترسلها محطة الإرسال من قلبها. وعجيب أن يحس الإنسان أن شخصًا مات ودفن من عشرات السنين، لايزال قلبه على قيد الحياة ! ولا أظن أن هذا شعورى وحدى، ولا أحسب أننى وحدى أؤمن بأن الموت لا يقطع الصلة بين الأحياء والأموات، فإن هؤلاء الأموات يرسلون شعاعًا رقيقًا شفافًا إلى الذين تركوهم وراءهم فى الحياة. إن بينهم وبين هؤلاء سلكًا كأسلاك التليفون يحمل الرسائل بين الآخرة والدنيا، وهذا الاتصال التليفونى غير المنظور، هو الذى يحفظ للحياة بعضًا من حلاوتها التى تأكلها الأيام !

ولهذا فإننى كلما جلست مع أم من الأمهات، حاولت أن أجد فيها شيئًا ولو صغيرًا من أمى. وقد قرأت كثيرًا عن صور الملائكة، ولكنى أعتقد أن الله خلق الملائكة فى صورة أمهات، فلا يوجد فى الدنيا أجمل ولا أقدس من الأم. وكثيرًا ما قرأت عن الأدوية التى تعيد الشباب، ولا أظن أن اكتشافًا يستطيع أن يفعل فى الإنسان ما يفعله حنان الأم مع ولدها. كنت أشعر وأنا فى الأربعين من العمر، أننى عدت طفلًا أمام أمى ! كان حنانها يطوى السنين من عمرى، ويعيدنى إلى مرح الشباب. كانت بسمتها تغسل من روحى أتربة الزمن وغبار المتاعب وأوساخ الحياة. كانت قبلتها أشبه بالبنج الذى يجعلك تحتمل مشرط الطبيب، ومشرط الزمن كثيرًا ما يؤلم أكثر مما يؤلم مشرط الجراح...

وصدر الأم هو الباب المفتوح الذى لا يغلق أبدًا، حتى لو

أغلقت فى وجهك جميع أبواب الدنيا، ولهذا فإننى فى كل خلاف بين أم وولدها أجد نفسى أنضم أوتوماتيكيا إلى الأم. وذلك لأننى أعتبرها مخلوقًا مقدسًا، أعلى من مستوى البشر. مخلوقًا أشبه بالملوك الأقدمين الذين لهم حق إلهى، فهى ذات مصونة لا تمس لأنها مصدر السلطات، بل مصدر الحياة كلها! ويبدو أن البعض منا لا يشعر بقيمة الأم إلا إذا فقدها، فالأم مثل الصحة، إنها تاج على رأس الابن لا يراه إلا اليتيم!

الرجل الذى علمنى التفاؤل!

كتبت كثيرًا عن أمى. ولم أكتب إلا قليلًا عن أبى، مع أن أبى لعب دورًا كبيرًا فى حياتى - إيجابًا وسلبًا - فقد كان يعشق الصحافة ويكره أن أكون صحفيا! وكان يحب السياسة ولا يطيق أن أعمل بالسياسة، وكان رجلًا متمردًا، وكان يطلب منى طاعة المدرسين طاعة عمياء. وينصحنى دائمًا أن أذكر باستمرار أن من علمنى حرفًا صرت له عبدًا، ولم أطق أن أكون عبدًا لأحد، ولهذا فصلت من كل مدرسة دخلتها، فصلت من المدرسة الثانوية الملكية، وهى الخديوى إسماعيل الآن، وفصلت من المدرسة الخديوية، وفصلت من الجامعة الأمريكية، وفصلت من مدرسة رقى المعارف. وكانت هوايتى أن أشترك فى كل مظاهرة، وأتزعم كل إضراب!

وأنا شخصيا لم يضربنى أبى، وضربتنى أمى، ومع ذلك كنت أحب أمى أكثر من أبى، لأن أعمال أبى كانت تقتضى منه أن يتركنا فى القاهرة أغلب أيام السنة ليعمل مع شريكه المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى فى مكتب للمحاماة فى مدينة المنصورة، ومكتب آخر فى مدينة دمياط. وكان يبقى غائبًا عنا فى أغلب أيام الأسبوع، ولا يحضر لنا إلا أيام الخميس والجمعة، وهكذا كان غيابه الاضطرارى سبب قربنا من أمنا،

وكان أبى متمردًا، وفى مذكرات سعد زغلول صفحة فى سنة ١٩١٦ يصف فيه سعد زغلول كيف قبضت الحكومة على أبى فى دمياط أثناء الحرب العالمية الأولى، لأنه يقول أخبارًا عن الحرب ضد الإنجليز وهزيمتهم فى المعارك، وكيف جاءوا به مخفورًا فى قطار من دمياط إلى القاهرة، وذهب سعد زغلول إلى محطة مصر، ورآه وهو مكبل بالحديد، وأنه تحدث مع حسين رشدى باشا رئيس وزراء مصر، فروى له أن أمين يوسف المحامى يقول كلامًا عن الإنجليز لايجوز أن يقال! ونبه سعد زغلول على أبى أن يحفظ لسانه فى ظل الأحكام العرفية البريطانية والرقابة العسكرية!

وقد ورث أبى التمرد عن أبيه الشيخ أمين أبو يوسف المحامى فى دمياط، ويقول المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن الثورة العرابية: إن جدى الشيخ أمين أبو يوسف المحامى فى دمياط كان عضوًا فى الجمعية العمومية التى اختارتها ثورة عرابى ممثلة للشعب المصرى، وهى الجمعية التى قررت خلع الخديو توفيق فى أثناء الثورة العرابية.

وتقول وثائق قصر عابدين عن محاكمة قواد الثورة بعد فشلها: إن أحد شهود الإثبات قال فى جلسة المحاكمة: إنه فى يوم ضرب الأسطول البريطانى لمدينة الاسكندرية عام ١٨٨٢ كان الشيخ سعد زغلول، والشيخ أمين أبو يوسف يخطبان فى الجماهير، ويحرضان الشعب أن يقوم وينقض على الإنجليز ويقاوم الغزاة، دفاعًا عن الإسلام. وحكمت المحكمة العسكرية بتجريد

الشيخ أمين أبو يوسف ونفيه خارج القطر لمدة ثلاث سنوات،
وعرفت أسرة أبي الفقر والحرمان والجوع. وكان أهل دمياط
يجمعون لزوجته مبالغ شهرية لتستطيع أن تأكل هي وبناتها الأربع
وطفلها الوحيد.

وأمضى الشيخ أمين يوسف سنوات النفى فى لبنان مع صديقه
الشيخ محمد عبده، وعاش الاثنان أيامًا من الضنك والفقر، لولا
أن علم أهل بيروت بأمرهما، فسارعوا إلى فتح بيوتهم لإقامتهما.

وعندما عاد الشيخ أمين يوسف إلى مصر فوجئ بأن الناس
انقلبوا على الثورة المهزومة، وأصبح الصديق يتنكر لصديقه،
والأخ يتجاهل أخاه، وحاول أن يعود إلى المحاماة، فإذا بزبائنه
يهربون منه، مع أنه كان أشهر محام فى دمياط قبل اشتراكه فى
الثورة.

وبدأ المحامى المنبوذ يعود من تحت الصفر، ويسترد زبائنه،
ويكسب أصدقاءه وعاد الشيخ محمد عبده من منفاه، وأصدر
الشيخ أمين أبو يوسف مجلة شهرية باسم نور الإسلام، كان
يكتب فيها الشيخ محمد عبده، وعدد من ضحايا الثورة.

وبعد ثماني سنوات بدأ الخديوى عباس يعفو عن رجال ثورة
عرابى.

وفى جريدة الوقائع المصرية فى ديسمبر ١٨٩٠ الخبر التالى:

«عفو كريم صادر لنظارة الداخلية..

فى ١٩ ربيع الثانى سنة ١٣٠٨ من أول ديسمبر سنة ١٨٩٠

إن من المشتركين فى جريمة العصيان من يدعى أمين أبو يوسف من دمياط، المحكوم عليه فى الدكريتو الصادر من لدنا فى ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ بتجريده ونفيه خارج القطر لمدة ثلاث سنوات، وقد عرض على أعتابنا يسترحم العفو عنه، وبناء ما جبلت عليه سجايانا من الشفقة والرحمة، اقتضت إرادتنا العفو عن المذكور، ورد ما يكون تجرد منه من الرتب والعنوانات وعلامات الشرف والامتيازات، وأصدرنا أمرنا هذا لدولتكم وإجراء ما اقتضاه»

الخديوى عباس حلمى

وكان وزير الداخلية يومئذ هو مصطفى رياض باشا رئيس الوزراء ووزير المالية، فاستدعى الشيخ أمين يوسف وسلمه قرار الخديوى بالعفو عنه، ونبه عليه بعدم الاشتغال بالسياسة، ونصحه بأن يلزم بيته إلى أن يموت. وقال الشيخ إنه لو لزم بيته فسوف يموت من الجوع، وأنه لكى يعيش يجب أن يستمر فى مزاولة المحاماة، فسمح له رئيس الوزراء أن يشتغل بالمحاماة، بشرط ألّا يتصل بأحد من زعماء الثورة. وقال الشيخ أمين: إن صديقه الوحيد هو الشيخ محمد عبده، فكيف لا أتصل بصديقى الوحيد؟ وقال له مصطفى رياض باشا: والشيخ محمد عبده هو صديقى أيضًا، ومادمت أتصل به أنا فمن حقك أن تتصل به.

وأصبح الشيخ أمين يوسف يتنقل بين دمياط والمنصورة والزقازيق والقاهرة، واسترد مكانته فى المحاماة، وأصبح من أشهر المحامين فى مصر، وربح من المحاماة أموالًا طائلة، وكان مشهورًا

بأنه ينفق أمواله على إقامة المآدب لأصدقائه ومعارفه، وكان معروفا بكثرة ألوان الطعام التى يقدمها فى مآدبه، وحدث أن أقام مأدبة للشيخ محمد عبده وبعض المفتشين الإنجليز، واشترط مفتش وزارة الداخلية ألّا يقدم الشيخ أمين أبو يوسف إلا طبقًا واحدًا فقط، وقبل الشيخ أن يخضع لهذا الشرط، ووجد الضيوف على المائدة عجلًا، داخله خروف، وداخل الخروف ديك رومى، وداخل الديك فراخ، وداخلها حمام، وداخلها سمّان!

وعندما مات فتحوا خزائنه فلم يجدوا فيها مليمًا واحدًا ، فقد أنفق كل ما كسب على إقامة المآدب والحفلات التى يغنى فيها الشيخ عبده الحامولى!

وفوجئ أبى وهو طالب فى السنة النهائية بمدرسة الحقوق أنه لا يستطيع أن يسدد مصاريف مدرسة الحقوق.

وتقدم زوج أخته محمد بك جاد يوسف عمدة شنيط الحرايدة، مركز كفر صقر، بمحافظة الشرقية، وتكفل بأن يدفع مصاريف دراسة أبى فى مدرسة الحقوق، وينفق عليه إلى أن تخرج وحصل على الليسانس.

وكان أبى كريمًا متلافًا، وروى لى أنه كان تلميذًا فى مدرسة الخديوية الثانوية، وأرسل له والده مبلغًا من المال ليشترى ملابس داخلية، ولكنه لم يشتر الملابس التى كان يحتاج إليها، واشترى بها بدلًا منها تذاكر فى حفلة غنائية فى مسرح الشيخ سلامة حجازى، ودعا إليها أصدقاءه من طلبة المدرسة الخديوية.

وقد ورثت عن أبى وجدى التمرد، ولكنى لم أرث حب الإسراف، ولا البذخ فى إقامة المآدب والحفلات، وقد ورثت عن أمى الاقتصاد، وكنت ألوم أبى على بذخه وإسرافه وكان يقول: إننى أبنى لكم المجد! ولا أذكر أن أحدًا من الذين دعاهم أبى إلى مآدبه الباذخة تذكر هذه المآدب بعد أن انتهى من تناول الطعام!

ولا أذكر أن أبى ضربنى طول حياتى مرة واحدة، وأذكر أن أمى ضربتنى كثيرًا وأنا طفل، ومع ذلك كنت أحب أمى أكثر مما أحب أبى، ولعل السبب فى ذلك أن أمى لم تفارقنا قط إلى أن ماتت، فى حين أن أبى كان كثير السفر والرحلات، وكان لا يستقر فى مكان واحد، وكانت أعماله تقتضيه أن يتركنا أغلب أيام السنة ليعمل فى مكتبه فى المحاماة فى المنصورة ودمياط. وهكذا كان غيابه الاضطرارى سببًا فى قربنا من أمّنا.

وكنت أختلف فى الرأى مع أبى، وكانت حماقة الشباب توهمنى أننى أرى أبعد مما يراه، ثم أثبتت الأيام قصر نظرى وبُعد نظره، وحماقتى وحكمته، وغباوتى وذكاءه! كنا ونحن صغار نتوهم أننا أعلم من آبائنا، مع أننى كنت فى المدرسة الابتدائية، وكان هو يحمل ليسانس الحقوق، وكانت تجاربنا القليلة تخدعنا إلى أن تصدمنا الحياة بحقائقها المروعة. وكنت أضيق بأبى، لأنه كلما رآنى قال لى: استذكر دروسك.. وكانت هذه الكلمة تنكد علىّ أيامى، وعندما كبرت عرفت أنه لولا هذه الكلمة لما حصلت إلا على الشهادة الابتدائية!

وأذكر أنه دعانى يومًا لمشاهدة فيلم «أضواء المدينة» لشارلى شابلن. وكان فيلمًا ساخرًا ضاحكًا، لا تمر دقيقة حتى تغرق فى الضحك الطويل، وبينما أنا أستغرق فى الضحك قال لى أبى فجأة «عندما ينتهى الفيلم اخرج مباشرة إلى البيت واستذكر دروسك»! وصدمتنى هذه الجملة عكرت مزاجى، وتحول الفيلم الكوميدى إلى فيلم درام!

وأذكر عندما كبرت أننى دعوت صديقا لى لتناول الغداء فى بيتى، وجاء أبى أثناء الطعام وطلب أن أجتمع به على انفراد، واستأذنت من صديقى وذهبت إلى أبى الذى قال لى: أحذرك من هذا الشخص! إنه رجل سافل غادر، متخصص فى طعن أصدقائه بالخناجر والسكاكين! ولم أرد على أبى وتركته، وعدت إلى صديقى وسخرت بينى وبين نفسى من سوء ظن أبى وشكوكه فى الناس! وقلت لنفسى هل من المعقول أن يستطيع أبى أن يدرس صديقى كما درسته؟ أنا أقابله كل يوم وأبى لم يجلس معه سوى مرة أو مرتين! إننى بذكائى أستطيع أن أفرق بين الطيب والخبيث!

ومضت الأيام وتولى على ماهر باشا رياسة الوزارة، وكانت علاقتى به وثيقة، واقترحت عليه مشروع إنشاء وكالة وزارة للإعلام، كما حدث فى بعض الدول الأوربية، وعرضت على رئيس الوزارة مشروعًا مدروسًا لإنشاء هذه الوزارة والمصالح الحكومية التى تضم إليها. وتصفح على ماهر المذكرة بسرعة ثم طواها وهو يقول لى: أنا لا يهمنى تفاصيل المشروع الذى يهمنى من هو

الشخص الذى ينفذ هذا المشروع. قلت له إننى سأفكر لمدة ٢٤ ساعة وأجيء لك بالاسم الذى يصلح ليكون وكيل وزارة الإعلام. قال على ماهر: تعال لى غدًا الساعة الرابعة بعد الظهر ومعك الاسم!

وذهبت إلى مكتبى فى الأهرام، وإذا بصديقى هذا يزورنى فى مكتبى، ورويت له الحديث الذى جرى بينى وبين على ماهر رئيس الوزراء، وقلت له إننى سأقابل رئيس الوزراء فى الساعة الرابعة بعد ظهر الغد، وأرشحه هو وكيلًا لوزارة الإعلام، وشكرنى الصديق وانصرف.

وفى الموعد المحدد كنت عند رئيس الوزراء وقلت له إننى اخترت فلانًا لأرشحه وكيلًا لوزارة الإعلام.

وسألنى على ماهر: لماذا؟

قلت: أولًا لأنه كفء.

قال على ماهر: وثانيًا؟

قلت له: لأنه مخلص لك.

قال رئيس الوزراء: مخلص لى كما هو مخلص لك.

واحمر وجهى خجلًا: نعم هو صديقى، ولكن هذه الصداقة الوطيدة ليست هى الدافع لترشيحه.

قال رئيس الوزراء: لو كان مخلصًا لى مثل إخلاصه لك فإن «واقعتى سودة»! وروى لى على ماهر باشا أنه فى صباح ذلك

اليوم قابله صديقى وقال له : أنا أعرف أن مصطفى أمين سيحضر لك بعد ظهر اليوم ليرشحنى وكيلاً لوزارة الإعلام، ومع ذلك فإن واجبى يحتم عليَّ أن أحذرك! إن مصطفى شاب صغير السن، وأنت تطلعه على الأسرار السياسية، وهو يروى أحاديثك ولا يكتم أسرارك!

لقد حاول الصديق أن ينال ثقة رئيس الوزراء على حسابى، برغم أننى رشحته لهذا المنصب الكبير. وشعرت بالخجل من نفسى، وبعبطى، وبغباوتى، لأننى لم أستمع لنصيحة أبى، ولم يعين على ماهر باشا هذا الرجل الانتهازى، وقال لى : لقد شعرت بعد أن طعنك أمامى بخنجر أنه سوف يطعننى ذات يوم بنفس الخنجر!

وقد علمنى أبى الديمقراطية واحترام حرية الرأى، وأنشأ فى بيتنا برلمانًا مؤلفا من أمى وأبى وأخى ومنى، وكان يعرض على هذا البرلمان كل مشروع للأسرة. مثلاً إذا أردنا أن نذهب إلى السينما يختار أبى الفيلم، ثم يعرضه للتصويت، فإذا وافق ثلاثة ورفض أحدنا نذهب إلى الفيلم، وإذا رفض ثلاثة لا نذهب إلى الفيلم، وإذا تساوت الأصوات لا نذهب إلى الفيلم أيضًا. وعلى الرغم من أننى أنا وأخى على أمين كنا أطفالاً فإن والدى كان يعتبر كل واحد منا صاحب صوت صحيح مثله تمامًا! وكانت هذه أول ديمقراطية مارستها فى حياتى.

وشجعنى والدى على المعارضة، وكان يناقشنى فى رأيى

ولا يلزمنى برأيه، وكان يشجعنى على أن أختلف معه، وكان خلافى الأكبر مع أبى وأمى أنهما كانا ضد اشتغالى بالصحافة، لأنها مهنة خطرة كالطيران، وكنت أضحك من مخاوفهما، إلى أن اكتشفت أن الصحافة أخطر من مهنة الطيران!

وكانت أمى تطيع خالها سعد زغلول وزوجته صفية زغلول طاعة عمياء، وكانا قد تبنياها بعد وفاة أمها وأبيها وهى طفلة، وكانت تحس أنهما الأب والأم، وأن عليها أن تطيعهما بغير مناقشة، أما أبى فقد كان بطبيعته متمردًا، ولهذا كان يناقش أوامرهما، ويعترض على بعض آرائهما.

وكانت أمى تغضب عندما يختلف أبى مع سعد أو صفية زغلول.

وكنت ألوم أبى على تمرده الدائم، كنت مثل أمى أؤمن بكل ما يقوله سعد زغلول، وكان أبى يناقشه. وكنا نؤيد النحاس، وهو يخالفه، ثم كنا ننتقد النحاس وأبى يدافع عنه. ولقد تعلمت منه أن الاستقلال فى الرأى يرضى ضميرك ويغضب الناس، ولكنه خير لك أن ترضى ضميرك وتغضب كل الناس، على أن تغضب ضميرك وترضى كل الناس...

وكان والدى محاميًا، ثم عين سكرتيرًا عامًّا مساعدًا لمجلس الشيوخ، وسقطت وزارة سعد زغلول، وجاءت وزارة زيور باشا، فنقلته إلى وظيفة صغيرة فى وزارة المالية. وكان والدى متفائلاً، وكان يؤكد أنه لابد أن يعود إلى وظيفته الأولى فى اليوم التالى! ولم

يعد إلى وظيفته فى اليوم التالى، ولا فى السنة التالية، ولكنه كان يؤكد فى كل يوم أنه سيعود إلى وظيفته غدًا! وبعد سنة ونصف سقط حكم زيور باشا، وقامت حكومة الائتلاف بين الأحزاب، فأعيد أبى إلى وظيفته الأولى... وبعد ذلك بثلاثة أعوام تولى محمد محمود باشا رياسة الوزارة، وعطل الدستور، وحل البرلمان، ونقل محمد محمود باشا أبى من مجلس الشيوخ إلى وزارة العدل بلا عمل. وعاش أبى عامين يؤكد أنه سيعود إلى منصبه فى اليوم التالى. ثم سقطت وزارة محمد محمود، وتولى عدلى يكن باشا رياسة الوزارة، وأعاد الدستور المعطل، وعاد أبى من جديد إلى منصبه فى مجلس الشيوخ. وبعد شهور قامت ديكتاتورية إسماعيل صدقى، وقرر تعيين أبى مفتشًا عامًّا للرسم فى وزارة المعارف! ولم يكن والدى يعرف أى شىء عن الرسم، وذهب أبى إلى حلمى عيسى باشا وزير المعارف يقول له هذا، وضحك وزير المعارف وقال له: وأنا أيضًا لا أعرف شيئًا فى التعليم! وبعد شهور نقل صدقى باشا أبى إلى مصلحة السكك الحديدية، ثم نقله مفتشًا فى وزارة التجارة.

وانتهت ديكتاتورية إسماعيل صدقى باشا، وتولت الحكم وزارة محايدة، ورشحت أبى وزيرًا مفوضًا فى واشنطون، وفى تلك الأيام حدثت كارثة، فقد كنت أنشر بابًا يوميًّا فى جريدة الجهاد بعنوان «مشاغبات» بإمضاء مشاغب، وذات يوم اعترضت على قرار بإيفاد الأمير فاروق إلى إنجلترا لدراسة الشئون العسكرية، وكتبت أقول: لماذا لا يدخل الأمير فاروق الجامعة المصرية، إنه

سيحكم المصريين لا الإنجليز! ولماذا يدرس الشئون العسكرية؟ فهو سيحكم لا سيحارب، وغضب الملك فؤاد، واتصل محمود شوقى باشا سكرتير الملك فؤاد بالأستاذ توفيق دياب، صاحب جريدة الجهاد، وقال له إن الملك فؤاد غاضب، وإن القصر علم أن كاتب المقال شيوعى، ويريد أن يعرف اسم كاتب المقال، ورفض توفيق دياب أن يذكر اسم كاتب المقال، ولو كان الملك فؤاد عرف أننى كاتب المقال لشطب اسم أبى من المرسوم الملكى بتعيينه وزيرًا مفوضًا فى أمريكا!

وهكذا نجا أبى من الرفت بأعجوبة!

وبعد ذلك سقطت وزارة النحاس سنة ١٩٣٨، فقررت حكومة محمد محمود نقل أبى من أمريكا إلى منصب كبير مفتشى وزارة المالية.

وتولت وزارة على ماهر باشا، وكتبت مقالاً فى مجلة آخر ساعة أغضب رئيس الوزراء، فقرر رئيس الوزراء إحالة أبى على المعاش.

وتولى حسين سرى باشا رياسة الوزارة، فعين أبى خبيرًا اقتصاديًا لمصر فى السودان. ثم تولى النحاس باشا رياسة الوزارة، وحدث خلاف بين النحاس ومكرم عبيد، وأيدت مكرم فى مجلة الاثنين التى كنت أرأس تحريرها، وجاءنى محمود غنام باشا وزير التجارة، وقال لى إن الوزارة غاضبة لموقفى المعارض لها، وإنه إذا لم أتوقف عن المعارضة سيرفت أبى من منصبه.

وعدت إلى بيتى حائرًا. ولم أستطع أن أنام، وقامت أمى من نومها فى نصف الليل ورأت نور غرفة نومى مضيئًا، فجاءت لى وسألتنى لماذا لا أنام؟ ورويت لها الإنذار الذى وجهه لى وزير التجارة، وقلت إننى حائر ماذا أفعل. وقالت لى أمى: افعل ما يرضى ضميرك! وفى اليوم التالى اتصلت بوزير التجارة وأبلغته بقرارى.. وبعد يومين اجتمع مجلس الوزراء وقرر إحالة أبى إلى المعاش! وهبط مرتبه من ١٥٠ جنيهًا فى الشهر إلى خمسين جنيهًا فى الشهر!

واضطررنا أن نضيق من حياتنا ونحذف الكماليات، ونعيش على الضروريات. ولم يحدث مرة واحدة أن عاتبنى أبى على أننى السبب فيما نحن فيه من ضيق ولم يكن شقيًّا فى حياة الحرمان، بل كان على العكس واثقًا بأنه سيعود إلى منصبه الكبير فى اليوم التالى.

ولم تتحقق نبوءته، ومات بعد ذلك بسنوات دون أن يعود إلى منصبه الكبير، ولكنه علمنى التفاؤل!

* * *

وكان والدى يقول لى كل يوم وأنا تلميذ: عندما كنت فى سنك كنت دائمًا من العشرة الأوائل! وحاولت عبثا أن أكون من العشرة الأوائل، لكننى كنت أجمع بين العمل الصحفى والدراسة، ولهذا كان ترتيبى دائمًا آخر الفصل!

وفى أحد الأعوام دخلت الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وكان

من عادتها عقد امتحانات شهرية، وإعطاء شهادة يطلع عليها أولياء الأمور، وكان ترتيبى فى هذه السنة العاشر أو التاسع، وكان والدى يبتهج بهذه النتيجة، ويعطينى جنيهًا بعد أن يقرأ الشهادة الشهرية، وذات يوم أرسل عميد الجامعة الأمريكية يطلب من أبى الحضور لمقابلته، وفوجئ أبى بالعميد يقول له إن ابنك طالب فاشل وغير منتظم ولا يستذكر دروسه!

ودهش أبى وقال للعميد: غريبة! هذه أول مرة فى حياته يصبح كل شهر أحد العشرة الأوائل!

قال له العميد: لأن عدد الفصل عشرة تلاميذ فقط لا غير!

حامل القنبلة

اتصل بى حارس الأمن الواقف على باب «أخبار اليوم» وقال لى إن رجلا فى الأربعين من عمره يحمل كيسا من البلاستيك يصر أن يقابلنى، وهو يرفض أن يذكر اسمه أو عمله، ويرفض أن يفتش رجل الأمن الكيس الذى فى يده.

وقال رجل الأمن إنه يشك أن فى الكيس قنبلة!

ودعوته أن يجىء بالرجل لأقابله.

ودخل حامل القنبلة إلى مكتبى، رجل فى الأربعين من عمره، له لحية سوداء فيها بضع شعيرات بيضاء، وعلى وجهه نظارة سوداء تخفى عينيه، وكان يحمل كيسا كبيرا من البلاستيك أبيض اللون.

وفتح الرجل الكيس وأخرج خمسة عشر ألف جنيه وأعطاها لى، ورفض أن يذكر اسمه وقال إنه يتبرع بها لليلة القدر!

وسألته: لمن تريد أن تخصص هذا المبلغ؟

قال: أنت حر تختار أين تنفقه!

وألححت عليه أن ننشر اسمه، فأصر على الرفض، وقال إنه لا يريد أن يذكر أى شىء عن هذا التبرع فى جريدة «أخبار اليوم» وبعد إلحاح قبل أن نطلق عليه اسم «إنسان»..

قلت: أريد أن أعرف عنوانك حتى أرسل لك الإيصال بالمبلغ.

ورفض الرجل المجهول أن يذكر عنوانه، وكل ما عرفته عنه أنه متزوج وله خمسة أولاد، أكبرهم عمره تسع سنوات!

وأعطانى المبلغ بتواضع عجيب وكأنه يعطينى خمسة عشر قرشا!!

وعرضت عليه أن أطلب له فنجانا من القهوة ورفض، كأنه خشى أن يكون فنجان القهوة ثمنا لهذا التبرع العظيم..

وانقطعت أخباره عدة شهور، ثم ظهر فجأة وفى يده كيس بلاستيك أخضر اللون وأخرج من الكيس عشرين ألف جنيه، وقال إنه يتبرع بها لليلة القدر، وأصر نفس الإصرار ألا يذكر اسمه فهو لايريد أن يعرفه أحد ثم يقول إن له عندى رجاء..

وأسرعت أؤكد له أن كل رجاء له هو أمر مجاب.

قال الرجل: لا أريد أن تشيروا فى الجريدة إلى هذا التبرع كما فعلتم فى المرة الماضية.

قلت: إننى آسف فإن تقاليد ليلة القدر أن ينشر فى الجريدة كل مبلغ يصل إلينا..

وهز رأسه آسفا وقال: أنتم تضيعون علىَّ الثواب بالإشارة إلىَّ حتى ولو لم تنشروا اسمى.

ومضى مسرعا إلى الباب كأنه ارتكب إثما لا يريد أن يراه أحد!!

ومرت شهور كثيرة وعاد حامل القنبلة إلى مكتبى يحمل كيس البلاستيك المعهود، وفتح الكيس وقدم لى ثلاثين ألف جنيه تبرعا لليلة القدر، وعاد يكرر شروطه بألا ينشر اسمه، ولا يعرف أحد من هو!

ثم مرت الشهور مرة رابعة وأقبل حامل القنبلة من جديد وفتح الكيس البلاستيك، وأخرج هذه المرة مائة ألف دولار، وقال إنه يتبرع بها لليلة القدر، وطلب منى رقم تليفون مكتبى ليستطيع الاتصال بى إذا أراد أن يقابلنى فى يوم من الأيام، ثم اختفى من الغرفة وكأنه «الأب نويل» فى عيد الميلاد الذى يتوهمه الأطفال بلحيته البيضاء يخرج لهم من النافذة حاملا الألعاب والأمنيات.

وبعد شهور دق التليفون فى مكتبى وسمعت صوتا يقول: أنا الإنسان الذى يزورك فى مكتبك.

ووجدته صاحبى ولكن أحسست أنه يتأوه وهو يتكلم وقال لى بصوت محشرج إنه أصيب فجأة بأزمة معوية شديدة وهو وحيد فى بيته يبحث عن طبيب ليسعفه فلا يجد، وإنه اضطر أن يتصل بى فى الرقم الذى أعطيته له.

وقلت له إننى سأبحث له فورا عن طبيب وطلبت منه اسمه وعنوانه، فتردد فى أول الأمر، قلت: كيف يجىء لك الطبيب دون أن يعرف اسمك أو عنوانك.. وذكر لى اسمه وعنوانه ونبه علىَّ ألا أخبر الطبيب باسمه لأنه لا يريد أن يعرف أحد أنه المتبرع بهذه المبالغ.

واتصلت بطبيبى الدكتور الأستاذ الرملى الطبيب الباطنى المشهور ورجوته أن يترك عيادته فورا لينجد صاحبى المريض، ولم أذكر عن شخصيته شيئا اجابة لطلبه.

وترك الدكتور الرملى عيادته وأسرع إلى بيت المحسن المجهول حيث قام باسعافه.

ولم أعرف كيف أشكر هذا الإنسان العجيب الذى رفض بشدة أن نشيد به أو أن نتحدث عن تبرعاته للمحتاجين فى ليلة القدر.

وبينما كنت أتصفح «أخبار اليوم» وجدت مقالا بقلم أحد محررى أخبار اليوم يهاجمه بعنف، ويوجه إليه اتهامات قاسية.

وحققت الأمر فوجدت أن موظفا عنده طرده لعدم أمانته، فدس هذه الأكاذيب على المحرر فنشرها بحسن نية..

واتصلت تليفونيا بمنزل الرجل الذى ظلمناه فلم يجب أحد.

وركبت سيارتى وذهبت إلى بيته وسألت عنه فقال لى البواب إنه غادر البيت هذا الصباح هو وأسرته يحمل حقائبه..

وشعرت بتعاسة لا حد لها، لابد أن الرجل قرأ الهجوم الظالم عليه، فى الجريدة التى ائتمنها على أمواله، فغضب من البلد ومن فيها، وحمل أمتعته وهاجر منها.

ومكثت شهورا أحاول معرفة إلى أين سافر وحاولت عبثا أن أعرف مكانه ، أو أتتبع أخباره..

وأرسلت إلى مراسلى أخبار اليوم فى مختلف أنحاء العالم أطلب إليهم البحث عن رجل بهذا الاسم.. ولكن كل من اتصلت بهم عجزوا عن أن يدلونى على شىء.

ترى هل الاسم الذى ذكره لى ليس اسمه الحقيقى؟ ولكن البواب أكد لى أن هذا الاسم هو اسمه.. ثم أن المقال حدد اسمه وعمله.

وذهبت إلى مكتبه فعلمت أنه صفى أعماله!

وزاد ضيقى وتضاعفت حيرتى، وشعرت أننى خذلت إنسانا وثق بى.. وإننى جحدت معروفا، وأسأت إلى رجل غمرنى بفضله..

وكنت أشعر أننى مسئول عن هذه الإساءة.. لو قلت للمحررين المسئولين عن اسم هذا المحسن المجهول كلما جاء يحمل لى آلاف الجنيهات لتنبهوا وتحققوا قبل أن ينشروا هذا المقال الظالم..

ومرت سنوات دون أن أسمع شيئا عن الرجل الذى وثق بنا وخذلناه.. وأقبل علينا وطاردناه.. وأعطانا فحاربناه.. وكان شبح هذا الرجل المجهول يعكر علىَّ الحياة، أذكره فأذكر فضله ثم أذكر الإساءة التى وقعت عليه نتيجة خطأ محرر من محررينا..

وذات صباح جاءنى رجل وقال إنه رسول من عند فلان، وأسرعت إلى الرسول أعانقه وأسأله فى لهفة عن أخبار صاحبى.

وقال لى الرسول إن صاحبى مسجون فى سجن فى أحد البلاد

العربية فى تهمة سياسية وإنه استطاع أن يهرب إليه رسالة من الزنزانة..

وأخرج الرسول من جيبه ورقة قرأت فيها:

اذهب إلى شقتى فى القاهرة.. ادخل إلى غرفة النوم.. فى الدولاب الأبيض بجوار الفراش تجد بعض النقود.. خذ كل ما فى الدولاب من النقود.. اذهب إلى «أخبار اليوم» واعطها تبرعا منى لليلة القدر بشرط عدم ذكر اسمى لإنسان..

وفتح الرسول حقيبة سمسونايت وأخرج منها مبلغ أربعة عشر ألفا وسبعمائة جنيه بين جنيهات مصرية ودولارات أمريكية، ومارك ألمانى، وجنيهات سودانية وليرات إيطالية وعملة سورية ولبنانية وأردنية.. وبينها قروش فضية!!

وعجبت لهذا الرجل الذى يذكر فى زنزانته الفقراء الذين تساعدهم «ليلة القدر» ويقدم هذا المبلغ الذى ربما يحتاج الآن إلى كل قرش منه، للجريدة التى هاجمته ظلما فى يوم من الأيام.

وتمنيت لو أستطيع أن أساعد هذا الرجل فى محنته، ثم علمت أن أى كلمة سأقولها عنه ستزيد محنته وتضاعف البطش الذى ينزل به..

وحاولت أن أعرف من الرسول ماذا أستطيع أن أفعل لأساعد هذا الرجل العظيم.

قال الرسول ضاحكا: اشتموه مرة أخرى!!

قلت : معاذ الله!!

قال: إن مقال الهجوم عليه أنقذ رقبته من حبل المشنقة.. لقد كان الدليل الوحيد بأنه لا علاقة له بكم.. فلو كانت له علاقة بكم لما نشرتم هذا المقال!!

وحمدت الله أن الذى أراد أن يسيء إلى هذا الإنسان نفعه من حيث لا يدرى ولا يحتسب.. واطمأننت أن الله لن يتخلى عن مثل هذا الرجل الذى يعطى ولا ينتظر جزاء ولا شكورا.. ويساعد الفقراء والمحتاجين وهو يتخفى كأنه يرتكب اثما.. وينسى الإساءة ويمضى فى محنته يفكر فى الذين يعيشون فى محنة الحاجة والعوز والمرض والشفاء..

سوف يخرج هذا الرجل من سجنه، وسوف يحطم الخير الذى قدَّمه قيوده وسلاسله، فالله لا يقبل أن يبقى مثل هذا الرجل فى القيود والاغلال!!

حاتم الطائى باشا

كان حاتم الطائى باشا من أقاربنا الأبعدين، ولم يكن هذا اسمه أو لقبه، وإنما هو اسم «الشهرة»، كما كانوا يسمون فى المقهى فنجان القهوة الفاضى بالمليان!

وكان رجلا محظوظا، ما وضع يده فى التراب حتى تحول إلى ذهب، وما اشترى الأرض الجرداء حتى أصبحت حديقة غناء، ومانا سب رجلا مغمورا حتى دخل الوزارة.

وكان يملك قصرًا فخمًا ضخمًا، مليئًا بأثمن الأثاث وأغلى الرياش، وكان فى القصر غرفة كبيرة للطعام فيها مائدة لستة وثلاثين شخصاً، يتناولون الطعام فى وقت واحد، الأطباق من الذهب الخالص، والأكواب من الذهب الخالص، والشوك والسكاكين والملاعق من الذهب الخالص أيضًا، وكنا نسمى هذه الغرفة «الغرفة المحرمة»، إذ لم يدخلها أحد فى التاريخ القريب أو البعيد، وكان يردد دائما أنه يتشاءم من إقامة مآدب الغداء والعشاء، فهو يذكر أنه منذ ثلاث وثلاثين سنة أقام مأدبة فاخرة دعا إليها أكثر من عشرين مدعوا، وإذا بوالدته تموت فى نفس اليوم، ومنذ ذلك التاريخ لم يفتح غرفة الطعام مرة واحدة.

والغريب فى أمر حاتم باشا الطائى أنه مع كراهته الشديدة

لإقامة المآدب يهوى حضورها، وله أنف تشم رائحة الطعام من عدة كيلومترات، ولا نذكر أننا أقمنا مأدبة فى حياتنا إلا وكان حاتم باشا أول المدعوين بغير دعوة.

ولم يكن يهتم بأننا نتكلم عن بخله وراء ظهره، فقد استطاع بأعجوبة أن يحول هذه الرذيلة إلى فضيلة، فقد كان يروى نوادر بخله فخورًا وكأنه يتحدث عن أنباء كرمه!

روى لنا مرة أن البدلة التى يرتديها كان لونها أسود من ثلاثين سنة، ثم أصبحت رمادية اللون بعد عشر سنوات، ثم أصبحت صفراء اللون بعد عشرين سنة، ثم أصبحت الآن ترابية اللون، وفى كل عشر سنوات يتوهم أصدقاؤه أنه اشترى بدلة جديدة فيقبلون على تهنئته، بينما أن البدلة هى هى لم تتغير، وهو يعتقد أن الناس هم الذين يتغيرون لا لون البدلة، فقده النظر منذ ثلاثين سنة أضعف بصره. فأصبح يرى الأسود رماديا، ثم أصبح يرى الرمادى أصفر ثم أصبح لا يرى البدلة على الإطلاق!

وألحنا على حاتم باشا الطائى أن يفعل شيئًا لله، وأتعبنا معه وهو يفاضل ويقارن بين الجمعيات الخيرية المختلفة، ويدرس تقاريرها ويسأل الناس عن حسن سيرها وسلوكها، وأخيرا جاء إلينا يبشرى أنه اختار جمعية المواساة الخيرية بالإسكندرية، وقرر أن يغامر بمساعدتها وأن يشترى بعشرين قرشا، تذكرة يا نصيب، الجائزة الأولى فيه تكسب ثلاثين ألف جنيه.

وكاد يغمى علينا جميعا عندما ظهرت نتيجة اليانصيب فإذا

بحاتم باشا الطائى يكسب وحده الجائزة الأولى وقدرها ثلاثون ألف جنيه، بينما يخسر الفقراء والمحتاجون والمفلسون أحلامهم التى عاشوا عليها عدة شهور وفوقها العشرين قرشا!

وحاولنا أن نقنع المحسن الكبير حاتم باشا الطائى أن يتبرع بمبلغ من الربح للجمعية الفقيرة، وإذا بحاتم باشا يقول لنا إنه لو كان خسر العشرين قرشا لما طالب جمعية المواساة بتعويض. فكيف نطالبه الآن أن يدفع لجمعية المواساة تعويضا عن خسارتها؟

وبعد إلحاح شديد قبل حاتم الطائى باشا أن يزور مقر الجمعية ليشكر رئيسها، وتوقعنا أنه سيرى مجهودات الجمعية فيرق قلبه ويجود على أغراض الجمعية الخيرية بمبلغ من المال، وإذا بنا نسمع أنه أمضى ساعتين فى الجمعية ولم يدفع شيئا! وسألناه: وماذا فعلت فى هاتين الساعتين؟ فقال حاتم الطائى: شربت واحد قهوة.. وواحد شاى!

وكان من عادة حاتم الطائى أن يعرف مواعيد حفلات الزفاف فى الفنادق فى القاهرة، وكان يعرف الساعة المقررة لافتتاح البوفيه فيدخل إلى البوفيه فى اللحظة الحاسمة فيأكل ما لذ وطاب، وأهل العريس يعتقدون أنه أحد ضيوف العروسة، وأهل العروسة يتوهمون أنه ضيف العريس!

وحدث مرة واحدة أنه وقع حاتم الطائى فى مأزق فقد دخل إلى فرح كان فيه العروس والعريس من أسرة واحدة!

واستطاع حاتم الطائى أن يخرج من المأزق ويقول إنه أخطأ فى الفندق فقد نسى أن الفرح المدعو له فى فندق شبرد ودخل فندق هيلتون، وأبدى أسفه الشديد لهذا الخطأ، ولكن أصحاب الفرح أقسموا عليه ألا يخرج من البوفيه إلا بعد أن يتناول العشاء.. وفعلا تناول حاتم الطائى طعام العشاء... ثم استأنف سيره إلى زفاف فندق هيلتون!

وتغيظ أصدقاؤه وأقاربه من حظه الذى يفلق الصخر، وتآمروا أن يبيعوا له قطعة أرض جرداء بجوار القاهرة على أنها حديقة غناء تنبت ثمار المانجو، وزرعوا فيها ١٤ شجرة مانجو وزينوا له الصفقة، وأحضروا بعض أصدقائهم الذين ادعوا أنهم خبراء فى زراعة البساتين، وأوهموا حاتم الطائى أن يشترى صفقة العمر، واشترى حاتم الطائى عشرين فدانا، الفدان بعشرة آلاف جنيه.. واتفقوا أن يؤلفوا جمعية باسم «جمعية كفر الطماعين» وأسندوا رئاستها الشرفية إلى حاتم الطائى باشا!

ثم جاءوا بخبراء حقيقيين فى الزراعة أثبتوا أن ثمن الفدان لا يزيد عن ألف جنيه، وطلبوا منهم أن يكتبوا تقريرا بذلك.

وذهبوا يحملون التقرير ويزفون البشرى للطماع الكبير.. وإذا بهم يجدونه يحمل فى يده جريدة الوقائع الرسمية، وفيها قرار جمهورى بضم هذه العشرين فدانا إلى كردون المدينة وبجعلها أرض بناء... ومعنى هذا القرار أن ثمن الفدان الواحد ارتفع إلى مائة ألف جنيه!

كيف حدث هذا؟ هل كان حاتم الطائى يعلم طوال الوقت أن هذه الأرض الجرداء ستتحول إلى أرض بناء؟ هل جاراهم فى مؤامراتهم ليهزأ بهم بدل أن يهزأوا به؟ هل هذا الرجل العجيب فيه قدرة سحرية تجعله لا يخسر أبدًا؟ إنه يشترى البنك المفلس فيزدهر، ويحصل على أغلبية أسهم الشركة الخاسرة فتتضاعف أعمالها، ويشترى الدولار فيرتفع ثمنه، ويبيع الدولار فينخفض ثمنه، ويعين وزيرًا سابقًا عضوًا فى مجلس إدارة إحدى شركاته، وبعد أسبوع واحد أصبح عضو مجلس الإدارة رئيسًا للوزارة!

ولكن كل هذا الخير العميم لم يقنع حاتم الطائى بأن يكون أقل بخلا أو أكثر كرمًا، فقد كان يرفض أن يشترى سيارة لأن العجلة من الشيطان، ويصر أن يركب الترام فى الدرجة الثانية لأنه يعتقد أن النشالين يركبون فى الدرجة الأولى ليسرقوا أموال المغفلين الذين يضيعون أموالهم فى ركوب الدرجة الأولى! وكان يؤمن بأن المشى يطيل العمر والركوب يقصف العمر، وكان يملك عزبة فى قليوب، وكان يصر أن يذهب إليها ماشيا على الأقدام حتى يوفر أجرة السكك الحديدية، وكنا نقول له إن عمله هذا غير اقتصادى لأن حذاءه لابد أن يذوب من هذه الرحلة الطويلة، وكان يرد ضاحكا أنه يخلع الحذاء، ويمشى حافيا أكثر من ١٢ كيلومترا، وأن الأطباء قالوا له بعد عشرين سنه إنه بهذه الطريقة اكتشف علاجا لم يصل إليه الأطباء إلا أخيرا، وهو أن الذى يمشى ساعتين كل يوم يمكن أن يستغنى عن كل أدوية القلب والضغط والروماتيزم والسكر!

وفى إحدى الحفلات الساهرة رأى حاتم الطائى سيدة طويلة شقراء، فى عينيها الساحرتين شعاع يجذب، تتكلم وكأنها تغنى، تمشى كالغزال، وتجلس كأنها ملكة، وفتن حاتم الطائى بهذه الساحرة الشقراء، وتضاعفت فتنته وهواه عندما همس صديقه الدكتور فى أذنه أنها أرملة وأنها صاحبة ملايين وأنها أصغر منه بأربعين سنة، وجن جنونه عندما قال له الطبيب إنها مريضة بالقلب وإنها قد تموت فى أى لحظة بالذبحة الصدرية.

وعرف حاتم الطائى باشا أنه وقع على كنز! هذه هى المرأة المطلوبة! ملكة جمال! ومليونيرة وأصغر منه بأربعين سنة، ومريضة بالقلبْ أى أنها قد تموت بعد شهور، وتنتقل الملايين إليه!

وتآمر معارفه عليه، وقدموه إلى الشقراء الفاتنة، وأفهموها أنه عريس لقطة يموت فى شهر العسل!

واشترطت العروس أن تضع ملايينها مع ملايينه فى حساب واحد ورحب حاتم الطائى بهذه الفكرة العبقرية، ستموت الملكة المريضة، وتنتقل الملايين أوتوماتيكيا إلى حاتم باشا الطائى.

وعادت الشقراء الفاتنة تفرض شرطًا جديدا.. وهى أنها لا تستطيع أن تعيش الحياة البشعة التى يعيشها حاتم باشا.. يجب أن تفتح القصر المقفول، ووافق حاتم باشا على فتح كل الغرف المقفلة من ثلاثين عاما، ماعدا غرفة واحدة هى غرفة الطعام، ولكنها أرغمته على فتح الغرفة المحرمة وإقامة المآدب والحفلات والليالى الملاح!

وأصرت أن تركب سيارة ·رولزرويس، وأبت أن تقبل استرحامات حاتم الطائى بأن تشترى سيارة جيب!

وأخذته من يده إلى أكبر ترزى فى القاهرة وطلبت من الترزى أن يفصل له ١٢ بدلة جديدة.

وسقط حاتم الطائى مغشيا عليه، والترزى يأخذ مقاساته، واعتذر بأنه لم يدخل محل ترزى فى حياته مرة واحدة!

وكلما اعترض حاتم باشا على هذا البذخ والإسراف أجابت شهيرة هانم أنها لم تعش فى حياتها من قبل هذه الحياة البسيطة المتواضعة ولم تعرف «شظف العيش» إلا فى هذه الأيام.

وكان حاتم باشا يلطم خديه ويقول لأصدقائه: «تصوروا رولزرويس هى شظف العيش»!

* * *

تبدلت حياة حاتم الطائى باشا، أصبح لأول مرة يأكل فى بيته، فوجئ بشهيرة هانم تعين لها طاهيا بأربعمائة جنيه فى الشهر، قال لها هذا أكبر من مرتب رئيس وزراء مصر وإن أشرف له أن يعين رئيس وزراء سابق طاهيا! دهش عندما قدمته لسيدة اسمها فضيلة هانم وقالت إنها عينتها وصيفة لها بثلاثمائة جنيه فى الشهر.

لم يشعر فى أول الأمر بهول الموقف، فقد كانت عروسه شهيرة هانم هى التى توقع بإمضائها على الشيكات! وكان يعلم أنه لو وقع على شيكات بهذه المبالغ الطائلة لأصيبت يده اليمنى بالشلل!

وعندما جاء حساب البنك ورأى المبالغ الطائلة التى سحبت اصفر وجهه، وهزلت صحته.

ونظر إلى وجه عروسه شهيرة هانم، فإذا بها تزداد شبابًا، عيناها تتضاعفان بريقًا، أصبحت تمشى وكأنها تعدو وهو يحاول جاهدا أن يلحق بها وهو يلهث ويسعل ويعجب أن المريضة بالقلب تمشى بسرعة سيارة سباق!

وقال لها إنه يخشى على قلبها من عدوها المستمر وصحبها إلى طبيب القلب المشهور فى عيادته وطلب منه أن يكشف على زوجته المريضة بالقلب، وصور الطبيب العالمى القلب بالأشعة، ونظر إلى الصور وقال:

– إن قلبها سليم مائة فى المائة!

قال حاتم الطائى: أبدا إنها أصيبت بالذبحة الصدرية عدة مرات.

قال الطبيب العالمى: ليس فى الأشعة صورة ذبحة صدرية واحدة!

وأمسك الطبيب بحاتم الطائى ودفعه إلى الأشعة وصور قلبه ثم قال له: أنت مهدد بالموت!

قال حاتم الطائى مذعورًا:

– وما هو العلاج؟

قال الطبيب العالمى:

– العلاج أن تمشى عشرة كيلو مترات على قدميك كل يوم، أن تغلق غرفة الطعام، أن تعيش كالرهبان! احذر أن تعمل أى شىء برغم إرادتك!

وخرج حاتم الطائى من عيادة الطبيب إلى القنصلية المصرية فى لندن ووقع قسيمة الطلاق!

وفضل أن يعيش فقيرا بإرادته على أن يموت مليونيرا برغم إرادته!

ثم عاد إلى القاهرة واشترى تذكرة جديدة فى يانصيب المواساة.

فهرس الجزء الثانى

الصفحة

كتب للمؤلف

- **أمريكا الضاحكة** (حياة طالب مفلس فى أمريكا)
  الطبعة الأولى. ١٩٤٣ - الثانية ١٩٤٣ - الثالثة ١٩٤٤.
- **فاطمة: ١٩٤٧** مثلتها للسينما أم كلثوم وأنور وجدى.
- **عمالقة وأقزام** (ساسة مصر قبل الثورة) ١٩٥١.
- **ليالى فاروق** (قصة حياة الملك السابق) جزءان ١٩٥٤.
- **معبودة الجماهير: ١٩٦١** مثلها للسينما عبد الحليم حافظ وشادية
- **صاحبة الجلالة فى الزنزانة** (قصة الصحافة المصرية فى الأغلال والصراع بين الصحافة والطغيان)
  الطبعة الأولى ١٩٧٤ - الثانية ١٩٧٤ - الثالثة ١٩٧٥.
- **سنة أولى سجن**
  الطبعة الأولى ١٩٧٤ - الثانية ١٩٧٤ - الثالثة ١٩٧٥ - الرابعة ١٩٧٥ - الخامسة ١٩٧٥ - السادسة ١٩٧٨ - السابعة ١٩٨١.
- **الكتاب الممنوع** (أسرار ثورة ١٩١٩)
  الطبعة الأولى ١٩٧٤ - الطبعة ١٩٧٥.
- **سنة أولى حب ١٩٧٥** مثلها للسينما محمود ياسين ونجلاء فتحى.
- **ست الحسن**
  الطبعة الأولى ١٩٧٦ - الثانية ١٩٨١.
- **من واحد إلى عشرة**
  الطبعة الأولى ١٩٧٧ - الثانية ١٩٨١.
- **سنة ثانية سجن**
  الطبعة الأولى ١٩٧٧.

○ سنة ثالثة سجن

الطبعة الأولى ١٩٧٨.

○ لا..

الطبعة الأولى ١٩٧٧.

○ لكل مقال أزمة

الطبعة الأولى ١٩٧٩.

○ الـ ٢٠٠ فكرة

الطبعة الأولى ١٩٧٩.

○ تحيا الديمقراطية

الطبعة الأولى ١٩٨٠.

○ من عشرة لعشرين

الطبعة الأولى ١٩٨١.

○ صاحب الجلالة الحب

الطبعة الأولى ١٩٨٠.

○ من فكرة لفكرة

(الجزء الأول) الطبعة الأولى ١٩٨٣.

○ من فكرة لفكرة

(الجزء الثانى) الطبعة الثانية ١٩٨٤.

○ مسائل شخصية

الطبعة الأولى ١٩٨٤.

رقم الإيداع		١٩٨٨ / ٤٢٧٣
الترقيم الدولى	٩-٢٥١٦-٠٢-٩٧٧	ISBN

١ / ٨٨ / ٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

شخصيات لاتُنسى

هى شخصيات لاتُنسى ولاتضيع.. ليس من ذاكرة المؤلف فحسب.. وإنما من ذاكرة التاريخ المصرى المعاصر كذلك.

وقد اصطفى الكاتب الكبير عددًا من القادة والزعماء ورجال القلم والنساء والفنانين والشعراء.. والشخصيات الأخرى.. ثم أضاء جوانبها الخفية من واقع علاقته الشخصية بها.. إلى جانب أثرها الواضح فى مسيرة الحياة الاجتماعية والسياسية.. فجاءت تلك التراجم جديدة فى بابها.. طريفة فى عرضها..

ولايخفى على القارئ ما تميز به أسلوب الكاتب الكبير من السلاسة والعذوبة.. ورشاقة العرض.. مما يعد بحق تأريخًا صادقًا لفترة من أهم فترات التاريخ المعاصر...

٧ جنيهات

٤٢٠١١/٠١